

محمد حسن الوزاني

مذكرات

حياة وجهاد

التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية

2

حرب الريف



مؤسسة محمد حسن الوزاني

٢٥١٥٤

مذكرات

حميدة زهناو

التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحررية المغربية

محمّد حسن الوزاني

مذكرات

حياته وعهده

التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية

2

عرب الريف

الناشر

مؤسسة محمد حسن الوزاني

الإهداء

إلى أرواح جميع شهداء المقاومة المسلحة
والحركة الوطنية التحريرية في المغرب، وإلى جميع
الأجيال المغربية: لكي تعلم وتذكر، عسى تنفع
الذكرى المؤمنين.

المؤلف

العهد الأول بمحل الربيع الأول محمد أمزيان

ثار الربيع على القذافي الأسباني بمجرد ما ظهر خطر على البلاد، وكانت الثورة الأولى مدبرة من المجاهدين في القبائل المنددة بغير الأسباني، وكان أشهر فؤاد الجهاد في ذلك العهد البطل محمد أمزيان الذي أبلى البلاء الحسن في محاربة البعث بوجاهة ^{التي} استولى على ^{التي} الربيع، ثم انصرف بعد هذا إلى الجهاد ضد الأعداء الأسبانيين المحتلين، وكان ظهور المجاهد أمزيان في 1325 هـ (1905)، حيث كانت الحرب بين الامم بوجاهة، وفي 1909 هـ حشد الأسبانيون شوكتهم في ناحية طليطلة للعدوان على الربيع، فكان هذا سبب انطلاق حركة الجهاد ^{في} ضد المعتديين، وبني هذه الحركة بزر المجاهد محمد أمزيان كقائد هند يد على رأس جموع المجاهدين الشجعان، ودامت المعارك سنتين تجشم فيها الأسبانيون أعظم الخسائر وأفظح الهزائم، ويقال إنهم خسروا فيها عشرة آلاف قتيل، وفي طليطلة قواد عسكاريون كبار الجزال بينقو، والجنرال فيكاريو، وكانت قبيلة فلعمة إحدى القبائل التي جندت ضد العدو وجهاد الأبطال.

ومد الأسبانيون عرفت الربيع للمطامع الأجنبية ما كان يشاع عنه إذا كان من كثرة الثروات المعدنية التي جلبت إلى أرضه جميع المهتمين بها من الأجناب الأوربيين، ومن أشهرهم الأسبانيون والألمان، فكان المنقبون يتجولون في الربيع غريبة متذريين ومتحسسين لعائدة دولهم والشركات المعنية بآثارها، ولم يكن هذا الجانب من القذافي الأجنبي ليجلو من أنظاره في الحال والمثال على البلاد وأهلها وغير أنها، باعتبار طليطلة ^{في} للاستقلال، وتهدد الاستعمار.

صفحة بخط المرحوم الأستاذ محمد حسن الوزاني من مسودة هذه المذكرات

المحتويات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	5
الفصل الأول: بطل الريف الأول محمد أمزيان	9
الفصل الثاني: الثورة الريفية حركة وطنية تحريرية	17
الفصل الثالث: الوضع الداخلي الإسباني	25
الفصل الخامس: إعلان جمهورية الريف وتجدد المعارك	39
الفصل السادس: بدء المعارك في الريف	49
الفصل السابع: انعكاس الهزائم على الوضع السياسي في إسبانيا ..	61
الفصل الثامن: ثورة التحرير ومساعدتها الدولية	65
الفصل التاسع: قائد الثورة يتحدث إلى العالم	87
الفصل العاشر: فتح الجبهة الغربية بعد خيبة المساعي الدبلوماسية والدولية	99
الفصل الحادي عشر: من هو الريسوني؟	105
الفصل الثاني عشر: طلب إسبانيا المفاوضة من أجل الصلح	111
الفصل الثالث عشر: الجبهة الجنوبية: الحرب مع فرنسا	117
الفصل الرابع عشر: مؤتمر وجدة ومفاوضات السلام	127
الفصل الخامس عشر: التحالف الفرنسي الإسباني للقضاء على الثورة	135

143 الحسيمة سنة 1925
209 الفصل السابع عشر: أسباب الهزيمة الحربية
223 الفصل الثامن عشر: في طريق المنفى
277 الفصل التاسع عشر: بطل الجهاد أحمد اخريرو
323 الفصل العشرون: لماذا دخل الأمير محمد بن عبد الكريم في حرب مع فرنسا؟
333 الفصل الواحد والعشرون: جهاز الحكم لثورة الريف
357 الفصل الثاني والعشرون: الثورة الريفية ككيان منظم
371 الفصل الثالث والعشرون: ما هي حقيقة النظام السياسي في الريف زمن الثورة التحريرية؟
381 الفصل الرابع والعشرون: حكومة الريف والعالم الإسلامي
387 الفصل الخامس والعشرون: قضية الريف والبرلمان الفرنسي
401 الفصل السادس والعشرون: قضية الريف وأحزاب اليسار الفرنسي
413 الفصل السابع والعشرون: قضية الريف والدول الكبرى
427 الفصل الثامن والعشرون: لماذا توقفت حرب الريف؟
435 الفصل التاسع والعشرون: الاتصال بين ثورة الريف والتخبة الواعية في المغرب
445 الفصل الثلاثون: الأمير محمد بن عبد الكريم يصرح
451 الفصل الواحد والثلاثون: ثورة الريف وأدب الملحمة
461 الفصل الثاني والثلاثون: آراء وشهادات في الأمير محمد بن عبد الكريم
463 خاتمة

الفصل الأول

بطل الريف الأول محمد أمزيان

ثار الريف على التدخل الاسباني بمجرد ما ظهر خطره على البلاد، وكانت الثورة الأولى مدبرة من المجاهدين في القبائل المهددة بخطر الإسبان، وكان أشهر قواد الجهاد في ذلك العهد البطل محمد امزيان الذي أبلى البلاء الحسن في محاربة الفتان بوحمارة الذي استولى على شرق الريف، ثم انصرف بعد هذا إلى الجهاد ضد الأعداء الإسبانيين المحتلين، وكان ظهور المجاهد امزيان في 1325 هـ (1905)، حيث كانت الحرب سجلاً مع بوحمارة، وفي 1909 حشد الإسبان جيوشهم في ناحية مليلية للعدوان على الريف، فكان هذا سبب انطلاق حركة الجهاد ضد المعتدين، وفي هذه الحركة برز المجاهد محمد امزيان كقائد صنيدي على رأس جموع المجاهدين الشجعان، ودامت المعارك ستين تجشم فيها الإسبان أعظم الخسائر، وأفطع الهزائم، ويقال إنهم خسروا فيها عشرة آلاف قتيل وفي طليعتهم قواد عسكريون كبار كالجنرال بيتو والجنرال فيكاريو، وكانت قبيلة قلعية إحدى القبائل التي جاهدت ضد العدو جهاد الأبطال.

ومن الأسباب التي عرضت الريف للمطامع الأجنبية ما كان

يشاع عنه إذاك من كثرة الثروات المعدنية التي جلبت إلى أرضه جميع المهتمين بها من الأجانب الأوروبيين، ومن أشهرهم الإسبان والألمان، فكان المُتَقَبُّون يتجولون في الريف خفية متكررين ومتجسسين لفائدة دولهم والشركات المعنية بالأمر فيها، ولم يكن هذا الجانب من التدخل الأجنبي ليخلو من الأخطار في الحال والمثال على البلاد، وأهلها، وخيراتها، فاعتبر طليعة للاحتلال، وتمهيداً للاستعمار، وهكذا واجه الريفيون حرب الإسبان، وخطر التهافت على ثروة الأرض من شتى الطامعين الأوروبيين المنسلين من كل حذب وصوب، والمندسين للبحث والاكتشاف. وفي عهد بوحارة المسيطر على شرق الريف وقبائله الاثنى عشرة تم الاتفاق معه على استغلال معدنين في قبيلة بني بويغورور في جبل وكسان، وجبل احرشاون وذلك لفائدة شركتين اسبانية وفرنسية في 1907، وكان استثمار المعدنين تحت حراسة قوية من أتباع الفتان، ولنقل المعدن المستخرج منها بُدِئ في وضع سكة حديدية ممتدة إلى مليلية، وكان هذا برهاناً على عملية الاستيلاء على الثروات ونهبها كهدف للتدخل الأجنبي بالحرب والسلام معاً، ويقال إن عبد الحفيظ احتج على هذا لدى الدول المعنية بالأمر، ولما أراد الإسبانون إغراء سكان القبيلة بالفوائد التي يمكنهم الحصول عليها، واتجهوا خاصة للمجاهد امزيان لإقناعه بالأمر امتنع ورد عليهم بأن للمغرب سلطاناً يتعين الاتصال به في هذا الشأن، وتم الاتصال به من جهة القبيلة بواسطة وفد لها، فأكرمت وفادته، ثم أمره السلطان بالعودة للريف للمشاركة في الحرب ضد الإسبان، فكان هذا هو الجواب على عروض ومطامع الأعداء.

ويتضح من هذا أن المجاهدين الريفيين بقيادة امزيان خاضوا المعركة كذلك ضد الاستيلاء الأجنبي على ثروات البلاد رافضين ما عرض عليهم من فوائد وأموال، وبيع ضمائرهم وخيراتهم، ومفضلين الجهاد والتضحية، ولما فشل الإسبان في خطتهم مع أهل الريف - إغراء بالنفع، تارة وتهديداً بالقوة، تارة أخرى - صمموا على العدوان بالجيوش حتى يتمكنوا من الأرض وأهلها وثرواتها، فتجدد القتال على أشده، وتحققت بعض الاحتلالات.

وفي هذه الفترة أخذ محمد امزيان يتصل بالقبائل ويستحثها على الجهاد، ومما استعمل للاستنفار إشعال النار فوق قمم الجبال، فكلما رأتها قبيلة أوقدت بدورها النار، فعملت القبائل الخطر الداهم، واستعدت لخوض غمار الجهاد، وبهذه الوسيلة احتشدت الجموع الوافدة من شتى القبائل والتقت حول القائد امزيان، وكان هذا في 18 يوليوز 1909، وقدرت قوات المجاهدين إذاك بعشرة آلاف من الشجعان الذين باعوا نفوسهم لله وللوطن، ثم تحصنوا في مراكزهم بجبلي سيدي احمد الحاج وتازوطة المشرفين على مليلية، وكان المجاهدون ينزلون ليلاً ليعترضوا قوافل العدو، ويقتتلوا معه في معارك ضارية، وهاجم المجاهدون المراكز الإسبانية بسيدي موسى حيث تكبد الأعداء الخسائر، وكان لها أسوأ الأثر في إسبانية، فعزمت حكومتها على الانتقام، وأرسلت الجنرال بنتو لقيادة جيشها المحارب وذلك في يوليوز 1909، ولما سمع المجاهدون بهذا استعدوا أكثر لصد هجوم العدو، ونشبت المعركة حامية الوطيس بوادي قرب مليلية، وبدأ التضعضع في جيش العدو،

واستعمل كذلك القتال بالسكاكين ممن لم يكن معهم سلاح من المجاهدين، وقتل الجنرال بتو في المعركة التي كان يحرض فيها جنوده، وبقتل قائد الإسبان تكبد جيشهم الهزيمة ولاذ بالفرار، والمجاهدون يلاحقونه بالقتل حتى دخلت أشلاؤه للميلية، وكان قائد المجاهدين هو البطل امزيان، وكانت المعركة من أشد وأشهر ما خاضه الريفيون، واستشهد منهم عدد غير قليل.

ولما لم يتحمل الإسبان وقع هزيمتهم بوادي الذيب جيشوا جيوشاً بقيادة ضباط كبار، واستأنفوا العدوان، فالتحم الفريقان حتى تفهقر الجيش الإسباني متكبداً أعظم الخسائر، وجرح بعض الكبار من قواده وبالرغم من هذا، والت قيادة مليلية نداءات النجدة والإمداد، فلبتها حكومة إسبانيا حتى بلغت قوة جيشها نحو الخمسين ألفاً، ومع هذا التجأت تلك القيادة إلى إغراء بعض القبائل بالمال، فاستطاعت شراء الضمائر حتى ظهر التقاعس في مواقف المجاهدين، وتجلى هذا في قبيلة قلعية عامة، وبني شكر ومزوجة خاصة، فكان الغدر والخذلان آخر الأمر حيث التحق سكان سيدي محمد بفرخانة وبني شكر بالإسبان، ودخل رجال قلعية في خدمة الأعداء، وكان لحركة الغدر والخذلان أسوأ الآثار في نفوس المجاهدين من القبائل الأخرى، فانفضوا من حول البطل امزيان الذي لم يصمد معه إلا الصابرون الثابتون، وأدى ذلك الخذلان إلى تقدم الإسبان واستيلائهم على بعض المراكز والقرى، وغادر المجاهدون مراكزهم بسوق جمعة مزوجة، واتخذوا لهم مركزاً جديداً يسمى لمشتكة من فحضة جزولة بقبيلة بني بوفروور، قبيلة البطل محمد امزيان.

وفي أكتوبر 1909 هجم الإسبان من الناضور بجيش عرمرم بلغ 17000 مقاتل، ولما تأكد الأعداء من ضعف المجاهدين تقدموا نحو سلوان فاحتلوها، ثم ساروا متجهين نحو جبل وكسان حيث المعادن، ونشبت المعركة مع المجاهدين بقيادة محمد امزيان، وكانت الهزيمة فيها للأعداء الذين أحاطت بهم قوات المجاهدين من كل جانب، وفر الجنرالان الفاو وطوبار من ميدان القتال، وبالرغم من هذه الهزيمة تمكن الإسبان من احتلال المرتفعات بجبال سيدي أحمد الحاج وتازوطا، ومنها كانوا يقبلون بمدافعهم للسكان الذين لجأوا إلى الفرار، وتوالت الاستيلاءات حتى وصلت إلى وادي كرت في نوفمبر 1909 فانسحب امزيان مع المجاهدين من قلعية إلى قبيلة مطالسة، بينما اشتغل الإسبان بتنظيم احتلالهم في الأراضي التي استولوا عليها، وعاث الأعداء فساداً فيها بواسطة الخونة الذين سلطوا على السكان.

وفي هذه الأثناء توجه القائد محمد امزيان إلى قبائل بني ورياغل، وتمسمان، وبني سعيد، وبني أوليشك، وبني توزين وغيرها، وصار يستنصر رجالها وذلك في بحر 1910، وكان الأعداء على علم من تحركات امزيان بواسطة خونة بعض القبائل، وكانت بني ورياغل تحرص على مسألة الإسبان لمواصلة التعامل معهم في حجرة النكور.

وبعدما أيقن الإسبان من تكتل القبائل استعداداً للحرب قرروا استعمال الأسطول ضد بني ورياغل، فواجهت قبائل الشاطيء في أكتوبر 1911 جيوش العدوان حتى تراجعت يأساً من

احتلال الساحل وجباله الوعرة، واتخذ المجاهدون مركزاً جديداً هو اجنادة في بني سعيد، ووصل إليه، في ديسمبر 1911 نحو اثني عشر ألف مجاهد، من قبائل بني ورياغل، واجزانية، وبقية، وبني بظفت، وبني بوفراح، وبني عمارت، وتمسمان، وبني توزين، واتجهت هذه القوات بقيادة امزيان إلى بازوراء بقبيلة بني بوغافر، فنشبت المعارك مع العدو لما هاجم المجاهدين من مختلف الجهات، واشترك الأسطول في المعركة التي كانت ممتدة على مسافة خمسة عشر كيلومتراً، وأخذ التقهقر يبدو في صفوف الأعداء، وانتهت معركة ازوراء بانتصار المجاهدين، ثم كانت معركة مع الإسبان بقيادة الكولونيل بريمودي ريفيرا، وهاجم المجاهدون مركزي ازحافا، وأمعروفا بقيادة امزيان، وقتل الجنرال سلفادور، وذاع الخبر إذك بأن المجاهدين بقيادة بظلم أخذون في الاستعداد للاستيلاء على مليلية.

وفي يناير 1912، احتل الإسبان جبل العروي بقبيلة بني بويحيى وكانت المعارك على مسافة مائة كيلومتر. وفي مايو 1912 سار القائد امزيان على رأس سبع مائة من المجاهدين متوجهاً بهم إلى بني سيدال، وفي مسيرته خلف وراءه عدة مراكز عدوة، وكان الإسبان يتجسسون على سير المجاهدين، وذات ليلة نام القائد امزيان في مسجد ومعه بعض المجاهدين، فعلم الإسبان بالخبر بواسطة جواسيسهم من القبليين، واتجهت القوات الإسبانية إلى مكان المسجد فطوقته: فلما شعر القائد بالخطر طلب من أصحابه الذين يريدون السلامة، أن يغادروا المكان تحت الظلام، فانسحب

أكثرهم، وبعد صلاة الفجر غادر امزيان ومن معه المسجد وأخذوا يهاجمون الأعداء، وفي هذه المعركة استشهد القائد امزيان في 15 مايو 1912 بقبيلة بني سيدال، فخلد جهاده وبطولته في التاريخ، وأخذ العدو جثته إلى مليلية حيث عرضوها في المستشفى، ثم سلموها لعائلته، ودفن بمقبرة سيدي أحمد بن عبد السلام بضاحية ازغنغان.

الكشف والبيان

عن سيرة بطل الريف الأول



بقيلة
بني سيدال

استشهد في 15 ماي
سنة 1912

سيدي محمد أهزيان

وأخبار شقاوته لهرو وإخوانه الريفيين
وأول صمارة، ثم الأسبان

الفصل الثاني

الثورة الريفية حركة وطنية تحريرية

لا نريد أن نكتب هنا تاريخ الحرب الريفية بتفصيل وتدقيق، فهذا عمل يتطلب مجهوداً كبيراً، ووقتاً طويلاً للبحث والاطلاع، والتحقيق والتمحيص اعتماداً على مصادر صحيحة وهي نادرة، إن لم تكن مفقودة، ونعني المصادر الجدية التي تسجل الوقائع وتروي الأخبار بصدق ونزاهة، وبكل أسف لا نعلم شيئاً عنها إن كانت موجودة. أما المصادر الأجنبية، وخاصة منها الفرنسية والإسبانية، فهي أكثر من أن تحصى كتباً، وجرائد ومجلات، كلها مشحونة بالتحريف والتشويه، وباعتبارها مصادر عدوة فهي مغرضة وناقصة، وأما ما طبع ونشر بالعربية فهو على قلته مترجم أو متأثر بالكتابات الأجنبية التي يلتبس فيها الحق بالباطل.

وإذا كان بعض المغاربة المطلعين قد كتبوا شيئاً في الموضوع فإنهم لم ينشروه لأسباب تخصهم، وهذه المناسبة أذكر أن بطل الحرب الريفية كتب مذكراته، ولكنه امتنع من إخراجها للوجود على قيد حياته، وبما أني كنت على اتصال وثيق ومستمر به وبشقيقه في القاهرة طيلة سنوات فقد حاولت أن أقنع الأمير بضرورة نشر مذكراته لأنه أولى من يتحدث عن الثورة التحريرية بالريف، ولأنه

بهذا يمكن من دحض ما في المؤلفات الأجنبية من ترهات وأباطيل حولها، ولأن في ذلك خدمة لتاريخ المغرب الحديث وحركته الوطنية التحريرية، ومع اقتناعه بهذا فقد كان يعتذر، ومرة كنت أتحدث مع عبد الرحمان عزام باشا، الأمين العام لجامعة الدول العربية في موضوع الحرب الريفية ومذكرات بطلها، فألح عليّ، نظراً لما كان يعلمه من حظوقي عنده، في أن أقنعه بطبعها، والتزم لي عزام باشا بأن تتولى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية الطبع بالعربية والترجمة مع الطبع بالإنجليزية، والفرنسية، والإسبانية على نفقتها الخاصة، وأضاف عزام أنه مستعد ليعطيني التزامه كتابة، فنقلت هذا للأمير محمد، ولكنه أصرَّ على رأيه، وهو أن الوقت لم يحن بعد لإخراج مذكراته إلى الوجود، وكنت أنتهز كل فرصة لإعادة الكرة حتى فزت آخر الأمر بموافقته، وهو أن أتولى مراجعة المذكرات مع شقيقه الأمير محمد في بيته بالدقي، وأن نفرغها في صيغتها النهائية مع الرجوع إليه كلما دعت الحاجة، والتزمت بأن أضيف إليها التعليقات والإيضاحات المناسبة، وكذلك كل ما يحتاج إليه من فهارس ونقد أهم ما في الكتب الأجنبية والعربية من تحريف وزيف، وتزيينها بالصور التاريخية التي أملكها. وفعلاً شرعت في العمل مع الأمير محمد ثم انقطعت عنه لما توجهت لحضور دورة هيئة الأمم المتحدة، وبعدها أقمت بلوزان في سويسرة لما أخذت القضية المغربية تتطور، والأزمة المغربية الفرنسية تسير بسرعة نحو حلها المنشود.

ثم حدث لقاء (ايكس ليان) التاريخي، وكنت في لوزان على

مقربة من مكانه للاتصال والتشاور مع وفد حزب الشورى والاستقلال في ذلك اللقاء، وبعد هذا تتابعت الأحداث والتطورات، فكانت عودة الملك المنفي لفرنسا، والمحادثات المغربية الفرنسية، وكل هذا جعلني أنقطع عن عملي في المذكرات بالقاهرة، وأنا جد آسف.

وقد توفي البطلان الأميران محمد ومحمد - رضوان الله عليهما - دون أن تتحقق الأمنية العزيزة على قلوب جميع المخلصين، وعسى أن يوفق الله خلفهما لإخراج المذكرات كخير وأصح مصدر لتاريخ الحرب الريفية التحريرية، وهذا أقل واجب نحو المجاهدين، والوطن، وتاريخه، والأجيال المغربية. وبهذه المناسبة أذكر خبراً مزعجاً أرجو أن يكون شائعة، وهو أن أحد الورثة لا حاجة لذكر اسمه قبض مبلغاً مهماً من المال ممن سعوا للاستيلاء على المذكرات. لإتلافها أو إخفائها من الوجود، لأنه لا مصلحة لهم في نشرها وللتعريف بالتاريخ الصحيح لحرب الريف التحريرية، فإذا صح الخبر المذكور - لا قدر الله - فإنه يكون عاراً بل خيانة للأمانة التي تركها السلف للخلف. وإذا كان الخبر شائعة باطل فلماذا لم يسعد الحظ المذكرات لتخرج من الظلمات إلى النور خدمة للوطن وتاريخه وذلك بعد ما مضت الأعوام على وفاة بطلي الثورة والتحرير في الريف؟ سؤال يضعه تاريخ المغرب على عقبها، وفي نفس الوقت يضع المعنيين بالأمر أمام مسؤولياتهم العائلية والوطنية، والتاريخية، فهل سيقدرونه ويهونون نشر المذكرات إن كانوا يملكونها؟

هذا، وطالما راودني التفكير في كتابة ذلك التاريخ مستعملاً ما عندي من وثائق، وما أظفر به من مصادر، مع تحري الصدق والأمانة، وكثير ممن علموا هذا ألحوا عليّ في إنجاز المشروع، وأنا كوطني مغربي، وكرجلٍ وفّي لأبطال بلادي الذين جمعني بهم المودة والثقة أعد ذلك ديناً في عنقي، وكل أمني أن أوفق لأدائه على الوجه المطلوب، وريثما يتاح لي هذا أعرض فيما يلي خلاصة لحرب الريف اعتماداً على مصادر موثوقة، ووثائق صحيحة، وبذلك أعطي نظرة عامة عنها مقتصراً على أشهر الأحداث، والوقائع، والرجال، ومبرزاً دور البطلين الريفيين الذين ملأنا الأسماع، والأبصار، والأفئدة بما بؤأهما مقعداً رفيعاً بين الخالدين من العظماء.

لقد سئل الأمير محمد عن نشأته فأجاب: «ليس في نشأتي وسالف أيامي ما يختلف كثيراً عن نشأة أخي محمد، تلقينا دروسنا الأولى عن والدي، ثم ذهبت إلى تطوان ومليلية، ولما أخذت الشهادة الابتدائية انتخبت أنا وبعض الرفقاء لإتمام تعليمنا على نفقة الحكومة إذ كنا من النابهين في الامتحانات، ولما انتهيت، بعد سنتين، من الدراسة الابتدائية عينت معلماً، ولما رجعت لمليلية اجتمعت بأحد الألمانين، وحضرت المحادثات التي جرت بينه وبين شقيقي والتي كانت نتيجتها الفشل. ولما عدت إلى اجدير علمت باعتقال شقيقي، فرحت أعمل مع والدي في سبيل استقلال الريف وتحريره، ثم رجعت إلى مليلية استعداداً لتقديم امتحانات البكالوريا، وبعدما نجحت ذهبت إلى مدريد لإكمال دراستي على نفقة الحكومة، وما كدت أدخل إلى مدرسة المعادن فيها حتى أ برق

لي والذي بالقدوم نظراً لتوتر العلاقات بين الريف والإسبان .
«وقد اغتنمت فرصة وجودي في مدريد للتحديث مع بعض
السياسيين الإسبان في شأن الموقف بالمغرب عامة، والريف خاصة،
وقد استقبلني الملك بعد ذلك، وسألني أن أعمل لمساعدة إسبانيا
فيما تعثره من نشر الاطمئنان والرفاهية في المغرب، ولا أزال أحفظ
ذكرى جميلة لزيارتي لمديري وقد استقبلت فيها، وعوملت بمتهى
الود والصدقة، ولكني علمت بعد ذلك أن الأغراض السياسية
الإسبانية لا تتفق وأغراض والذي الذي كان يرغب في استقلال
الريف وتحريره».

ويتضح من هذا أن المتحدث تربي مع شقيقه في بيئة السياسة
والجهاد قبل ثورة التحرير الكبرى في الريف بسنوات غير قليلة،
أي إبان تمرد الفتان بوحارة على الحكومة المغربية بإيعاز وإسناد
بعض الدول الأجنبية التي حاولت أن تمتد إلى المغرب بالدس
والمؤامرة، والفتنة بغية التمهيد للغزو، والاحتلال، والاستعمار.
ومن المعلوم أن بوحارة، بعد أن أشاع الفتنة والاضطراب بتازة
وناحيتها وسخر فيها بغية وباطله لمن حرضوه وأثاروه من أجل
ما يبتوه من شر وعدوان، توجه إلى قبائل الريف فتمكن من
إخضاع بعضها لنفوذه وسلطته، ولكن لما وصل إلى قبيلته بني
ورياغل وجد أمامه من أوقفه عند حده، وهو عبد الكريم الخطابي
الذي كان على جانب كبير من العلم والسياسة، كما كان يعد بحق
رجل القبيلة وصنديدها، ولهذا استطاع، أمام الخطر، أن يؤلف
بين جميع رجال القبيلة بالرغم عما كانوا عليه من خلاف وفوضى،

ويجعل منهم صفاءً واحداً، وقوة قادرة على دفع الخطر الذي داهمهم مع زحف بوحارة.

وبعد أن تم لعبد الكريم الخطابي ما أراد من توحيد القبيلة وإعدادها لقتال بوحارة دبّر خطة حربية ناجحة، وهي أنه فتح الطريق في وجه الفتان إلى أن توغل بجميع قواته في أرض بني ورياغل، فتكبد فيها شر هزيمة في معركة تسمى بمعركة بوسلامة، ثم فر بنفسه تاركاً وراءه جميع الذخائر والأسلحة، والمؤن، وبعدما فرضت الحماية الأجنبية على المغرب، واحتل الإسبان بعض شماله أخذ عبد الكريم يفكر في عاقبة الأمور، فرأى أن لا بد له من أحد الأمرين: إما أن يعمل لتحرير وطنه الصغير الريف؛ وإما أن يموت موت العزة والشهادة.

وحينما أدرك أن خطر الاستعمار الإسباني قد أخذ ينتقل من ناحيتي مليلية وتطوان إلى أن أصبح قاب قوسين أو أدنى من قبيلة بني ورياغل أيقن أن الوقت قد حان للعمل، فاستدعى ولده محمداً الذي كان بفاس في مهمتين هما طلب العلم بالقرويين، والاتصال بأوساط «المخزن» بقصد الاستطلاع وإطلاع والده، على ما يروج من أخبار فيها، خصوصاً وقد كان البلاط السلطاني هدفاً للمناورات، والمحاولات، والضغط، والإغراءات الدبلوماسية الأوروبية بغية الوصول إلى أغراض السياسة الاستعمارية الخفية لكل الدول الطامعة والمتنافسة.



الأمير محمد عبد الكريم الخطابي مع والده

الفصل الثالث

الوضع الداخلي الإسباني

في نهاية الحرب العالمية الأولى كانت الوضعية الداخلية في إسبانيا متدهورة، وكان النظام الملكي في أمس الحاجة إلى ما يسنده من أعمال ناجحة في الداخل والخارج، وكان الملك ألفونسو أمام أمرين: الرضوخ للحكومة ذات الشعبية المكنية، أو اللجوء إلى الحكم القوي الذي كان انتهى بدستور 1876. وإذا كانت إسبانيا قد استفادت اقتصادياً من الحرب، فإن اختفاءها أسلمها إلى المشاكل من انخفاض في الإنتاج، وتكاثر البطالة، وانتشار الفقر، وهذا أصبح من عوامل ذبوع الأفكار الاشتراكية، والميل إلى الجمهورية خصوصاً وأن نجاح الثورة في روسيا ساعد على الدعوة إلى التيارات اليسارية. ومع هذا فقد ظلت إسبانيا دولة إقطاع تسودها طبقة الارستوقراطية والكهنة، وهكذا شعر الملك بظامة الاقتصاد في 1920، فوجد نفسه بين اختيارين: تطبيق الدستور أو إقامة الدكتاتورية. ولما كان سييء السمعة في البلاد لم يكن أهلاً لأخذ السلطة بيده، فكان في حاجة إلى اكتشاف رجل يتولى الحكم بدلاً منه، وكان قواد الجيش سيئي السمعة مثله لما تسببوا فيه من كوارث وانهازمات في المغرب.

وكان الجيش يبلغ مائة ألف رجل، و 1200 ضابطاً، منهم 690 جنرالاً، و 2000 كولونيل. ومن سؤ حظ ألفونسو أنه اختار أسوأ رجل لتنفيذ مخططة.

وفي المغرب كان الإسبان متمركزين في مليلية وما حولها شرقاً، وفي تطوان كان الجنرال بيرانجير مندوباً سامياً وقائداً أعلى للجيش، وقد خطر له أن يتوجه إلى الرباط للتشاور مع ليوطي الذي أشار عليه بسلوك سياسة «التوغل العسكري البطيء» بعد التمهيد له سياسياً، فاقتنع الإسباني بهذا، وأصبح يعلن أنه لا داعي لإراقة المزيد من الدماء، فاتجه إلى جلب القبائل بتطبيق تلك السياسة، فكان الاصطدام مع الريسوني الذي كان غيوراً على مركزه في القبائل الغربية.

ولما نشب القتال هاج الرأي العام في مدريد حيث شنت الصحف ذات النزعة الجمهورية حملاتها قائلة: إن مواصلة الحرب في المغرب منافية لوعود الحكومة، وأن المغاربة قتلوا كثيراً من الجنود الإسبانين، ومع هذا فالحرب مستمرة، وأن الناس لا يريدون التوجه إلى المغرب، كما أنهم لا يريدون أن يصرف فلس آخر عليه، وقد سئمت إسبانيا التضحية بأبنائها لاحتلال بلاد لا تحيي منها إلا المصاعب والمشاكل، باستثناء أنصار الملكية والارستوقراطية.

وهكذا عبرت الصحافة اليسارية عن استياء الجماهير من قادة الجيش، والحكومة، والملك صاحب المخططات الحربية.

ومما زاد الوضع تأزماً أن الملك عين الجنرال «سيلفيستر» قائداً
للجيش بالمغرب بدل الجنرال «بيرانجير» ثم نقل «سيلفيستر» إلى
مليلية كقائد للجيش بها، وفي 1920 جاء اللفيف الأجنبي الإسباني
المدعو «تيرسيو» وهو على نسق سميّه الفرنسي (لاليجيون)، وكان
قائد التيرسيو «ميلان أستري» ومساعدته (فرانسيسكو فرانكو) الذي
صار دكتاتوراً فيها بعد الحرب المدنية في 1936.

الفصل الرابع

محمد بن عبد الكريم الخطابي وسعيه في توحيد الصفوف

ولد محمد عبد الكريم الخطابي بأجدير سنة 1882، وكان الولد البكر، وقضى السنوات الأولى من طفولته في مسقط رأسه، وكان أبوه عبد الكريم قاضياً بأجدير حيث كان يتمتع بالاحترام والتقدير نظراً لشخصيته، ومنصبه وسلوكه، وثرائه المناسب. ولما بلغ الولد البكر الخامسة أدخل للكتاب القرآني (المسيد) إلى أن أدرك العاشرة.

وفي 1892 تورطت الأسرة في قضية ثار، وبما أن عبد الكريم كان شديد الكراهة للأخذ بالثأر كما كانت العادة الشنيعة في الريف التي كان يصفها «بلعنة الريف»، فقد رحل مع أسرته إلى تطوان فراراً من الوسط القبلي الشديد التمسك وقتئذ بتلك العادة المنكرة التي جعلت من القبائل وفروعها وأسرهما أعداء تفرق بينهم الضغائن، والانتقامات، والدماء، والأرواح. وفي تطوان انكب الولد محمد على تعلم العربية والدين، وعاش في جو جديد مع الطلبة، وفي مدينة أكثر حضارة، وتفتحاً على العالم.

وفي عام 1899، عادت الأسرة إلى أجدير بعد أن أيقن عبد الكريم الأب أن العادة المكروهة المثيرة للأحقاد وإزاقة الدماء

قد اختفت أو كادت أن تضحل، وكان محمد قد بلغ السابعة عشرة، وتم تقرير اتجاهه في الحياة من السير على نهج والده وأجداده، وهو القضاء، ولهذا توجه سنة 1905 إلى فاس حيث دخل جامع القرويين، وفي فاس اتسع أفق الطالب الريفي علماً، وتهذيباً، وتربية، ومعرفة بالناس من مختلف الطبقات والحيثيات، وأثناء مقامه بفاس، كان له اتصال بأوساط القصر السلطاني عملاً بوصية أبيه الذي كان حريصاً على تتبع ما يروج فيها من أخبار، والاطلاع على التطورات السياسية في ذلك العهد، عهد الأزمات والمشاكل مع الدول الطامعة في احتلال المغرب واقتسامه بينها. ولهذا كان الطالب يُعنى بكل ما يجري في فاس عامة، وفي دار المخزن خاصة، ويوافي والده بكل ما يحصل عليه من معلومات أثناء اتصاله برجال المخزن والمقربين وغيرهم.

وذات يوم توصل برسالة من أبيه تخبره بزيارته له، وأثناء اجتماعهما تحدثا في الاتفاق المبرم بين فرنسا وإسبانيا لاقسام المغرب، ويظهر حسبا يرويه مصدر أجنبي أنه لم يكن أول الأمر معارضاً لذلك الاتفاق الذي ظن أنه ربما يكون «نقمة في طيها نعمة» بالنسبة للريف خاصة، ولكنه أيقن بعد ذلك أن إسبانيا سيئة النوايا، فهي تريد الاستيلاء والسيطرة قصد الاستعمار، والاستغلال، والاستعباد وتسخير سكان البلاد وثرواتها الطبيعية والمعدنية، وازداد تأكيداً من هذا، لما علم الإسبان بمعارضته للاتفاق فأرسلوا من قلعة الجزيرة المواجهة لشاطئ الحسيمة فرقة عسكرية لإحراق داره، كل هذا جعل عبد الكريم وولده يدركان ما كان يهدد الريف من خطر إسباني أكيد.



الأمير محمد عبد الكريم الخطابي

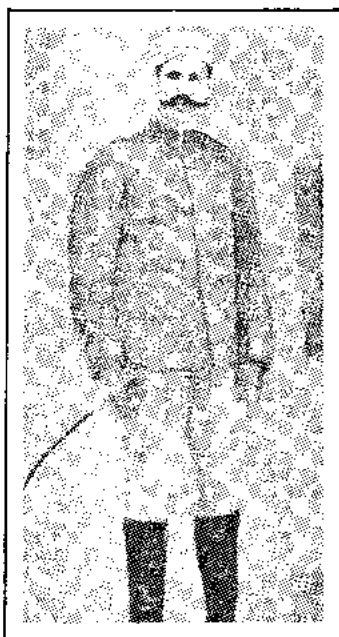
وفي عام 1909 رجع محمد الطالب إلى أجدير بعدما أنهى دراسته في فاس، وفي هذا الوقت كان التحالف قد تحقق بين قبائل الريف على يد عبد الكريم الخطابي الذي بذل كل جهد للوصول إلى إقامته ضد عدوان الثائر الفتان بوحارة الطامع في الاستيلاء على الريف مدفوعاً من جهة فرنسية. وبعدها شاهد محمد المعركة ووجهه أبوه إلى مليلية فتمكن من العيش في الوسط الإسباني والاطلاع على

أسرار السياسة الإسبانية في الريف، ثم مارس التعليم في مدرسة محلية، وتخلّى عنه سنة ليتولى تحرير الصفحة العربية من جريدة (برقية الريف)، كما عمل كاتباً في إدارة الشؤون المحلية. وعين في عام 1913، مستشاراً بمحكمة الجنايات، وبعد سنتين عين رئيساً قاضياً في الجنائي والمدني للمغاربة المسلمين بملييلة، وقد عرض عليه الإسبان منصب حاكم للريف بعدما يتمكنون - في ظنهم - من احتلاله، ولكنه رفض مع إظهار كل استعداد للتعاون معهم إذا استطاعوا إقناعه بحسن نواياهم في الريف، وكان يعلم أن العكس هو الصحيح. وفي مختلف المناصب التي شغلها استطاع أن يزداد خبرة وتجربة ووقوفاً على حقيقة النوايا الإسبانية، ودفع هذا بمحمد بن عبد الكريم إلى محاولة الاستفادة من الألمان لمصلحة الريف وأهله خاصة.

وفي ملييلة اتصل بالجنرال (سيلفستر) أثناء زيارته لها، وأدى الحوار بينهما إلى خصام، وبتهمة السياسة المناوئة لإسبانيا اعتقل محمد بن عبد الكريم، ويقال إن مما سبب له الاعتقال تحريض الفرنسيين الإسبان عليه لاتهمهم إياه بمناصرة الأتراك حلفاء الألمان وأعداء فرنسا وقتئذٍ.

ولما كان محمد بن عبد الكريم سجيناً بملييلة بتهمة الاشتغال بالسياسة وهو في منصب القضاء بها، دبر خطة الفرار وكانت محاولة الفرار كما يلي: لما تمكن بعض أصدقائه من إدخال حبل إلى سجن البرج الذي كان فيه تدلى به ليلاً من نافذة الزنزانة، وأثناء نزوله علقت عمامته بمصراع النافذة أثناء وجوده في الفضاء مثقلاً بالحوائج

التي ارتداها احتياطاً، وتخفيفاً لألم السقوط، وسعيًا في سلامته إن وقع على الأرض، وفعلاً سقط فتكسرت ساقه، ولما عثر عليه السجانون نقل إلى المستشفى، وأريد قطع رجله فرفض. ولما شفي بقي عطب برجله جعله يمشي مشية غير عادية، وبوشرت محاولة الفرار ولم يكن قد مضى عليه في الاعتقال غير عشرة أشهر، فحاكمه الإسبان، ودافع عن نفسه حتى خرج بريئاً، فأفرج عنه، وتوجه لأجدير حيث بقي سنتين، ثم رجع للميلية فرد إلى منصب القضاء بها وبناحياتها. وحينما تلقى الاستدعاء من أبيه امتنع الإسبان من مساعدته، ولم يوافقوه إلا بعد أن يترك في بنك جميع ماله الذي كان يقدر بستين ألف ريال إسبانية، ففعل هذا من غير



تردد، والتحق بأبيه، كما استدعى في نفس الوقت شقيقه محمد الذي كان بمدرسة المعادن في مدريد، وكان محمد الابن الثاني لعبد الكريم الخطابي ولد سنة 1892، وقد نشأ كما نشأ شقيقه الأكبر، وقد أسلفنا ما تحدث به عن نشأته.

الجنرال سيلفيستر

وهنا بدأ تحول كبير وحاسم في حياة آل الخطابي خاصة، وفي قبيلة بني ورياغل والريف عامة، ذلك أنه بمجرد ما التأم الجمع بين الأب ولولديه، تدبروا الخطر الإسباني الذي أخذ يحدث بالقبيلة وبالبلاد، فأجمع رأيهم على محاربة الإسبان. وإثر هذا، أخذ عبد الكريم الخطابي الأب يؤلف من جديد القبيلة كما فعل من قبل لرد عدوان ابو حارة، فأسس مراكز استراتيجية، وأنشأ خطوطاً حربية لمقاومة لخطوط الإسبان، ولم يمض شهران على هذا العمل التنظيمي المحكم حتى توفي في سنة 1920، ويغلب على الظن أنه مات مسموماً، ويقال إن ريفياً عميلاً للإسبانيين هو الذي سممه تنفيذاً لما قرروه من اغتيال جميع الشخصيات المناوئة لهم، ويدعى عبد السلام التفرسيقي، وذلك بعد أن أدركوا خطر عبد الكريم عليهم حيث كان يتجول في الريف ليوحد سكان قبائله ويقنعهم بسوء نية إسبانيا وعماليته من خطط لاحتلال الريف، فيهيئ بهم إلى تكوين جيش للدفاع عن وطنهم، ولما رجع لأجدير صرح بأنه أكل سمّاً في طعام، ولزم فراش المرض، ثم استدعى ولديه وكان أصغرهما بمدرّيد، فأوصاهما بالجهاد في سبيل استقلال الريف، وتوفي في شتبر سنة 1920، وخلفه ابنه الأكبر في منصب القضاء بأجدير ولم تمض أسابيع حتى أقنع رجال الريف بعقد مجلس للتشاور والتحالف، ولكن فشلت المحاولة، فلم يكن هذا ليفت في عضد محمد بن عبد الرّكيم، بل ظل يتجول ويدعو إلى الاتحاد ضد الإسبان، وكان يهتم ببني ورياغل باعتبار أنهم العدة في اتحاد قبائل الريف، وفي حركة الجهاد المقدس ضد الإسبان الغزاة باسم النصرانية والاستعمار.

وهكذا استطاع الابن الأكبر، بعد قليل من وفاة أبيه، أن يفهم القبيلة ضرورة الإقدام على حرب منظمة عصرية، فتعاهد رجال القبيلة على المصحف الكريم بأن يجاهدوا ويموتوا في سبيل الله والحرية، ودفاعاً عن الحق والشرف متمسكين بالكتاب والسنة، وبعد محمد بن عبد الكريم الخطابي كان أول من تقدم من رجال القبيلة فأقسم على المصحف الكريم هو الفقيه محمد بن علي المدعو بُولْحِيَّة، ثم لم تمض ستة أشهر على ذلك حتى تألفت قوى القبيلة وانتظمت أمورها استعداداً للحرب، وكان المجاهدون فيها يقدرون بنحو خمسة آلاف، ولم يكن عمل التكتيك، والتوحيد، والإعداد بالسهل، وذلك لما قامت في وجهه من عراقيل وصعوبات نتيجة الدسائس والمؤامرات الأجنبية التي كانت تحاك في القبيلة، وكذلك بسبب الأموال والإغراءات التي كانت ترمي إلى شراء ضمائر بعض الأعيان والوجهاء، والتي كان يصرفها الأجانب بسخاء. ومن وقفوا في وجه محمد بن عبد الكريم شخصية منافسة استماتها الإسبان، وهو بورجيله الذي كان رئيس عائلة باجدير تنافس عائلة الخطابي، ويقال إنه هدد محمد بن عبد الكريم بالقتل.

وذات يوم التقى الرجلان في السوق ومع كل واحد منهما عصبية المسلحة، وتوقع الناس الاصطدام الدموي. ولما أدرك محمد بن عبد الكريم الخطر على الوحدة التي كان عاملاً من أجلها اقترح أن يمتنع الجانبان من ارتياد السوق، وهو ما رفضه بورجيله، وذات يوم دخل مع عصبية المسلحة سوق القبيلة، وجلسوا يشربون الشاي، فقابلهم الناس بالصياح والصفير إظهاراً للاستنكار

فأحسوا بالخطر، وحاولوا الفرار، ولكن الناس رجموهم حتى قتلوهم
جزاء الغدر والخروج عن الجماعة.

وقد اختط محمد بن عبد الكريم استراتيجية لمواجهة جيش
عصري منظم، وهي حرب العصابات التي تليق بالمجاهدين
وبطبيعة الأرض، وهي أقدر على الفتك بالعدو من أية حرب أخرى
غير متيسرة أول الأمر لعدم توفر الأنظمة، والأجهزة، والأسلحة،
التي يتوفر عليها جيش عصري منظم كجيش الأعداء.



أسد المغرب المصور محمد بن عبد الكريم الخطابي، وقد امتطى صهوة جواده،
ومضى يرتاد جبال الريف، ويسرح بين سهوله أيام كان ينظم خطط المقاومة

إعلان جمهورية الريف وتجدد المعارك

كان من الطبيعي، بل من الضروري، اثر الانتصارات على الجيوش الإسبانية، أن يفكر محمد بن عبد الكريم في تنظيم الثورة، ولهذا أمر القبائل المنضوية تحت لواء الجهاد بأن تنتخب كل واحدة منها ولياً يتولى أمرها، وفي مدة قصيرة تقدم إليه ولاية الأمر المنتخبون في قبائلهم، فأفهمهم أن الحرب ستطول، وأن النصر لا يأتي إلا بالنظام، وفعلاً تم تكوين «حكومة جمهورية» الريف في يوليو 1921، أي في شهر الانتصارات الكبرى.

كما أمرهم بتسجيل جميع القادرين على القتال، وبدفع خمس الغنائم التي غنموها من الإسبان لصالح الجهاد، أما الأسلحة على اختلاف أنواعها فسلمت إلى جيش التحرير.

وبعد ذلك وردت على قيادة التحرير وفود من القبائل الجبلية بنواحي تطوان تطلب النجدة لتحرير أرضها من احتلال الإسبان، فتعين محمد (فتحاً) الخطابي ليتوجه إلى قبيلة غمارة، غير أنه لم يتأت له أن يقوم بالعمل في ذلك الوقت نظراً لفصل الشتاء، وتراكم الثلوج، وتعذر المواصلات، فرجع إلى مقره في انتظار وقت العمل.

وأما الإسبان فإن ما حل بهم في الريف من هزائم وخسائر متوالية في كل مكان جعل فريقاً منهم يدعوا إلى ترك الريف وشأنه، ولكن الفريق الاستعماري المتعصب كان يرى الاستمرار في تنفيذ خطط الاستيلاء مهما كلف تنفيذها من جهود وتضحيات، وهذا ما كان، فأعدوا قوة عظيمة جاءت من إسبانيا إلى مليلية، وللقضاء على هذه القوة دبر محمد مع شقيقه الكبير خطة حربية موفقة، وذلك أنها أصدر الأمر إلى المجاهدين بالتراجع شيئاً فشيئاً حتى إذا توغلت القوات الإسبانية في البلاد أنزلوا بها ضربة قاضية، فعلاً تراجع المجاهدون تدريجياً من عدة قبائل هي قلعية، وبني سعيد، وبني أوليشك، ومطالسة، وطال هذا سنة كاملة. وكانت قيادة المجاهدين في واجهة القتال بيد عبد السلام بن الحاج محمد الورياعلي، وكانت القوات الإسبانية متمركزة على حدود قبيلتي تسمان وبني توزين نحو أربعة أشهر. ولما نشبت المعارك بين الفريقين انهزم الإسبان، ثم افتدى الإسبان بعد ذلك أسرارهم وفيهم الجنرال «ابرو»، بدفع أربعة ملايين بسيطة، وبإطلاق سراح من كانوا عندهم من المجاهدين الأساري.

1 - معركة جزيرة النكور:

وهذه الجزيرة مساحتها نحو أربعة كيلومترات مربعة في البحر الأبيض المتوسط تبعد عن الشاطئ الغربي بما يقارب ثلاثة كيلومترات، ويسكنها الإسبان من عهد واقعة الأندلس، وكانت هي صلة الوصل بين بني ورياغل وإسبانيا من حيث المخابرات،

وتبادل البضائع قبل قيام الحرب في 1921، ولما اشتعلت نار الحرب كتب رئيس الشؤون السياسية فيها إلى سكان تلك القبيلة يطلب أن تبقى الجزيرة مفتوحة للمخابرات بين الريف وإسبانيا، فأجابه رئيس القبيلة محمد بن عبد الكريم بما يلي:

إلى رئيس الأمور السياسية بجزيرة النكور:

«تحية واحتراماً، وبعد، فقد قرأ رأي أعيان قبيلة بني ورياغل والقبائل المجاورة لها على المحافظة على حسن علائق الجوار ما دمت محافظاً عليها أنت، أما المسألة فالواجب يقضي علينا بأن ندافع عن شعبنا ووطننا الشريف، والسلام».

وفعلاً تقرر بين الطرفين استمرار الهدنة هناك، وقصد الإسبان أن تظل المواصلات آمنة لبواخريهم الحاملة للمؤن إلى الجزيرة، بينما كان قصد بني ورياغل متابعة أعمالهم الفلاحية، واجتماعهم بالأسواق وغير هذا من المصالح، وذلك أن القبيلة توجد قبالة الجزيرة ومعرضة لمدافعها لقرب المسافة.

ولكن الهدنة لم تدم لما طرأ من سوء على العلاقة بين الطرفين بسبب تصرف قائد الجزيرة الإسباني، وهو أنه اتفق مع شخص من بني ورياغل على تدبير مؤامرة للزعيم ابن عبد الكريم، وهو محمد بن الحاج الفقير الورياعلي الأجديري، فدفع له مالا كبيرا، ومكّنه من مادة سامة، وقد طلب الشخص من الإسباني أن يبعث له من الجزيرة مركباً بحرياً صغيراً لمكان معين بالليل ليفر إلى الجزيرة بعد تنفيذ المؤامرة، غير أن هذا الرجل كان مخلصاً، فلم يكن منه ذلك إلا خدعة، وبعد أن تسلم المال والسم سارع إلى إطلاع الزعيم ابن عبد الكريم على الخطة المدبرة فوجه بعض رجاله

رفقة الشخص المذكور فقبضوا على من كانوا في المركب من الإسبانيين وهم أربعة، وفي الصباح أخبر الزعيم قائد الجزيرة الإسباني بما جرى، واحتج عليه بنقض الهدنة ومعاهدتها، وأعطاه إنذاراً بأن لا تأتي البواخر إلى الجزيرة حتى لا تتعرض للمدافع التي صدر إليها الأمر بإطلاق النار على كل باخرة ترى قرب الجزيرة، فلم يعتبر الإنذار، ولما اقتربت البواخر أطلق عليها المجاهدون النار، وتبدلت طلقات المدافع، وأغرقت باخرة تجارية، وتضرر سكان الجزيرة من الإسبان. وبعد أيام وقعت معركة بين الأسطول الإسباني وبين مدافع المجاهدين المنصوبة في الشاطئ، واسترسل تبادل النار بين الفريقين مدة شهرين، وفي النهاية طلب الإسبان الهدنة، فأبرمت اتفاقيتها على النسق الذي كان من قبل.



الأمير محمد عبد الكريم الخطابي

2 - معركة تافرسيت بني توزين :

وفي سنة 1922 دبر المجاهدون خطة حربية لتحطيم قوات الاستعمار الإسباني مثلما وقع لها في معركة أنوال الشهيرة، فاحتشدت قوات المجاهدين بمكان يعرف بتافرسيت بني توزين، وحينما أدرك الأعداء الخطر المجدق بهم أيقنوا أنهم معرضون لهزيمة نكراء لا تقل عن هزيمتهم بأنوال، فاستنجدوا إسبانيا كما جمعوا القوات من كل مكان، ثم بدأوا بالهجوم على المجاهدين المتمركزين بمواقعهم الحربية، واستمر القتال أياماً دون أن يتمكن العدو من اختراق خطوط المجاهدين، وآخر الأمر استعمل الإسبان الغازات السامة، وكل هذا لم يفت في عضد المجاهدين فأراد الإسبان أن يهادنوا، فأرسلوا من جزيرة النكور ادريس بن سعيد السلاوي للمخابرة في شروط الصلح، ويظهر أن هذا كان مكيدة من الإسبان ليتمكنوا من إيصال المؤونة إلى مراكزهم المحاصرة، وقد غدروا كذلك بادريس بن سعيد فقتلوه رمياً بالرصاص وهو يقطع الغابة آتياً من تافرسيت التي تكبد في معركتها الإسبان من الهزائم والخسائر ما ذكر بمعركة أنوال.

3 - محاولة الصلح :

وبعد معركة تافرسيت، في سنة 1922، أظهر الإسبان الرغبة في الهدنة، فطلبوا من قيادة المجاهدين العليا إيفاد من يتخابر في هذا، فكان الوفد برئاسة عبد الكريم بن الحاج علي الذي توجه إلى تطوان، وكانت النتيجة هي الإخفاق حيث أن الإسبان كانوا



المجاهدون في معركة تالوسيت

يقترحون بسط الحماية على الريف، وفي الرسالة التي وجهتها القيادة العليا بالريف إلى الإسبانيين بتاريخ سابع ذي الحجة 1341 هـ نقرأ هذه العبارات «إن الوفد الذي عيناه يمثل أفكار الشعب الريفي الذي هو عبارة عن أكثر من مليون نسمة، ويزيد عدد المقاتلين فيه عن مئتي ألف»، كما نقرأ هذه العبارة:

«أرى من واجبي وشواكري الإنسانية أن أصرح لكم بما يأتي: إن الحكومة الريفية التي أسست على قواعد عصرية، وقوانين مدنية، تعتبر نفسها مستقلة سياسياً واقتصادياً آملة أن تعيش حرة كما عاشت قروناً وكما تعيش جميع الشعوب، وترى لنفسها أحقية امتلاك ترابها، وتعد الجانب الاستعماري الإسباني متعدياً غاصباً لا حق له فيما يزعمه من نشر الحماية على حكومة الريف، والحالة أن الريف لم يعترف بها، ولن يعترف بها، ويرفضها رفضاً، ويلتزم بأن يحكم نفسه بنفسه، ويسعى في نيل حقوقه الشرعية التي لا نزاع فيها، ويدافع عن الاستقلال التام بكل الوسائل الطبيعية، ويحتج أمام الأمة الإسبانية وعقلائها الذين يعتقد أنهم يعترفون بأحقية مطالبنا المعقولة الشرعية... وتحتج الحكومة الريفية على كل عمل عدائي يصدر من الحزب الاستعماري الإسباني أمام العالم المتمدن، وأمام الإنسانية، وتبترأ من كل مسؤولية وعهدة فيما عسى أن يقع من الإتلاف للأموال والأرواح.

«هذا وأنا نتعجب أيضاً كيف أنكم تجاهلتم أن من مصالح اسبانيا نفسها مسألة الريف، والاعتراف بحقوقه واستقلاله،

والمحافظة على علائق الجوار، وتمتين عرى الاتحاد مع الشعب الريفى عوضاً عن التعدي عليه، وإهانتته، وهضم حقوقه الإنسانية والشرعية طبقاً لنا موسى العمران، ووفقاً لمعاهدة فرساي الواقعة بعد الحرب العالمية، تلك الحرب التي تعلم الإنسان منها نتائج التعدي والغضب، وعلم العالم أنه لا سبيل إلى إهانة الإنسان، وأنه من الواجب العقلي والطبيعي ترك كل أمة وشأنها لتدبر أمرها بنفسها، وأن الجبروت والقوة يصيران كلاً شيء أمام الحق... ورغمًا عن أن الساسة يقولون إن المعاهدات حبر على ورق، وأن الحق للسيف فالواقع أنه لا بد من إعادة الحق إلى صاحبه...».

ومما نقتطفه أيضاً من الرسالة هذه العبارة: «لا يسعني إلا أن أصرح لكم تصريحاً نهائياً، وهو أن الريف لا يعدل ولا يغير خطته التي سار عليها الوفد، وهو أنه لا يفتح المخابرة في الصلح إلا على أساس اعتراف إسبانيا باستقلال الريف». هذا، وقد أخفقت محاولة الصلح لتعارض مطالب الفريقين الوطني المغربي والاستعماري الإسباني.

وفي الوقت الذي انتهى فيه مؤتمر تطوان بالفشل كان محمد (فتحاً) الخطابي غائباً مدة سنة حيث إنه ذهب خفية رفقة محمادي الحيتمي إلى أوروبا، كما قصد عصبة الأمم بجنيف، وذلك لتقديم وثائق وعرائض إلى الهيئة الدولية بقصد التعريف بمطالب الريف، والمطالبة بتأييدها، باسم الحق، والعدالة، والإنصاف وكانت المساعي تتلخص في رفع الانتداب الإسباني عن الريف بعد أن

المغاربة، وكان هدف الإسبان الاستيلاء على الحسيمة بمعونة قلعة الجزيرة المقابلة لها في البحر، وفكر «سيلفيستر» في الخطة، وتدبير الطريق المؤدي إلى النصر الذي سيمكنه من نيل رتبة النبالة من طرف الملك، ووزع الجنرال جيشه ليعبر به مسالك الجبال والأودية، وكان أمره له: إلى الأمام! وكان الاتجاه قبيلة تمسمان، وتمركز الجنرال مع فرقته بسيدي ادريس على الشاطئ، بينما أخذ فريقان آخران، يتسلقان الجبال، فلم يعترضهما أحد حتى ظنا أنها في مأمن من كل خطر، وكانت قبيلة تمسمان قد رفضت الحلف المقترح من محمد بن عبد الكريم لكنها وعدته بإقامة الحراسة والمراقبة على رؤوس الجبال، وفعلاً برّت تمسمان بوعداتها.

ولما علم القائد في اجدير بأمر الهجوم الإسباني بعث الرسل إلى بني ورياغل، فأجيب بأن 125 رجلاً فحسب هم الذين استجابوا له، ولما جاؤوه إلى اجدير أيقن أنهم من أصلح الرجال، وزودهم بـ 1600 رصاصة زيادة على ما كان عندهم وهو عشر رصاصات لكل واحد، ولكنه أخذ عليهم عهداً بأن يقاتلوا ما داموا على قيد الحياة، وكان مع القائد شقيقه الأصغر، وبإيمان يهز الرواسي، وبعزيمة تفتت الصخور تحركت كتيبة المجاهدين لتقاتل ببنادقها الجيش العرمرم بأسلحته وأعتدته، فخرجت ليلاً من اجدير، وقضت اليوم في تسلق جبل ابران والتمركز فيه، وكان محمد بن عبد الكريم يعتقد أن السيطرة على جبل ابران حاسمة في الاستيلاء على وادي اقرموس، وكان أخوه يعتقد أن الأمر سهل في القول، ولكنه عسير المنال، ولما نزلوا من أعلى الجبل جمعاً مجلساً

بدء المعارك في الريف

١ - معركة جبل ابران:

كان الجنرال سيلفيستر هو الذي اختاره الملك الفونسو ليتولى الحرب ضد الريف، فأعطاه رسالة سرية تفوض له الأمر ضد سياسة المندوب السامي الجنرال (بيرانجير) الذي أعيدت إليه القيادة العليا للجيش. وفحوى الرسالة الملكية السرية: «اعمل ما أمرك به، ولا تبال بوزير الحربية الذي هو رجل مجنون». والحقيقة أن «سيلفيستر»، كان سريع الاندفاع ومتهوراً بشكل جنوني بحيث لم يكن في حاجة إلى تحريض الملك، ولكن هذا ضاعف ما جبل عليه من اندفاع وتهور. وكان الفونسو شديد الوثوق بأنه ظفر بالرجل القادر على إراحة إسبانيا من مشاكل ومتاعب المغرب، وكان «سيلفيستر» بدوره يعتقد هذا في نفسه، ويضيف إليه أنه كان طليق اليد في أمر الحرب بالريف، وهكذا كان هذا الجنرال يحلم بالانتصار السهل، ويمني نفسه بتحقيق المهمة التي انتدبه لها الملك الفونسو بوثيقة سرية صريحة في موضوعها، وهي القضاء على محمد بن عبد الكريم ومن معه، وزاده غروراً أنه كان يتوفر على عشرين ألف جندي إسباني وأربعة آلاف من المرتزقة

العسكرية، فأخبرت تطوان بدورها مدريد بالهزيمة، وانتقل الجنرال «بيرانجير»، المندوب السامي والقائد الأعلى من سبتة بحراً إلى سيدي ادريس ليتشاور مع الجنرال «سيلفستر» الذي اتهم بمخالفة أوامر القيادة، فأدلى «سيلفستر» بالرسالة الملكية السرية، وكان الخصام بينهما شديداً، ويقال إن «سيلفستر» احتد حتى أمسك بحنجرة «بيرانجير» وأنها سقطا على الأرض أثناء الصراع، ثم تراجع الإسبان عن جبل ابران بعد الانكسار، وعادوا إلى انوال، وكانت معركة ابران في مايو 1921، وقتل 4 مجاهدين بينما قتل نحو ألف من الإسبان.

2 - معركة انوال:

بعد الانتصار المباغت والساحق على القلعة الإسبانية فوق جبل ابران المشرف على السهول والأودية المجاورة في قبيلة تسمان أصبح الريفيون أكثر قوة وعزيمة، وأقدر على مواصلة الزحف والانتصار على العدو المحتل، وهذا ما سيجلى في تحقيق كارثة الجيش الإسباني بانوال.

ذلك أنه عقب نصر ابران جمع القائد محمد بن عبد الكريم مجلساً أعلن فيه أنه يتحتم مواصلة الحرب والظفر، وطلب أن يبدأ العمل باستنصار قبيلة تسمان حتى تنضم إلى حركة الجهاد برجالها ووسائلها وإن كان الأمر على جانب من الصعوبة نظراً لاحتلال العدو فيها، وكانت اقتراحات المجلس ترمي إلى جعل المسألة مسألة حرمة وعار بالنسبة للقبيلة، ولكن ابن عبد الكريم آثر وسيلة

استشارياً للتداول مع المجاهدين، وتم الزحف على القلعة الواقعة فوق الجبل فسقطت في أيدي المجاهدين، وأنجز كل هذا مفاجأة قبل أن يتمكن الإسبان من إرسال النجدة من الأسفل، وكان القائد ابن عبد الكريم من ضمن القتالين، وكذلك أخوه محمد، وفي انتظار الفجر ليصدر الأمر بالهجوم قال لمن معه: إني أقبض بندقتي بيد، وأضع رجلي في القبر. ولما دنا المجاهدون من القلعة شعر حراسها، فطمأنهم محمد (فتحاً) بن عبد الكريم قائلاً لهم: إسبانيون إسبانيون، بلغة سليمة لا تثير الشك، وكان الهجوم ساحقاً ماحقاً وأصوات المجاهدين تتصاعد مرددة: لا إله إلا الله! واندفعت الكتبية المجاهدة من كل جانب البنادق في إياد، والسكاكين في أخرى. وكان استعمال السكين يوفر الذخيرة التي كانت قليلة جداً، واشتبك قائد القلعة بالأيدي المسلحة مع أحد المجاهدين، وظل في صراع جسدي إلى أن سقطا في الفضاء وتحطما على الصخور، ولم تطل المعركة أكثر من نصف ساعة، فانهزم الإسبان، وغنم المجاهدون 500 بندقية، ومدفعين اثنين، وأربع رشاشات، ومدفعاً جبلياً، وصدق وعد الله: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، وتحققت بهذا النصر المبين أمنية محمد بن عبد الكريم، وهي امتلاك القلعة الجبلية للسيطرة على ما تحت وحول جبل ابران. ثم قام الإسبان بهجوم مضاد، ولكن سرعان ما ارتدوا متقهقرين، فتمت السيطرة في النهاية لجند الله على الجبل الشامخ، وبلغ الخبر للجنرال «سيلفستر» في سيدي ادريس، ثم تولى هو إخبار تطوان بالكارثة

المتحالفون عليها واحداً بعد آخر في ظرف أسابيع (يونيو وأوائل يوليو 1921)، وهكذا هزمت كتيبة مجاهدة من 500 مقاتل جيشاً عسرياً يبلغ 14000 جندي، وتمركز في حصون محمية منيعة، وهذا ما تحدى الإدراك، كما قال كاتب انكليزي. بل قرر المجاهدون أن لا يبقوا معتصمين في مواقعهم الجبلية بعد انتصاراتهم الباهرة، لأن الهدف هزم الإسبان في كل مكان، وتحرير الأرض من دنس الاحتلال، ولهذا أنزلوا من أعالي الجبال ليطلبوا القتال مع جيوش العدو في السهول والأودية. فعلاً كان الأمر كما أرادوا، ففي نفس شهر يوليو اتخذ القرار في تجمع قبائلي كبير تم على رأى من الأعداء، ولم تكن قوة الجهاد تتجاوز 600 رجل من أشد المقاتلين.

أما جيش الأعداء فكان على رأسه (سيلفستر) الذي جعل هدفه احتلال الحسيمة، والقضاء على حركة التحرير بقيادة ابن عبد الكريم، ويقال إن الجنرال «بيرانجير» حاول أن يصرفه عن الاندفاع إلى هذا العمل الخطير، فأجابه: «سأشرب الشاي في دار ابن عبد الكريم باجدير أراد هذا أو لم يرد»، وكان قد تقرر في اجتماع يوم 5 يونيو، أن يبقى جيش مليلية في وادي اقرموس، ولكن (سيلفستر) كان قوياً برسالة الفونسو السرية التي فوض له فيها أن يتصرف بحرية ضد كل قرار مخالف، ولما منعه «بيرانجير» التقدّم في الريف رد بقوله: «إن جنودي هم أيضاً شداد»، وشاءت الظروف أن يبقى في سيدي ادريس في انتظار ما يرد عليه من الملك، وكانت مهلة مكنت ابن عبد الكريم من تنظيم صفوفه وإعدادها للمرحلة القادمة، وتمركز المجاهدون في هضبة بسيدي

أخرى رآها أحسن وأجدى، فيها أن بني ورياغل فقراء في الماشية والدواجن فهم لا يستطيعون التضحية بشيء، وبدلاً من هذا فقد توجه ابن عبد الكريم ليلاً إلى مدشر قريب، وبعث منه من يستدعي له مجلس قبيلة تسمان، وكانت لا تملك قائداً يتزعّمها وينطق باسمها. ولما التأم الجمع خاطب ابن عبد الكريم الحاضرين بقوله: «لا أملك ذبيحة أقدمها لكم لأهلكم على التحالف معي، ولقد ظفرنا بنصر كبير، ونحن في حاجة إلى مؤازرتكم، فإن قبيلتي بني ورياغل وتسمان تقدران على هزم الإسبان».

وكان هذا كافياً لاقتناع المجلس، وتلبية طلب ابن عبد الكريم، ولقد كان النصر في ابران أقوى برهان، وأقنع حجة، وأقدر عامل على كسب الحلف المنشود، وكيف لا وتسمان كانت ضحية الاحتلال، ومهانة الحرمة والشرف، وهي قبيلة رجال أشداء شرفاء، وإنما كان يعوزها القائد الكفء، وقد وجدته في ابن عبد الكريم الظافر بقلّة من رجاله على جيش دولة الاحتلال، فانقادت تسمان على لسان مجلسها للتحالف مع حركة الجهاد والتحرير، وبوشرت التعبئة فوراً.

وفي نفس الليلة أخرجت 500 بندقية من مخابها وتسلق حاملوها شتى الأماكن من الجبال، واستقدم ابن عبد الكريم نصف رجاله من جبل ابران، وتم الجمع المشترك في مغارة كبرى، فتحدث فيه ابن عبد الكريم عن الخطة الحربية المزمع تنفيذها، وهي الاستيلاء على جميع حصون العدو المنتصبة فوق الهضاب المشرفة على الوادي، وهذا ما تحقق حيث استولى المجاهدون

أعظم، وكان مؤمناً به نظراً لعوامل شتى، وفي 21 يوليو كان هجوم العدو الذي تدفقت جيوشه من انوال كأنها النمل وكان رمضان، والمجاهدون صائمون، ولهذا كانوا يتناوبون على الجهاد والعبادة، وقد تقدم الإسبان بشجاعة نحو المواقع الريفية تنبعث النيران والقنابل بغزارة وسرعة من صفوفهم دون أن يرد عليهم المجاهدون، حتى إذا اقتربوا كان الرد قوياً ومذهلاً، فتقهقر الإسبان مولين الأدبار تجاه انوال، وتاركين الأسلحة وغيرها عندما لاذوا بالفرار، وكان النصر حليف المجاهدين كما أمله قائدهم، وجاء بمثابة المعجزة كما قال محمد بن عبد الكريم للكاتب الذي تحدث معه في القاهرة سنة 1953.

وكان «سيلفستر» يشهد الهزيمة من أعلى موقعة بانوال، وغنم المجاهدون في ميدان المعركة كثيراً من الأسلحة، ثم قام ابن عبد الكريم مع رجاله بتطويق انوال بينما تركز أخوه ومن معه في الجبال المطلّة على الطريق، وأرسلت فرقة من المجاهدين لتندس بين سكان القرية ليلاً، لقتل الإسبان بالسكاكين والحراب، وخلق هذا رعباً وذعراً في وسطهم، ثم أعطى «سيلفستر» الأمر بالتراجع، فولى الجيش الأدبار وهو يلاحق بالضرب والقتل، وتحول التراجع إلى فرار جماعي، وكان الفناء يعمل عمله باستمرار في فلوله المنكسرة، وعثر على جثة «سيلفستر» بين القتلى، فلم يتحقق حلمه بشرب الشاي في دار ابن عبد الكريم باجدير، وتلك نهاية الطغاة المغرورين، والحمقى أمثاله، وكانت كارثة انوال، كما سماها الإسبان، وتخلدت في التاريخ تحت هذا الاسم، وبلغ الجيش

ابراهيم بينما احتل العدو اغربين، وهي هضبة بجنوب انوال، وهذا ما كان يتوقعه، بل يتمناه ابن عبد الكريم، ولما تأكد من الموقع الجديد للعدو أقام قواته بين اغربين وانوال حيث كان يتوقع الهجوم من العدو.

وفي مواجهة موقع الأعداء حفر المجاهدون الخنادق والشقوق، وكان المخبرون من رجال القبيلة يوافونه بالأخبار عن حركات الجيش الإسباني. وفي 17 يوليوز 1921 تم نصب «الفخ» الحربي الذي دبره ابن عبد الكريم، وفي اليوم التالي أخبرت حامية اغربين حامية انوال بأنها في حاجة إلى الماء، وفي الليل تسلل ريفي من انوال ليخبر باستعداد الإسبان للتحرك، فطاف ابن عبد الكريم وأخوه بصفوف المجاهد للتأكد من موقع الدفاع ولتثبيت الرجال على الخطة المقررة، ثم نشبت المعركة، وتقهقر الإسبان، وقتل منهم 132، وطلب «سيلفستر» النجدة من تطوان دون أن تتمكن من إرسالها له، وصدر الأمر إليه بلزوم موقع الدفاع وحاولت حامية اغربين الوصول إلى الماء بمعونة فرقة من انوال، ولكنها فشلت واضطر الجنود إلى شرب الدماء.

وبعث ابن عبد الكريم إلى «سيلفستر» يطلب منه الاستسلام، فرد عليه قائد الحامية بأنها أقسمت أن لا تستسلم لغير الموت، وكان المجاهدون لا يتوفر الواحد منهم على أكثر من خمس وعشرين رصاصة وكانوا متعبين بعدما خاضوه من معارك، وظهر فيهم ميل إلى العودة لبيوتهم بعد أن انتصروا وكانوا مجرد متطوعين، ولكن ابن عبد الكريم طلب منهم أن يبقوا يوماً آخر سعياً في نصر

فقدوا 18000 جندي، واستولى المجاهدون على 19504 بندقية، و 352 رشاشاً، و 129 مدفعاً، كما أسروا 1100 جندي، ومهما اختلفت الاحصائيات بعض الشيء فإنها تصور كلها جسامه الكارثة العسكرية الإسبانية في انوال.

وكانت وفرة الأسلحة الثقيلة والخفيفة التي ربحها المجاهدون في مختلف المعارك التي انتصروا فيها، من جهة، وانضمام القبائل إلى حركة الجهاد والتحرير، وكثرة المقاتلين الذين التحقوا بها باستمرار، من جهة أخرى، باعثن عظيمين على توجيه حركة التحرير نحو مليلية التي كانت معرضة لفتح المجاهدين وطرد العدو المحتل لها منذ أمد بعيد.

وفي 9 غشت، حرر المجاهدون الناظور، فبعث هذا الرعب في نفوس الإسبان سكان مليلية الذين التجأوا إلى السفن والمراكب الراسية في الميناء فراراً بأنفسهم، ومن لم تسعهم المراكب والسفن ازدحموا على رصيف الميناء أملاً في النجدة حتى إن زوجة الجنرال (نافارو) الأسير اقترحت إعدامهم بالرصاص حتى لا يسقطوا في أيدي المحررين المغاربة. وهكذا حوصرت مليلية، والتحق ابن عبد الكريم بخطوط الجهاد بعد أن مكث أياماً بانوال يشرف على جمع الأسلحة، وتقرير مصير الأسرى، ودفن الموتى، وانهقد مجلس من القادة تضاربت فيه الآراء، وبعد الاستماع إليها أصدر أمره دون اعتراض من أحد، وهو عدم الدخول للمدينة التي اعتبرها رهن إشارته إذ ليست فيها قوة قادرة على حمايتها والدفاع عنها، ولعله خشي أن يفتك جيشه بمن كانوا فيها من السكان

الإسباني المنهزم أربعين ألف جندي بينما كان عدد المجاهدين نحو
الألفين فقط، ولم يكونوا متوفرين على مثل سلاح عدوهم البري
والجوي، ودامت المعارك يومين، وكان الانهزام الأكبر يوم 22 يوليو
1921، وقد غنم المجاهدون 300 مدفعاً، وطائرتين، وكثيراً من
الأسلحة الأوتوماتيكية، وآلاف البنادق، وكميات ضخمة من
الذخيرة الحربية، واستسلم عدد من الجنود والضباط ممن لم يقتلوا
وفيهم الجنرال «أبار»، وبمركز اعرويت، قرب مليلية، وعلى طول
طريق الفرار الإسباني، كانت صفوف المجاهدين تتكاثر بمن كان
ينضم إليهم من رجال القبائل، وكان القتل يشتد ويستفحل في
صفوف العدو الفار بقيادة الجنرال (نافارو) الذي تولى الانسحاب
بمن نجا من الجيش بعد الهزيمة الكبرى، وكانت حاميات الحصون
التي يمر بها الفارون تنضم إليهم تاركة مواقعها وأسلحتها، وطالبة
السلامة بنفسها، واستولى المجاهدون على حصن سيدي ادريس،
مركز قيادة «سيلفستر»، وحصن افران، والذين نجوا من الجنود
الفارين لجأوا إلى مركبين حربيين. أما القطار الذي همله (نافارو)
بالجرحى فقد حوله المجاهدون عن سكة ونسفوه نسفاً، وفقد
ابن ديكاتور إسبانيا الجنرال (بريمودي ريفيرا) ذراعه اليسرى أثناء
الحصار، وتعفن حتى مات، ومثله 169 من الجرحى. وفي 2 غشت
استسلم (نافارو)، ولم يبق من الفارين معه سوى 400 جندي من
3000 كان قد فر بهم، وكانت السهول والسفوح والممرات مليئة
بالجثث النتنة.

ويقال إن الإسبان، منذ هزيمتهم في ابران، في 31 مايو،

جميعاً في المغرب، واكتفى بأن أعلن أن الحرب التي يخوضها إنغا كانت تحريرية هدفها السيادة والاستقلال.

وإن ما أخر محمد ابن عبد الكريم عن إصدار الإشارة باحتلال المدينة إدراكه أن رجاله كانوا نشوى بالانتصار، وأنهم غير قادرين على ضبط أنفسهم حتى لا يبطشوا بالسكان المدنيين، وأن الثورة كانت في حاجة إلى المحافظة على حسن السمعة، وإلى كسب تأييد الرأي العام العالمي، وخاصة بعض الدول كإنكلترا، والولايات المتحدة، ولكن عدم دخول مليلية ترك للعدو مركزاً وميناء أمكن استعمالهما كقاعدة عسكرية انطلقت منها جيوش الإسبان إلى داخل الريف، وهذا ما تحقق فيما بعد: وأظهر أن التأخر عن تحرير مليلية كان غلطة حربية، وسياسية، ووطنية، ارتكبتها قيادة الثورة عن حسن نية.

وفي آخر غشت تجمع بمليلية 36000 جندي، وفي منتصف شتنبر استرجعت الناصور، وفي بداية اكتوبر سارت قوات العدو نحو طريق جبل مروت بقيادة (فرانكو).

الإسبان، فتكون المذابح التي تثير العالم ضد الثورة التحريرية، وتسمى، إلى سمعتها التي أسدت إليها الانتصارات المتوالية أجلاً للخدمات في نفوس الأمم كلها.

ومهما يكن، فإن الأمر بعدم تحرير المدينة، مع تجنب المذابح، لم يكن مسلماً وإن أطاعه القادة مرغمين، ولقد ذهب ابن عبد الكريم إلى أنه لم يندم عليه أبداً، لأنه اتخذ من روية وبدافع مصلحة الثورة، غير أنه اعترف بعد ذلك بأن أمره ربما كان السبب في خسران حرب الريف وفي تطوان أمر الجنرال «بيرانجير» الليف الأجنبي (تيرسيو) بالتوجه إلى سبتة ومنها إلى مليلية ولكن قاده أعلنوا أن المدينة لا تقدر على الدفاع.

وفي إسبانيا كان وقع الكارثة العسكرية مثار سخط عام، وهياج شعبي، واتهم الملك بالاشتراك في الكارثة، بل الجريمة، كما قيل، وتحذر الإشارة إلى أن الملك الفونسو زار البابا زيارة رسمية سنة 1923، وطلب منه أن يعلن حرباً صليبية جديدة على من سماه (بالكافر) وهو محمد بن عبد الكريم الذي ترجم خطاب الملك الإسباني ونشره في كل الريف حتى يقف سكانه على حقيقة الغزو الإسباني في نظر رئيس دولة إسبانيا ومن هو على شاكلته من العسكريين كالجنرال (سيلفستر) الذي أطلق له حرية التصرف في الحرب برسالة سرية اكتشفت مع أوراقه بعد قتله في معركة انوال.

ومع ذلك فقد امتنع محمد بن عبد الكريم من أن يرد على الملك الفونسو بالمثل، فعلن الجهاد كحرب مقدسة ضد الإسبانين

فرقة الجيش في برشلونة فقتلت ضباطها، وباختصار عم الغضب، والحق، والاستياء في إسبانيا كلها شعباً، وحكومة، وجيشاً، فأخذ الجميع يطلبون الخلاص من الورطة في المغرب، وأصبحت البلاد مهددة بالفوضى.

ومما جعل المسؤولين يدركون أكثر فداحة المصيبة أن الجنرال «بيكاسو» وضع تقريراً سرياً عن هزائم الجيش ومشاركة الملك الفونسو في كارثة انوال على يد جنراله المغرور المشهور «سيلفستر». ولما اطلع البرلمان على التقرير ثارت ثائرتة، وتعينت لجنة برلمانية لدراسة التقرير، ولولا توسط الجيش لعصفت الثورة الشعبية بنظام الحكم والملك الفونسو. وكان أولى نتائج هذا أن خضع الملك، ثم عطل الدستور بحدوث الانقلاب على يد الجنرال (بريمودي ريفيرا) الذي أصبح ديكتاتور إسبانيا، وكان وهو حاكم عام لمقاطعة كاتالونيا ينادي بالانسحاب من المغرب حتى تسبب له هذا في فقد منصبه، وكان صعوده إلى رئاسة الحكم، في 13 شتنبر 1923، كما كان يتمتع بشعبية في الجيش والجمهور، وكان أول ما قرره وضع حد للتضحية بالأرواح والأموال في المغرب، وعلى هذا الأساس قرر التخلي عن كل ما يمكن الاستغناء عنه دون ذلة ومهانة. وأقيل الجنرال (بيرانجير) المندوب السامي بتطوان والقائد الأعلى للقوات الإسبانية بالشمال المغربي، وكان في هذا وسيلة لمحاولة ستر تورط الملك في هزيمة انوال، لأنه اعتبر مسؤولاً مباشراً عنها، والحقيقة أنه كان ينصح دائماً الجنرال «سيلفستر» حليف الملك ورجل ثقته، بعدم الاندفاع، وبالبقاء في المواقع الدفاعية قرب مليلية.

الفصل السابع

انعكاس الهزائم على الوضع السياسي في إسبانيا

تأثر الوضع السياسي في إسبانيا بالهزائم المتوالية التي تكبدها الجيش الإسباني في الريف أشد وأقصى تأثر، ولم يطق الحكم ولا الشعب تحمل الكوارث الدموية التي منيت بها القوات الإسبانية على كثرتها ومع ما توفرت عليه من سلاح وعتاد، ولم تحل سنة 1923 حتى انفجرت الأزمات في أوساط الجيش والحكومة، والرأي العام مُثلاً في الصحافة والأحزاب، فساد الاعتقاد بأن المغرب ليس إلا مقبرة للشباب الإسباني، وبثراً بدون قعر تبتلع باستمرار الأموال والثروات الإسبانية، لأن الحرب في الريف كانت ترهق الميزانية الإسبانية التي بلغ ما تصرفه سنوياً عشرين مليوناً ليرة استرلينية، وكانت جميع التضحيات البشرية، والمادية، والمالية تذهب أدراج الرياح.

وبقدر ما كانت إسبانيا تخسر كانت الثورة الريفية تحقق الأرباح والمكاسب عسكرياً، ومادياً، ومالياً، بفداء الأسرى، ومعنوياً، وكان من نتائج هذا كله أن القوات الإسبانية كانت لا تتحرك من تطوان أو مليلية إلا لتلقى الاندحار والانكسار حتى صار الشعب الإسباني يعلن معارضته للبقاء بالمغرب، ومرة تمرت

وكان الجنرال (دي ريفيرا) يحمل لقب (مدير) تغطية لديكتاتوريته العامة المطلقة، وبهذه الصفة زار المغرب ليتولى شخصياً مسؤولية الحملة، فأمر الجيش بأن ينسحب من المواقع الأمامية إلى أخرى أسلم وأضمن جنوب تطوان ومليلية، كما أعلن التخلي عن احتلال المنطقة الشمالية من المغرب فثارت ثائرة الجيش لأن هذا يجرمه من أخذ الثأر والانتقام لغسل عار الهزائم والكوارث العسكرية، ولكن (دي ريفيرا) كان مصمماً على خطته التي أعلنها لمراسلي الصحف مبيناً أسماء المواقع وتواريخ الانسحاب منها إلى التي أعدت حول تطوان ومليلية. ويقال إن ليوطي حينها علم هذا، صاح: «يا إلهي! إن الجيش لا ينحسب إلا عند الاضطراب ولكن من غير أن يعلن هذا سابقاً لعدوه»، واعتبر قرار (دي ريفيرا) خاتمة ما سمي «بمغامرة إسبانيا في المغرب».

وإذا كان (دي ريفيرا) قد ناصر وحقق الانسحاب من المواقع المتقدمة فإنه كان يفكر في نفس الوقت في حشد القوات والإمدادات في المراكز الساحلية مع محاولة الاستيلاء على داخل الأراضي بواسطة الطيران الذي ضاعف عدده من 50 إلى 150، ومع هذا ظل يعتقد أن على إسبانيا إما أن تتقدم، وإما أن تتخلى عن المغرب.

شخصيات انكليزية، «نيابة» كانت تنطق باسمها، وتتولى المخابرة على لسانها، وتقوم بتوجيه كتابات الحكومة الريفية إلى هيئة الأمم لمحاولة عرض قضية العدوان الإسباني على نظر المنظمة الدولية. ومما أوجأ حكومة الثورة إلى هذا انشغال قادتها ورجائها بالحرب ضد العدو، وصعوبة خروج المندوبين بسبب العراقيل والموانع المنصوية في طريقهم، والمكونة لحصار مضروب دائم، ورغماً عنه كان يمكن الاتصال بالخارج عن طريق طنجة التي كانت الثورة تتوفر فيها على جهاز للمخابرات، وضرورة الاستعانة بالعاطفين والمؤيدين من الأوروبيين الذين يستطيعون القيام بنشاطهم السياسي والدبلوماسي دون أن يتعرضوا في بلادهم للموانع الرسمية. ومثال هذا لجنة الريف (ريف كوميطي) المنشأة في لندرة بواسطة كوردون كانينغ الذي اشتهر إذاك بنشاطه في سبيل تحقيق مطالب الثورة التحريرية، وأدى لها خدمات مهمة غير خفية، وكان يتردد بكثرة على الريف ويتمتع بثقة قادة الثورة، الأمر الذي مكّنه من القيام بمهامه، وفتح له أبواب المخابرة مع الحكومات المعنية بالأمر علماً منها بأنه كان ذا صلاحية لينوب عن قيادة الريف، وينطق باسمها كوسيط على الأقل. وتجدد الإشارة إلى أن حكومة الثورة كانت تتخذ بعض الانكليز لمساعدتها فتعطيهم صفات دبلوماسية مثل جوهن ارنول الذي كان يحمل لقب وزير مفوض، وكان مكلفاً كوكيل عام لحكومة الريف في لندرة.

(Agent Général du gouvernement du Rif)

وفيا يخص موقف هيئة الأمم، فلم يطرأ عليه أي تغيير لصالح الثورة الريفية بالرغم عن كل الاتصالات بها بواسطة

ثورة التحرير ومساعدتها الدولية

كانت ثورة الريف التحريرية تخوض معركتين، إحداهما في الداخل ضد المحتلين مع الإسبانيين، والأخرى في الخارج ضدهم كذلك، ولكن بوسائل سلمية، أي بالسياسة والدبلوماسية في بعض العواصم الأوروبية كباريس ولندرة، وفي الأوساط الدولية بجنيف مقر هيئة الأمم، وكانت الحركة الخارجية للثورة التحريرية تعتمد على الدعاية في الصحف لصالحها، وعلى الاستعانة بالشخصيات العاطفة، وعلى التعريف بالمطالب الثورية في مذكرات وبيانات موجهة إلى الرأي العام العالمي، وإلى هيئة الأمم في جنيف؛ كما اهتمت حكومة الثورة بإيفاد ممثليها لإجراء الاتصالات والمخابرات مع رجال السيادة ورؤساء الأحزاب، وأعضاء المجالس النيابية، وأرباب الصحف على اختلاف اتجاهاتها. وكانت الحركة الخارجية ناطقة بلسان حزب التحرير الدائرة ضد الاحتلال الاسباني، فأهلها بالتعريف بحقيقتها التي حاول الأعداء تشويهها للتضليل ما استطاعوا إلى هذا سبيلا، كما اهتمت بعرض وجهة نظر قيادة الثورة، وإعلان مطالبها ومطامحها حتى تكون واضحة ومفهومة.

ومن أجل هذا أنشأت حكومة الثورة في لندرة بمساعدة

المقهورة، في وثبة التحرر من العبودية كما كانت تعانيها تحت سيطرة الاحتلال، وسياسة الاستعمار. ولم تكن هذه التجربة المرة القاسية التي جربتها تلك الشعوب بعديّة الجدوى حيث أفنعتها بالتخلي عن الخيالات والأوهام، والاعتماد على واقع الأمور وعلى نفسها لنيل حقها في الحياة الحرة الشريفة، وهذا ما كان بالنسبة لثورة الريف التي ما انفكت تحارب العدو بالسلاح، وترمي إلى إجلائه بالقوة عن أرض الوطن.

ويتضح من الوثائق السياسية والديبلوماسية التي كانت تصدر عن حكومة الثورة أنها كانت لا تخرج عن موضوع المطالبة بالتخلي الإسباني عن خطته العدوانية وإقرار السلم في شمال المغرب، واحترام إرادة الشعب الثائر في التمتع بحق تقرير المصير القومي، وحكم نفسه بنفسه كسائر الشعوب الحرة، والاعتراف بهذا رسمياً من الدول، والارتباط معها بعلاقات دبلوماسية منظمة، وإبرام اتفاقات بين الطرفين للتعاون الاقتصادي والفني في صالح الجميع، هذا هو فحوى مطالب الثورة مهما اختلفت صيغ التعبير عنها في مستنداتها الرسمية الموجهة إلى الحكومات أو هيئة الأمم، ونثبت ما عثرنا عليه في السجلات هي بعض من كل، وهي مكتوبة بالانكليزية وموجهة من (وفد الريف) (ريف دبلوكيشن) بلندرة، وضمن تلك الوثائق لائحة مطالب بتوقيع عبد الكريم بن الحاج على البقيوى، ومحمد بن محمد بوجيبار الورياغلي، وأرقلت اللائحة برسالة مؤرخة في 6 شتبر 1922 بإمضاء جوهن ارنول الانكليزي، وهي - حسب الرسالة - نداء من محمد عبد الكريم الرئيس والقائد الأعلى، وهذا نص اللائحة معرباً عن الانكليزية:

المذكرات، والبيانات الموجهة إليها باستمرار من حكومة الثورة أو باسمها ونيابة عنها، وكانت كتابتها العامة تكتفي بتسجيل الوثائق الواردة بأمانة إدارية لا أقل ولا أكثر، ويستفاد من مراسلات المسؤولين عن قسميها السياسي والقانوني مع ممثلي الثورة من الانكيز أن الهيئة لم يكن في استطاعتها أن تتولى النظر في قضية الحرب مع إسبانيا في الريف إلا إذا تبنتها وفود دول أعضاء أو أحدها، وقد جرت فعلاً محاولة مع وفد فارس (إيران) بدون جدوى. وكان ممثل فرنسا لدى هيئة الأمم من أكبر المعارضين لإدراج القضية في جدول الأعمال للبحث والتداول، تَضامناً مع إسبانيا، وخوفاً من عواقب اندثار الاحتلال الإسباني على الوجود الاستعماري الفرنسي في المغرب.

وبصفة عامة كانت الدول المسيطرة داخل الهيئة الدولية هي دول الاستعمار التي جعلت منها أداة طيعة ومسخرة لها، وهي فرنسا، وانكلترا، وإسبانيا، وإيطاليا، وبلجيكا، وهولاندا، فاستحال مع وجودها إسماع صوت الشعوب المعتدى عليها بالاحتلال والاستعباد، وإنالتها حقوقها في الحرية والاستقلال، وقد أيقنت الشعوب المحرومة بأنه لا سبيل إلى نيل أمانها إلا بالكفاح والتضحية لا بالاعتماد على أنصاف الأعداء، والمطالبة بتطبيق المبادئ المعلنة في صك هيئة الأمم الخاضعة لهم، والسائرة وفق مشيئتهم لصالح سياستهم الاستعمارية المشتركة، وقد كان هذا من أقوى البواعث على فشل الهيئة الأمية التي برهنت على أنها لم تكن هيئة إنسانية عالمية تحقق الحق وتبطل الباطل، وتوجد الشعوب

8 - نحن نضمن حياة أرواح الجاليات الأجنبية، كما أنه بوسعنا أن نؤمن لها حمايتنا الكاملة.

9 - نحن على استعداد لتوفير الأدلة والضمانات على أننا نستطيع أن نحكم البلاد تمثيلاً مع مصالح السلم والتجارة الدولية.

10 - نطلب إليكم النظر في هذا الطلب في إطار الاجتماع الحالي.

12 - نرجو توجيه الدعوة إلى إسبانيا، من خلال عصبة الأمم، للسماح لممثلينا بالدخول الحر لبلادهم عن طريق البحر.

توقيع:

عبد الكريم بن الحاج علي البقيوي

محمد بن محمد بوجيبار الورياعلي

الوثيقة رقم (1)

لندن، في 2 شتنبر 1922

المجلس العام لعصبة الأمم

نحن، الممثلين المعتمدين لحكومة الريف الحالية، بالمغرب، نود إبلاغكم بأنه لدينا حكومة تمثيلية منتخبة حسب الأصول المرعية، وتتكون من نواب عن 41 قبيلة من قبائل الريف وغمارة، بالمغرب.

1 - نودونا الرغبة في إجراء ترتيب مع إسبانيا من أجل إرساء السلام.

2 - نعتزم الموافقة على تعيين حدود جغرافية بيننا وبين إسبانيا.

3 - يحكم بلادنا مجلس تمثيلي منتخب حسب الأصول، وذلك مع مراعاة الكاملة لمبادئ (عصبة الأمم).

4 - تم انتخاب برلماننا لمدة ثلاث سنوات متجددة.

5 - يتم تعيين أعضاء الحكومة من بين الممثلين المنتخبين ومن قبلهم.

6 - نعتزم فتح بلادنا للتبادل التجاري مع جميع الأمم.

7 - نحن على استعداد لضمان حقوق جميع الأمم في جميع المجالات المتصلة بالتجارة، ولن نفرض، بأي حال من الأحوال، رسوماً أعلى من تلك التي تفرضها على المقاطعات الأخرى في المغرب.

الوثيقة رقم (2)

وتوجد كذلك «رسالة مفتوحة»، إلى الأمم المتحدة من الأمير ابن عبد الكريم، بتاريخ 6 شتنبر 1922، بواسطة وفد الريف بلندرة، وأرفعت الرسالة المفتوحة برسالة تقديم بتوقيع الناطق باسمه الانكليزي جوهن ارنول، والكل موجه إلى الكاتب العام للهيئة الدولية، ويطلب المتحدث باسم الوفد عرض الرسالة المفتوحة على الجمعية العامة للهيئة وهي تتطلب الرغبة في السلم والاعتراف مؤكداً أنه مطلع على الإقليم الذي تعد حكومته الحكومة الوحيدة المستقرة والقادرة على ضمان حقوق الأجانب في كل مجاله، وأنه لا توجد فيه أقليات باستثناء خمسين أسرة يهودية تعيش منذ قرون كثيرة في سلم وطمأنينة، وهذا نص الرسالة المفتوحة معرباً عن الانكليزية:

رسالة إلى الأمم المتحدة

إن النص التالي هو عبارة عن ترجمة لرسالة مفتوحة موجهة إلى (الأمم المتحدة) من طرف الأمير محمد عبد الكريم أمير الريف، بالمغرب:

«لقد سبق لنا الاتصال بسفراء بعض الأمم القوية في طنجة لإبلاغهم بشكوانا من إسبانيا، ولسنا ندري ما إذا بلغتكم رسائلنا. ونحن اليوم، نناشدكم من جديد لمساعدة الإنسانية، ونطلب إليكم بذل ماوسعكم الجهد من أجل رفاهية البشرية جمعاء بغض النظر عن الدين أو العقيدة.

«إن ثورة الريف جاءت نتيجة لأعمال الاضطهاد والتعدي التي اقترفها الشبان الإسبانيون الذين نصبوا على السلطة هناك، ولقد امتد سلطانهم حتى تناول على كبار الأئمة المسلمين والموظفين المدنيين والجيش المحلي إلى حد أنهم قد شرعوا في اغتصاب الأرض وامتهان الشعب - وهي سمة من سمات أيام الجاهلية - وهم إن فعلوا ذلك فإنما يفعلونه بكل بساطة باسم الأوروبيين والتمدن، وما هم في واقع الأمر، بالمصلحين أو بالحاميين، إذ أنهم ليسوا سوى غاصبين لا يبصرون.

«لقد عاش الريف حتى الآن حياة حرة، وهو اليوم يضحى بأرواح رجاله دفاعاً عن حريته ودينه.

«فالريف، لا يبدي أي اعتراض إزاء الحضارة الحديثة أو أي نفور من مشاريع الإصلاح، كما أنه لن يرفض أبداً إقامة علاقات تجارية متبادلة مع أوروبا، فالريف إنما يستهدف إنشاء حكومة محلية تعتبر أمراً أساسياً لحماية حقوقها الخاصة بها وحقوق الرعايا الأجانب طبقاً لأحكام الاتفاقات التجارية التي تربط الدول الأوروبية القوية بدول غرب أفريقيا، غير أن الريف يأبى أن يرى مقاليد الحكم موكولة لأشخاص ترشوهم جهات أجنبية ذهباً ثمناً لسلطانهم ووطنيتهم.

«أشخاص لا يتورعون عن رهن وطنهم وشعبهم لمن يعرض عليهم حفنة من المال، ولا يراعون سوى مصالحهم الشخصية، أشخاص أصبحوا الآن، رغم ما يرفلون فيه من حلول مثقلة

«ولقد أصبح اليوم لزاماً على أوروبا التي طالما نادت في غضون هذا القرن العشرين بأنها تقف لإعلاء مستوى الحضارة والنهوض بالإنسانية، أصبح لزاماً عليها بأن تضطلع بنقل هذا المبدأ النبيل من المجال النظري إلى المجال العملي، وأن تقف لحماية المظلوم منبغي المعتدي، والتصدي للقوي لصيانة حقوق الضعيف، الذي قد يؤدي به شعوره التقليدي بالشرف والشهامة، إن لم يقدم له العون، إلى خائفة حتمية لا تحمد عقباها - ألا وهي الإبادة الذاتية.

«ففي هذه الأيام، تحول الريف إلى ساحة حرب، حرب ليس لها في واقع الأمر ما يبررها أمام مولانا العلي القدير، حيث إنها سوف تجلب دماراً لا طائلة منه على العديد من الإسبانين والريفين.

«ويعتقد الإسبانون أن أوروبا قد عهدت إليهم بمهمة الإصلاح والتمدين في الريف، إلا أن أهل الريف يتساءلون: «هل الإصلاح يعني تدمير المنازل باستخدام أسلحة محظورة استعمالها أم التدخل في الشؤون الدينية أو اغتصاب حقوق الآخرين؟ أو هو عبارة تطلق على عملية ضم أرض الآخرين تستراً باسم الحماية؟ فالغرض من الحماية هو الحفاظ على حقوق الرعايا المعنيين بالأمر وحمايتهم، وفي إمكان أوروبا الآن أن ترى أننا في حاجة إلى من يحميننا مما تمارسه هذه السلطة من عدوان على حرياتنا واستقلالنا، وشرفنا، وحرمة نساتنا.

اتفاق يتم التوصل إليه، فسيكون من الواضح أن أوروبا لا تستهدف سوى محاربة العالم المحمدي بأسره، بصرف النظر عن الأسلحة المستخدمة أو الطرق المتبعة.

«إلا أننا لا نعتقد أن المسكين بزمام الشؤون السياسية، رؤساء كانوا أو أمراء، سيكونون مرتاحي الضمير وقد شوشت صفاءه مثل هذه البصمة السوداء، ونحن بذلك، إنما نقصد تلك البلدان التي تشدها إلى العالم الإسلامي روابط قوية، والزمن وحده هو الكفيل بتحقيق آمالنا أو بهدمها، والرأي السديد هو الذي سيقدر آمالنا في الوقت المناسب حق قدرها.

«والسؤال المطروح يتعلق بطبيعة الهدف الذي تنشده أوروبا من وراء عقد مؤتمر الجزيرة الخضراء (Algésiras)، هل كانت تقصد بذلك إعلاء كلمة القانون والنظام، وزيادة الثروة العامة وضمان أرباح اقتصادية؟ فإذا كان الدافع ذا نوايا حسنة وشريفة وخلوا من أي طمع في النفوذ السياسي أو العسكري (ونحن على يقين من أنه كذلك)، فإن ذلك هو عين ما بطمح إليه الريف، كما أنه لا يبدي أي اعتراض كان إزاء هذه الشروط، فكل ما يبتغيه هو التخفيف من عبء الاضطهاد الإسباني والعدوان العسكري وإقامة حكومة محلية خاصة به، يشرف على إدارتها بنفسه.

«نرى، أنجد أوروبا في ذلك أي شيء من شأنه الإضرار بمصالحها أو المساس بحقوق رعاياها؟ أفي ذلك أي تحيز عنصري أو قبومي يجعلها توصد أبواب أوساطها السياسية في وجه أولئك الذين يعانون من وطأة الإسبان؟

بمختلف ما أغدق عليهم من ألقاب ونياشين، مجرد بياق في خدمة مصالح الإسبان متجاهلين تماماً تعاليم الشريعة الإسلامية والعادات والتقاليد الوطنية .

«إن شغل الريف الشاغل هو إقامة نظام حكم خاص به يعتمد على إرادته الذاتية لا غير، كما أنه يتطلع إلى سن قوانينه، وإبرام معاهداته التجارية حتى يتمكن بذلك من حماية حقوقه الداخلية والخارجية على حد سواء، ولا يسع أوروبا أن ترفض مثل هذا النظام طالما أنه لا يتعارض بأي حال من الأحوال مع الحقوق، والإصلاحات، والحضارة الأوروبية .

«وتصل أوروبا أبناء تنسب السلطة في الريف إلى خليفة مزعوم تحت رعاية (حماية إسبانية) و (حامين إسبانيين)، وقد تظن أنهم قد نصبوا على الحكم وبصورة دستورية، وأنهم يحكمون بالعدل، ولكن في الواقع ليس هناك أي شيء من هذا القبيل .

«ولقد سبق للريف أن طلب المساندة والتأييد ممن يحركه شعور بالعدالة في أوروبا، كما وجه رسالة لممثلي الدول العظمى علناً، وأنه لا يزال شاهراً سلاحه لإجلاء الغاصبين من أراضيه في انتظار رد الأمم المتحدة، فإذا تدخلت هذه الأمم وفضت المشكلة بصورة ترضي الريف وتحمي حقوق الطرفين، فإن الريف سيتحقق عندئذٍ من أن دعواها بالعمل لما فيه خير البشرية والحضارة صادقة لا خداع فيها، أما إذا ولت المشكلة ظهرها ولم تدع لعقد مؤتمر يحضره كذلك زعماء الريف لإثبات أقوالهم والتعهد بالوفاء بأي

الوثيقة رقم (3)

وبالرغم من عدم جدوى كل المحاولات والمسااعي في المجال الدولي لصالح الثورة فإن قادتها واصلوا بذل الجهود للاتصال بأهم الساسة الأوروبيين وعرض مطالبهم، والتعريف بمواقفهم، والعمل للحصول سلمياً ورسمياً على الإصغاء لشكواهم عن عدوان الإسبان على أرضهم نتيجة اقتسام مناطق النفوذ بين الدول المستعمرة في أفريقيا عامة، وفي المغرب خاصة، كما كانت تتوارد عبثاً على هيئة الأمم كثير من الكتابات والبرقيات لتأييد ثورة الريف التحريرية من منظمات ومؤتمرات في أوروبا وأمريكا الجنوبية، وفيما يلي بيان آخر لحكومة الريف معرباً عن الانكليزية :

حكومة جمهورية الريف

بيان حكومي وإعلان لجميع الأمم

«إن حكومة جمهورية الريف التي أعيد تنظيمها وتم تأسيسها منذ العاشر منذ يونيه 1920، تشعر جميع الدول بالبيان التالي :

1 - الريف قبل قرار الجزيرة الخضراء. قبل عام 1906، كان يحد الريف البحر الأبيض المتوسط شمالاً، والمحيط الأطلسي غرباً، ومنطقة المغرب الفرنسية جنوباً وشرقاً، وتقدر مساحته بحوالي 50,000 كلم مربع، ويبلغ عدد سكانه مليوني نسمة يعيشون في رحاب تجمع من القبائل تقيم فيما بينها علاقات حسن الجوار بفضل ما يؤلف بينها من قرابة لغوية وعرقية، كانت هذه القبائل تحيي حياة حرة ووحدت صفوفها لصد أي محتل كان، فبتلك

«فإذا كانت أوروبا غير مستعدة لسماع دعاوى الريف،
وتعتبرها بعيدة كل البعد عن الحقيقة، فذرنا إذن تستشف الحقيقة
من الإسبان ذاتهم - أي من الأعضاء في المجلس النيابي، الذين
أمروا بضرورة الانسحاب، نظراً لما بادت إليه مساعيهم من إخفاق
ولما اقترفه الجيش وغير الجيش من انتهاكات واعتداءات، مما جعل
من المستعصي التخفيف من حدة حق الريف وغضبه.
«هي ذي شكوانا نوجهها إليكم علناً، يا أمم أوروبا
المتحضرة، والسلام عليكم».

توقيع:

محمد عبد الكريم

ولم نعثر على غير النص الانكليزي الذي يظهر أنه هو النص
الرسمي الموقع باسم قائد الثورة، لا بتوقيعه الخطي الخاص
ولا ندرى هل النص الانكليزي أصل أو ترجمة، ولو وجد نص
خطي للأمير ابن عبد الكريم لاعتبر هو الأصل، ولكنه مفقود في
السجلات التي اطلعنا عليها، ولم ترد له إشارة في أوراق التسجيل
المرفقة بالسجلات المشتملة على مختلف الملفات المحفوظة.

العاملين في الحقل الصناعي والتجاري، حتى ذوي الجنسية الإسبانية منهم، والذين يرغبون في العمل في البلد بدون نية عداية.

«ويتطلع الريف إلى التعايش الودي مع كل الأمم - الصغيرة منها والكبيرة، ولقد سبق له في عام 1921 الإخطار بإعلان الجمهورية لكل من سفير انكلترا وفرنسا وأمريكا وإيطاليا المعتمدين في طنجة، ويشعر من جديد وزراء خارجية جميع الأمم بهذا البيان، ويسأل جميع البلدان إقامة مصالح قنصلية ودبلوماسية (باجدير) عاصمة الريف، حيث يتسنى للمثليين الأجانب الحصول على جميع التسهيلات اللازمة للوفاء بمهامه».

باسم حكومة الريف وبالنسبة عن رئيس جمهورية الريف:

الرئيس عبد الكريم الخطابي

رئيس مجلس الوزراء ووزير المالية والداخلية:

الوزير عبد السلام محمد الخطابي

وزير العدل:

الوزير محمد الشمس

وزير الحربية:

الوزير محمد بن عمر

وزير الشؤون الخارجية:

(توقيع) محمد عبد الكريم الخطابي

اجدير، في غرة يولييه 1923 م

الطريقة تم التوصل إلى صد جيوش سلطان المغرب خارج القطر خلال حملة دامت قرابة سبع سنوات، منذ عام 1898 إلى عام 1905، والواقع أن ملك المغرب كان يعتبر دوماً في الريف بمثابة الزعيم الروحي، وكان نفوذه الديني يعد جزءاً من سلطانه الشخصي.

«وهكذا، فإن موقف الريف من هذا الحاكم، كان قبل عام 1906 موقفاً مستقلاً تقريباً.

«2 - الريف بعد اعتماد قرار الجزيرة الخضراء: يعلن قرار الجزيرة الخضراء السلامة الإقليمية للمغرب على مدى انتشاره، والحكومة الريف الحق في القول بأن هذا الاتفاق الدولي قد تم تأجيله طويلاً، لأنه تم في إطار الاتفاقات الدولية الأخيرة تقسيم المغرب إلى منطقتين: إحداها خاضعة للحماية الفرنسية، وتم اعتبار الثانية، تغاضياً عن كل حق، وعن رغبة الريف الموحدة، خاضعة للسيطرة الإسبانية، وكان الريف يحس دائماً حياة مستقلة، وأسس منذ العاشر من يونيو 1920، حكومة جمهورية حديثة، كانت إسبانيا تتعامل معها معاملة النذ للنذ (مثل مسألة أسرى الحرب، عام 1921)، ولطالما تطلعت هذه الحكومة بدون جدوى للتفاوض حول السلام، ويشعر الريف رسمياً بجميع الدول بأنه ينوي الاحتفاظ باستقلاله السياسي المطلق وبأنه سيواصل كفاحه من أجل الحصول على اعتراف رسمي بلا لأي ولا توان حسبما تقتضيه الضرورة. «وفضلاً عن ذلك، لكي يضمن الريف استغلاً رشيداً لثرواته الهائلة، ففي نيته إقامة مبدأ الدخول الحر لجميع الأجانب

مغاربة البتة، كما أن الانكليز لا يمكن أن يعتبروا أنفسهم ألماناً، ولعل هذا المزيج العرقي هو الذي يجعلنا أشبه ما نكون بالانكليز في إرادتنا المطلقة في الاستقلال، وفي رغبتنا في أن نكون على اتصال مع أمم الأرض جميعاً.

«إننا ندعو بهذا البيان جميع الشعوب في أية جهة من العالم ومن أية أمة كانت للمجيء إلينا، واستكشاف مناطقنا المجهولة بواسطة العلماء، والجيولوجيين، والكيمائيين، والمهندسين، بدوافع تجارية، ومن دون أي قصد حربي. إننا ندافع عن أراضينا ضد غزو القوات الإسبانية التي تفرض علينا الحرب متذرة بمعاهدة الجزيرة، إن هذه المعاهدة تعلن استقلال سلطان المغرب، وسلامة أراضيه، والاستقلال الاقتصادي من دون أي تفاوت، وإذ نوافق على المبدأين الأولين فيما يتعلق بأراضي السلطان، فإننا ننادي بالشيء نفسه من أجل ريفنا الذي لم يدفع قط حتى الآن الضرائب والجزيات للمغرب، كما لم يتلق المعونة أو المخصصات من أجل تطوره، وإننا لراغبون في إقامة الحرية الاقتصادية دون تفاوت في جمهوريتنا ولهذا فقد سمينا مثلاً تجارياً من أجل تطوير الثروات الكبيرة لبلادنا بواسطة دعوة أصحاب الأعمال من جميع الأمم بحيث يسود حكم من النظام، والسلم، والرخاء.

«ولقد أشعرنا في يوليو 1921 سفراء انكلترا، وأمريكا، وفرنسا، وإيطاليا في طنجة بأننا نعلن جمهورية الريف، ونحن لا نبرح نخوض بنجاح حرباً مشروعة ضد إسبانيا دفاعاً عن استقلالنا، وسوف نثابر على ذلك حتى نحصل على السلام،

الوثيقة رقم (4)

وفي يناير 1923 أعلن محمد بن عبد الكريم استقلال دولة الريف ببيان هو في نفس الوقت نداء إلى العالم، وثبته هنا نقلاً عن مصدر انكليزي، وليس هو النص الأصلي الذي لا يعرف بأية لغة كتب، ويغلب على الظن أنه كتب بلغة أوروبية قد تكون هي الانكليزية، وربما كتب بالعربية وترجم إلى لغة أجنبية. ومهما يكن فالنص الذي نورهده بالعربية إنما هو ترجمة عن الانكليزية، وهو كما يلي:

حكومة جمهورية الريف

بيان من الدولة ونداء إلى جميع الأمم

«نحن حكومة جمهورية الريف، المؤسسة في يوليوز 1921، نعلن ونشعر الدول المشتركة في معاهدة الجزيرة سنة 1906 بأن المطامح العليا التي أدت إلى المعاهدة لا يمكن أن تتحقق قط، الأمر الذي أثبتته تاريخ الأيام الماضية، وذلك بسبب الخطأ الأصلي القائل أن بلادنا - الريف - تشكل جزءاً من المغرب. إن بلادنا تشكل جغرافياً جزءاً من أفريقيا، ومع ذلك فهي منفصلة بصورة واضحة عن الداخل، وبالتالي فقد شكلت جنساً عرقاً منفصلاً عن سائر العروق الافريقية التي اختلطت بالأوروبيين والفينيقيين قبل مئات السنين بفضل الهجرة، كذلك تختلف لغتنا بصورة بينة عن اللغات الأخرى المغربية أو الافريقية أو غيرها. فنحن، الريفيين، لسنا

المحيط، ومن البحر المتوسط إلى ما سماه خطأ (بحدود المغرب) التي كانت حدوداً مصطنعة ومؤقتة بين منطقتي النفوذين الاستعماريين الإسباني والفرنسي إنما هو ادعاء لا يقوم على أساس ولا يسلمه أحد أبداً، لأنه لا يطابق الواقع الجغرافي، والتاريخي، والقومي، كما يتعارض مع إرادة سكان الشطر الغربي من شمال البلاد الذين هم جبالة وليسوا ريفيين.

أضف إلى هذا، أن الريف وحده لا يمكن أن يقوم وطناً منفصلاً عن بقية المغرب من حيث التجارة والاقتصاد، والصناعة، فهو فقير من حيث العمران، والموارد الطبيعية، كان هذا شأنه قبل الاحتلال وبعده، ولم يتمكن من وسائل التطور والتقدم إلا منذ تحقق الاستقلال سنة 1956، وعودة الشمال إلى الوطن كوحدة متراسة، وكأمة متماسكة، وهذا ما يشهد به الواقع، والخاص العام.

وخلاصة القول، أن ذلك البيان بنى ادعاءاته على غير أساس، وأخضع هذه الادعاءات إلى اعتبار واحد هو محاولة تبرير استقلال الريف سياسياً عن بقية المغرب بعد أن فرضت عليه السيطرة الأجنبية باسم نظام الحماية المزعومة، ومن أجل ذلك صدم البيان كل الحقائق القائمة الفارضة نفسها منذ كان المغرب إلى اليوم، فكان في ذلك متجاهلاً، لا جاهلاً لها لسبب سياسي لا غير، على أنه كان من حق الثورة التحريرية الرافضة لكل تدخل أجنبي أن تحارب هذا التدخل، ولا تعترف بأية معاهدة تتعلق به، ولا تدخر جهداً لحماية الريف من الاحتلال، ولتحرير الأراضي

والحرية، والاعتراف باستقلالنا ضمن أراضي جمهوريتنا الكاملة من خط الحدود مع المغرب حتى البحر الأبيض المتوسط، ومن ملوئه حتى المحيط.

«وإننا ندعو هنا جميع البلدان إلى إقامة الخدمات القنصلية والدبلوماسية في مركز حكومتنا الحالية باجدير حيث ستمنح لهم جميع التسهيلات، وحيث سيحفظون بكل ترحاب».

التوقيع:

عبد الكريم

ونبدي على هذا البيان ما يثيره من استغراب واعتراض لما ورد فيه من تصريحات منافية للوحدة المغربية التاريخية، والجنسية، والجغرافية، والسياسية. فالمغرب منذ أقدم العصور كان وحدة متماسكة لا فرق بين شماله وجنوبه، وشرقه وغربه، وقيام حركة ثورية في أية جهة منه، عبر تاريخه، ضد الحكومة المركزية لا يعني مطلقاً أن الجهة الخارجة عن السلطة المركزية تعتبر قطعاً منفصلاً عن المغرب كوطن وأمة، كما ادعته تصريحات البيان السالف الذكر. فالريف كان دائماً جزءاً لا يتجزأ من المغرب أرضاً، وجنساً وحضارة وقومية، كما أن الريف يتكون من شرق شمال المغرب دون غربه الذي يسمى بـ «جبال» والذي لا يتكلم باللهجة الريفية التي هي إحدى اللهجات المغربية مثل اللهجتين البربرية والشلحة، وكلها لهجات قومية مغربية معترف بها مع وجود العربية كلغة عامة مشتركة. فادعاء البيان أن الريف يمتد شمال المغرب من ملوئه إلى

الريف، فقصده بوجييار لندرة، بينما اتجه الآخرون إلى باريس. وفي لندرة اتصل المبعوث الريفي باللورد سيسيل محاولاً الحصول على المساعدة لعرض تلك القضية على عصبة الأمم بجنيف، وفي باريس كان اتصال المبعوثين بالاشتراكيين، في حين رفض الوزراء مقابلتهما، وتمت تلك المساعي دون جدوى لأن الاستعمار كان متواطئاً نتيجة اتفاقات تبادل مناطق النفوذ، واقتسام المغرب بين دوله الأوروبية، وتجلت إذاك بصورة واضحة أن الريف كان في عزلة لا نصير له سوى الله، والمغاربة، والأحرار.

وبالإضافة إلى تلك الجهود في جنيف قامت البعثة الريفية بمساع كبيرة، وبذلت جهوداً متواصلة للتعريف بقضية تحرير الريف، فكانت كثير من الاتصالات بالشخصيات الدولية، وبمراسلي الصحافة العالمية، غير أن هذا كله لم يأت كذلك بالنتائج المرجوة، فبقيت العرائض والوثائق الرسمية الريفية مكدسة في سجلات هيئة الأمم التي كانت تحت سيطرة الدول الاستعمارية، والتي سجلت على نفسها ما أدانها في نظر العالم، وحكم التاريخ كعصبة الأقوياء ضد ضحاياهم من الشعوب المغلوبة على أمرها.

التي أصيبت به في الشمال، وهذا ما عملت له الثورة بالسلاح بعد أن حاولته بالتّي هي أحسن، كما حاولت - بحق - الامتداد إلى جهات أخرى جنوباً حتى أوشتك أن تقترب من فاس، وتآزة، ووزان في حربها مع الفرنسيين، وهذا عمل يتناقض تماماً وادعاءات البيان أن الريف ليس جزءاً من المغرب، وأن الريفيين ليسوا مغاربة بأية صفة، وإنما هم أفريقيون كأن المغرب نفسه ليس هو كذلك من أفريقيا، وأن الإنسان ليحار في نسبة ذلك البيان إلى قادة الثورة أمثال أميري الجهاد محمد ومحمد بن عبد الكريم الخطابي الذين كانا بطلي التحرير الوطني المغربي، ومن أشد الناس إيماناً وتمسكاً بالحقيقة القومية التي جعلت دائماً من المغرب وطناً لجميع المغاربة على اختلاف اللهجات المحلية التي هي نفسها جزء من التراث الأصيل المغربي إلى يومنا هذا، ولذلك لا نجد تعليلاً لدعائوي البيان سوى الاعتبار السياسي الوقتي لمحاولة إفلات الريف كأرض مغربية صميمة من نير الاحتلال والاستعمار، وإن كان التعليل نفسه لا يصح مطلقاً أن يتخذ مبرراً لدعوى الانفصال عن الوطن الذي هو بالجميع وللجميع ماضياً، وحاضراً، واستقبلاً.

هذا، وقد كان من المتوقع أن ترفض إسبانيا طلب ابن عبد الكريم اعتبار الريفيين محاربين - لا عصاة - طبقاً للقانون الدولي.

وفي نفس السنة التي صدر فيها ذلك البيان باسم حكومة الجمهورية الريفية إلى كافة الأمم توجه محمد الخطابي، وبوجيبار، وازرقان إلى انكلترا، وفرنسا بقصد جلب تأييدهما لقضية تحرير

«إننا جميعاً سيئو التسلح بالنسبة للإسبانيين، ولكن قوتنا المعنوية تعادل الفارق بيننا في السلاح، ومهما يكن، فإننا لا نريد الحرب، وقد أبلغت الحكومة الإسبانية، منذ ستين، بواسطة الجنرال (كاسترو خيرون) في مليلية أنه إذا اعترفت إسبانيا باستقلال الريف فإننا سنوافق على إعطائها المركز الاقتصادي الأفضل في استثمار موارد بلادنا الغنية، وقد رفضت إسبانيا هذا العرض، ومنذ ذلك الوقت أخذ وضعنا العسكري يتحسن ويتقوى شيئاً فشيئاً.

«وكيفما كان الأمر، فإننا لا نزال على استعداد للتفاهم مع إسبانيا، على أننا لم نطلب الجلاء عن البلاد كلها وإذا ما انتهى الأمر، كما نتمنى، إلى تعيين الحدود الإقليمية فسيتضح أنه لا توجد صعوبات تعترض هذا الاتفاق، وأن هذه الجبال كانت، منذ الأزمنة العريقة في القدم، ملكاً لأسلافنا، فسندافع عنها حتى آخر قطرة من دمائنا.

«إذا كانت إسبانيا راغبة في حرب دائمة في الريف فيمكن أن تكون لها هذه الحرب، إن قرارنا في هذا قرار حاسم، وقد اتحدت البلاد تحت حكمي كما لم تتحد من قبل قط.

«وحتى وقتها لا تكون عمليات حربية فإن مئة أو مئة وخمسين جندياً إسبانياً يموتون كل أسبوع في الجبهة في حين أن الجيش الإسباني لا يلحق بنا إلا خسارة ضئيلة جداً، ما عدا ما يتسبب فيه قصف طيرانه لمدائنا من قتل السكان نساء، وأطفالاً، وشيوخاً.

الفصل التاسع

قائد الثورة يتحدث إلى العالم

وفي 1924 أتيحت أول فرصة لقائد الثورة الأمير محمد بن عبد الكريم ليتحدث إلى العالم عن حقيقة حركة الجهاد وأهدافها أملاً في أن يدرك الرأي العام الدولي أكثر دوافع الحرب العدوانية لاسبانية في المغرب وما تجره عليه من خراب ودمار، وعلى نفسها كذلك من خسران ووبال.

وهكذا تمكن مراسل أكبر صحيفة انكليزية (دايلي ميل) اللندنية من زيارة محمد بن عبد الكريم، والتحدث معه في قضايا الحرب والسلم بالمغرب، ونقلت صحيفة (هيرالد) الأميركية مراسلات زميلتها الانكليزية بتاريخ 24 و 25 أبريل 1924.

ومما صرح به ابن عبد الكريم للمراسل الصحفي (وارد برايس) حسب بعض المصادر قوله:

«إن عرب الريف الذين اختاروني أميراً عليهم يدافعون عن استقلال أراضيهم ضد السيطرة الأجنبية التي تحاول فرض نفسها عليهم، ولن يرضوا بها أبداً.

«ولعل بعض الدول الكبيرة غير مستاءة من مشاهدة إسبانيا وقد أضعفتها حربها في الريف بكيفية مزمنة».

وقد حمل ابن عبد الكريم الصحفي الانجليزي رسالة إلى رئيس الحكومة بالعربية تولى طالب عربي ترجمتها له، وهي:

«إلى وزير الخارجية المحترم في الحكومة البريطانية:

«سيادة الوزير المبجل،

«إن حكومة الريف تبذل في الوقت الحاضر كل جهودها للدفاع عن استقلالها في الحرب الدائرة بينها وبين إسبانيا، وإن هذه الدولة لتمزق في هذه الحملة حقوق الإنسان.

«إني أتوجه إليك باسم الإنسانية لكي تدعو إسبانيا ليوضع حد لهذه الحرب الوحشية التي أودت بكثير من الأرواح حتى الآن، وأقدم إليك أي الأمير المعترف به لدولة الريف، وإني مستعد لإرسال السفراء لمناقشة شروط الصلح بشرط ألا تسيء إلى شرف بلادي أو تؤثر في استقلالها، وإلا فإن السيف هو الذي سيبت في هذه القضية، وسوف يكون النصر بيد الله يمنحه لمن يشاء».

محمد بن عبد الكريم

كان الله في عونك

وما أكدته ابن عبد الكريم للصحفي الانجليزي أنه يملك رهن إشارة الجهاد 120000 مقاتل غير أن الإسبان ادعوا أنه لا يملك أكثر من 40000 مسلح، وكانوا يباهون بأن لديهم 60000 جندي

«ويظهر لي أن القادة الإسبانيين يفكرون على أساس مصالحهم الشخصية أكثر مما يفكرون في المصالح القومية...»

«إن مصالح العالم بأسره تخدم بتسوية سلمية، ومن الكذب الادعاء - كما يقول الإسبان - بأن الشعب الريفى يعادى جميع الأجانب، بحيث إذا ضمن استقلالنا فإننا سنفتح بلادنا للتعاون الأجنبى، إن لدينا معادن من النحاس والرصاص، والفحم، تنتظر استثمارها بواسطة الرأسمال الأجنبى.

«فسوف نرحب بالمساعدة الأوروبية في تطوير بلادنا، وتجديد الحياة فيها، وستحسن أحوال الناس إذا ما استتب السلم، ولهذا أرسلت سنة 1922 إلى لندرة مبعوثين أحدهما بوجييار لأحث وزارة الخارجية الانكليزية على إقناع الحكومة الإسبانية بمحاسن ومنافع التسوية، وقد مكث المبعوثان هناك خمسة أشهر دون أن يستقبلهما اللورد كورزون (وزير خارجية حكومة المحافظين)، وهكذا لم تؤد مهمتهما إلى أية نتيجة، وإن لديكم اليوم حكومة جديدة (الحكومة العمالية الأولى برئاسة رامس ماكدونالد)، ويشغل رئيسها منصب وزارة الخارجية في بلاد ذات مثل عليا سلمية، وسأطلب منك أن تحمل باسمي نفس الاقتراح إليها، فلتعطنا أوروبا الاستقلال الذي هو حقنا الموروث بلا منازع، وسوف يحل السلام، وتتوفر الفرصة لجميع الناس في الريف، لكنه إذا ثابرت إسبانيا على محاولاتها العقيمة في إخضاعنا فإن حربها ستستمر بلا انقطاع».

وختم ابن عبد الكريم حديثه بقوله :

فوجدوا الخائن عبد المالك الجزائري، حفيد الأمير عبد القادر، وعينوه قائداً على قوة من الجنود، ووجهوه إلى مليلية، ودعا ابن عبد الكريم إلى اجتماع بغية التخلص منه بخديعة فطن لها، فلبى الدعوة، وحضر الاجتماع محاطاً بجماعة مسلحة، فعرض عليه ابن عبد الكريم قيادة في الريف دون أن يرد عليه، ثم خرج صامتاً، وقد اختفى فيما بعد، إما لأنه قتل في المعركة ضد الريفيين، وإما لأنه اغتيل من طرف الإسبانيين، وكان يعتبره ابن عبد الكريم خائناً، ويتهمة بتحريض الإسبان على سجنه في مليلية سنة 1925.

وحاول كذلك الإسبان أن يغتالوا ابن عبد الكريم بواسطة أحد المرتزقة بعدما سلحوه ببندقية، وقنبلة يدوية، وكمية من السم، ولكن الرجل أطلع ابن عبد الكريم على المؤامرة، فجرب السم في كلب، ولما مات كافأ ابن عبد الكريم الرجل بما يستحق وهكذا فشلت كل وسائل الإسبان في القضاء على خصمهم بالقتال أو بالاغتيال.

وفي أوائل 1925 تحدث الأمير ابن عبد الكريم في مقر قيادته بآيت قمره مع مراسلين صحفيين أميركيين أحدهما يمثل (شيكاكوترييون) والثاني ينوب عن (الدائلي نيوز) فأجاب على أسئلتها:

«إن الحركة الإسلامية لا وجود لها، والحديث عن الحركة الإسلامية الشاملة ليس له غير هدف واحد هو إخافة الفرنسيين

وأثناء مرور الصحفي بمدريد اجتمع بالجنرال برعمودي ريفيرا،
ووزير الخارجية، وتحادث معها في رسالة ابن عبد الكريم لرئيس
الحكومة البريطانية، فكان جواب الديكتاتور الإسباني: «إن السلام
كما يقترحه ابن عبد الكريم مستحيل، إن هذه الرسالة تدعو
الحكومة البريطانية إلى دفع إسبانيا إلى إنهاء النزاع المسلح في
الريف، لكن هذا يتوقف على ابن عبد الكريم، لأنه هو الذي
يهاجم باستمرار، ونحن نقاتل لرد الهجوم فقط، إننا لا نطلب أكثر
من إقامة (حمايتنا) في الريف بالوسائل السلمية». وهذا منطق
المستعمر المعتدي على أرض غيره، وعلى شعب رافض لسيطرته،
وواقف موقف الدفاع المشروع، والتحرير ولوبحد السيف،
وصرح الطاغية الإسباني كذلك بقوله: «إن الاستقلال، كما يطالب
به ابن عبد الكريم، لا يملك أي وجود قانوني. لقد كان الريفيون
دائماً رعايا اسميين لسلطان المغرب الذي أناب على سلطته إسبانيا،
فوضعهم القانوني إذن هو وضع (العصاة) وليس وضع أمة
مستقلة، إن إسبانيا تنجز في المغرب مهمة دولية، إذ اعترفت
الدول الكبرى بحمايتها على شمال المغرب، وإذا كان
ابن عبد الكريم يطلب الاستقلال فيستطيع أن يحصل عليه تحت
حمايتنا، فإذا استسلم فإن إسبانيا ستكون مستعدة لأن تسند إليه
قدراً كبيراً من السلطة المحلية كما فعلنا مع الريسولي».

وهكذا اتضح أكثر أن الموقفين متعارضان تماماً، وأنه لا مفر
من الحرب حتى يكون القول الفصل في ميدانها للسيف.
وللخلاص من ابن عبد الكريم بحث الإسبان عن عملاء،

مدى قسوته، وعدم صلاحيته لشعبنا، وأنه لا يحمل إليه سوى الخراب.

وعن الشكل النهائي للحكومة أجاب ابن عبد الكريم: «أنه ينوي الاستمرار في الحكم وفق مبادئ الملكية المطلقة التي ظهر أنها أفضل نظام يتناسب مع معتقدات الشعب الريفي، ويمكن تطويرها مع الزمان إلى أسس أكثر حرية».

وعن الموقف من الفرنسيين، أجاب:

«إن موقفنا من فرنسا موقف ودي إلى درجة قصوى، فنحن لم نرغب قط سوى في علاقات سلمية معها، وليس في نيتنا مهاجمة منطقة نفوذها بالمغرب، وأن الحرب مع فرنسا - في نظري - أبعد من أن أتصورها ما لم تهاجنا فرنسا نفسها، فإذا ما كنا ضحية هجوم، فسوف ندافع عن أنفسنا، لكن هذه الإمكانية بعيدة جداً بحيث لا يمكن التفكير فيها، فما لا ريب فيه أنه ليس من مصلحة فرنسا أن تهاجنا ونحن نَمُدُّ إلى فرنسا يداً ودية، ونأمل بإخلاص أن تقبل فرنسا صداقتنا، ومهما يكن من أمر، فلا بد من إنجاز بعض الشروط الأولية قبل أن تدخل هذه الصداقة في مرحلة الممارسة الفعلية، فمصاعب الحدود، لا يمكن تجنبها في الظروف الراهنة، ولكنني أؤكد أننا لم نهاجم مطلقاً أية دورية فرنسية أو قبيلة صديقة، وأن أي جندي نظامي ريفي لم يجتز الخطوط الفرنسية التي تحددها المواقع الفرنسية الأمامية، وأنه يمكن اجتناب مناوشات الحدود بطريقة وحيدة هي تخطيطها بشكل نظامي، وهي حدود قومية

والانكليز لإرغامهم على معارضة حكومة الريف في صراعها مع إسبانيا، وليس ثمة أية صلة بيننا وبين أية حركة أخرى في المغرب أو الجزائر أو تونس أو مصر، وليس لدينا أية نية في خلق مثل هذه الصلات، إن نضالنا قومي محض، وعدونا الوحيد هو إسبانيا، وهذا العداء ناتج عن إرادة الإسبانين أنفسهم، وليس مسبباً عنا إطلاقاً، وليس ثمة ما يناسب أكثر من السلم مع الإسبانين والعالم أجمع».

وعن شروط الصلح أجاب: «إننا نطلب أولاً وقبل كل شيء السلام وحرية العمل، ونتمنى لإسبانيا قبل أمة أخرى أن يعم السلام بيننا وبينها، وأن تتصرف معنا - إذا أمكن - تصرف الصديق والحليف، ولكن لنا بعض المطالب اللازمة كشروط أولها وأهمها وجوب انسحاب جميع الجنود الإسبانين في المغرب من المحيط الأطلسي إلى التخوم الشرقية، وإلى مليلية، وسبتة، أو إسبانيا رأساً، ولن يرضينا شيء أقل من استسلام (الحماية) الإسبانية المطلق، ونحن نطلب ذلك باسم الأمة المغربية بأسرها، لأن (الحماية) الإسبانية حملت إلينا، ولن يعود في ميسورها أن تحمل إلى شعبنا غير الشقاء والخراب، و (الحماية) لا تحمي شيئاً حتى الجنود الإسبانين أنفسهم، فإذا ما تنازلت إسبانيا عن مناداتها بهذه (الحماية) الزائفة غير الشرعية فإننا على استعداد للدخول في مفاوضات السلام وفق الأسس التالية، وهي: الاعتراف باستقلال الريف وسيادته القومية من مليلية إلى سبتة وطنجة، ولن نقبل أبداً (الحماية) على جزء آخر من المغرب، فلقد أثبت الحكم الإسباني

سبيل استقلاله، وهو على أتم استعداد لبذل كل تضحية ممكنة، لأن كل من سار على الدرب وصل إلى الهدف الذي رسمه لنفسه وسعى إليه. أيها الشعب الأميركي، إنني أنتهز الفرصة التي أتاحتها زيارة أحد صحفيكم - هذا الذي بدأ في عيني رمزاً لعظمة الروح والحرية مثلما بدأ في عيني رمزاً للمروءة والسخاء - لأبعث إليكم بتحياتي مع أخلص ودي».

وروى نفس المراسل أنه رأى في اليوم التالي حركة غير عادية، وعلى شاطئ الحسيمة نزل ابن عبد الكريم مع وزرائه بحميمهم نحو مئة مسلح من فوق خيولهم، ودخلوا خيمة بيضاء، ثم نزل من مركب يرفع علماً أبيض مفوض إسباني مع عدد من الضباط جاؤا يطلبون السلم، وعلق المراسل على هذا بقوله:

«كانت العزة الإسبانية تتمرغ في غبار سيد الريف»، وعاد ابن عبد الكريم بعد فشل المفاوضات ليجد وفداً من بني زروال يطلب العون لطرد الفرنسيين من أرضهم، فلما استمع إلى الوفد التفت إلى رجاله قائلاً: «سأرتكب حماقة، ولكن لا بد لي من ارتكابها».

وبهذا عبر عن اضطراره إلى تلبية طلب الوافدين، وإلى تحدي الفرنسيين في نفس الوقت، وهذا ما طالما حرص على تجنبه حتى لا يدخل في حرب معهم تضاف إلى حربه مع الإسبانين، ومن شأن هذا أن يحمله على فتح واجهة أخرى، ويجعله يحارب دولتين في آن واحد، وهو ما عده حماقة رأى نفسه مضطراً إلى

وعملية تخطيطها الأنهار والجبال، وفي هذه الحالة لن تكون صعوبات مع فرنسا من جديد».

ويظهر أن ابن عبد الكريم كان يُعبّر عن موقف وسط بين تيارين أحدهما متطرف يناصر الحرب، والثاني معتدل يريد السلام لضمان وحدة الريف الداخلية.

وختم بقوله: «إن مستقبل بلادنا غير محدد، وإن لنا كامل الثقة في قدرتنا الصناعية وفي مدى قابليتنا لمفاضلة أنفسنا في السلم والحرب، ونسأل العالم الخارجي باسم العدالة أن يتيح لنا هذه الفرصة، وإذا لم يعطنا العالم السلم الذي نبحث عنه في الوقت الذي أعددنا العدة له فسوف نخوض غمار القتال إلى أن ندركه بسيوفنا وبمحشيتة الله».

وتلبية لطلب المراسل وجه ابن عبد الكريم رسالة إلى الشعب الأميركي: «من الأمير ابن عبد الكريم إلى الشعب في أميركا الشمالية.

«أحييكم، أيها الشعب الغربي، باسم الشعب الريفي، هذا الشعب الذي لا يفتأ يعاني ويلات الحروب في سبيل الحرية، وإن الشعب الريفي ليأمل أن يحرز على ما أحرزتم عليه أنتم، وهو النجاح الذي حصلتم عليه بتكاتفكم وتضحياتكم التي استدعاها طموحكم في زمن كنتم فيه مثل أبناء الريف الآن في سن الشباب، إن شعبي ليستوحي مبادئكم المقدسة، ويناضل منذ سنوات، في

ارتكابها حتى لا يرد طلب بني زروال، فيخسرهم ويخسر كذلك السمعة والنفوذ في القبائل المنضوية تحت لواء الجهاد أو التي يمكن أن تنضم إلى الصف اقتداءً ببني زروال، وقد كانت الحماقة المرتكبة كرهاً لا طوعاً بداية حرب كانت نهايتها هزيمة الثورة لصالح فرنسا وإسبانيا المتحالفتين ضدها حتى النصر العسكري بالقوة، والحديد والنار.

إلا بأعجوبة، وعاد إلى تطوان وهو يعتقد أن إسبانيا في مأزق لا يطاق.

وحاصر المجاهدون تطوان بقيادة اخريرو، وكذلك حوصرت شفشاون، وكثر الجرحى حتى نقلوا إلى سبتة، وقصف الطيران الإسباني (تسع عشرة طائرة) المداشر حول تطوان، فقتل النساء والأطفال في مجزرة وحشية انتقامية لا تقدر، وزيد في قوات العدو حتى بلغت مئة ألف في الجبهة الغربية، واضطر «بريمودي ريفيرا» إلى سحب الحاميات من مراكز اللوكس إلى الشاطئ وعددها خمسة وعشرون، ونقلت بالراكب التي أغرق المجاهدون أحدها، ووزع الإسبان بالطائرة منشائر عربية تهدد وتتوعد المجاهدين بأقصى العقوبات، وكان الأمير محمد (فتحاً) والقائد اخريرو يخططان عرقلة الانسحاب الإسباني من شفشاون، وأوفد ابن عبد الكريم القائد بحوت، ففقد الجبهة وأشار بقطع الطريق على المنسحبين الذين كانوا 40000 رجل بقيادة الجنرال «إيزبورو»، وكان من القادة الجنرالات «ريكلم»، «وكيودي ليانو»، «وكاستروخيرونا»، «وسيرانو»، «وفريد يريكو بيرنجير»، «والكولونيل اوفيلو»، ووصلت القوات إلى سوق الأربعاء بين تطوان وشفشاون، وتركها المجاهدون حتى وصلت إلى شفشاون في 30 شتنبر، و 2 أكتوبر 1924، ثم خرجت القوات الإسبانية من شفشاون تحقيقاً لخطة الانسحاب الاستراتيجي في 13 نوفمبر والأعداء يظنون أنهم يتحركون في سر وكتمان، ولم يهجم المجاهدون على الإسبان داخل شفشاون احتراماً للمدينة، وأقى الأمير ابن عبد الكريم ليدخل

الفصل العاشر

فتح الجبهة الغربية بعد خيبة المساعي الدبلوماسية والدولية

لما نيس المبعوثون الريفيون من تدخل الهيئة الدولية خاصة ازدادوا يقيناً بأن حق الريف لا يمكن أن ينتصر إلا بحد السيف، فرجعوا بعد أن تكبدوا مشقة كبيرة لاختراق الحدود الفرنسية، ولما وصلوا إلى الريف وجدوا أن ابن عبد الكريم قد نظم صفوف المجاهدين أكثر مما تركوها، فارتاحوا لهذا، ولم تمض مدة قصيرة حتى تولى شقيقه محمد القيادة بنفسه، وأخذ يتجول في مختلف ربوع الريف ليختار أصلح مكان لإنزال الضربة القاضية بقوات الاستعمار، فاختار الجهة الغربية بناحية تطوان، فهجم المجاهدون على المواقع الإسبانية على طول نهر اللوكس في مايو 1924، وفي يونيو تولى فرانكو مع اللقيف الأجنبي الإشراف على الانسحاب المنظم من تلك الجهة، وقد رأى رجال حامية أحد المواقع يشربون الخل، لأنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى الماء الذي كانت قوة المجاهدين تمنعهم منه، ومرة وجد فرانكو في موقع أتى لإغائته كل شيء قد احترق بإمرة قائده: الرجال، والخيام، والأسلحة، والأعتدة عند الاضطراب إلى الاستسلام، وجاء (بريمودي ريفيرا) ليتولى شخصياً الإشراف على الانسحاب، فلم يفلت مع الجنرال سيرانو من الموت

وهكذا كانت كارثة انسحاب الإسبان من شفشاون شبيهة بكارثتهم في انوال، واعترف «بريمودي ريفيرا» قائلاً: لقد هزمنا ابن عبد الكريم، إنه يملك تفوقاً هائلاً من حيث الأرض والأنصار المتعصبون، أما جنودنا فقد سثموا الحرب وهم يخوضونها منذ سنوات، وهم لا يرون سبباً يدعوهم إلى القتال والموت من أجل هذا الشريط من الأرض العديمة القيمة، إني أنسحب إلى هذا الخط (وأشار إليه)، ولن أتمسك إلا بهذا الطرف من الأرض، وأنا شخصياً أؤيد الانسحاب الكلي من افريقيا (المغرب) وتركها لابن عبد الكريم، لقد صرفنا ملايين لا حصر لها من البسيطة في هذا المشروع، ولم نكسب فلساً واحداً منه، ولقد فقدنا عشرات الآلاف من الرجال القتلى من أجل أرض لا تساوي هذا الثمن، ثم أخرج حفنة من الرصاص أزيلت من جثث القتلى، فقال: «إنها من صنع فرنسي». وزاد قائلاً: «سجل كلماتي، فحين ينتهي ابن عبد الكريم منا سيهاجم الفرنسيين مستعملاً ذخيرتهم الخاصة ضدهم».

وبعد هذا تمردت قبائل الأنجزة بين تطوان وطنجة على الإسبان، الأمر الذي أجبرهم على إقامة خطوط لحماية الطريق والسكة الحديدية من جهة سبتة، وإلى وضع جيش من 10000 جندي لحماية مؤخرتهم.

واستولى اخريرو على مركز الريسولي الذي أخذ أسيراً إلى الريف حتى توفي، وغنم المجاهدون في مركز الريسولي 408

المدينة حافي القدمين، عاري الرأس حتى حل بالمسجد. وتوقفت القوات العدو بعد الانسحاب، فنزل المجاهدون من الهضاب، وزحفوا عليها، فتحول الانسحاب إلى هزيمة، وقتل الجنرال «سيرانو»، مع ألف من الجنود، كما جرح الجنرال «بيرانجير»، وقتل الضابط الذي خلف «سيرانو»، وكانت طريق الانسحاب مليئة بالجثث حتى إن صحفياً عد 600 جثة في ساحة لا تزيد عن مساحة مقر وزارة الحربية بمدريد، وكانت الطيور والكلاب تأكلها، وكان الفضاء مليئاً بالروائح الكريهة، ولم يصل الفارون من الجند إلى تطوان إلا في 13 ديسمبر، وكانت الخسائر من القتلى: جنرال واحد، والكولونيلات 6، والكمندارات 8، والضباط الآخرون 175، والجرحى 600 ضابط، والقتلى 17000. ونشرت (النشرة الرسمية لوزارة الحربية الإسبانية) إحصائيات غير كاملة، وهي:

- 1 - الضباط العامون - السامون وغيرهم - الذين قتلوا من يونيو إلى ديسمبر 1924 بلغ عددهم 190، يضاف إليهم المفقودون المقدرون بـ 60، والجرحى 700.
- 2 - الجنود القتلى 3800.
- 3 - الجنود الجرحى 14000.
- 4 - الجنود المساجين أو المفقودون 2500.
- 5 - مجموع الخسائر 21250.

الانكليزية نفس الدور الذي قامت به ماضياً ضد الفرنسيين لمنع فرض سيطرتهم على المغرب، فاليوطي كان يريد الاستفادة من أسطول انكلترا لا غير، ومن شأن هذا أن يفسد علاقتها مع المغاربة خاصة.

مسدسات اوتوماتيكية، و 24 رشاشاً، وكمية عظيمة من القنابل اليدوية، و 800 بندقية من طراز موزر، و 300000 رصاصة، و 500 حصان، و 300 دابة، و 20 مليوناً من البسيطة الذهبية، وكنز عظيم من المجوهرات القديمة، والأحجار الثمينة، والزراي الجميلة، ويضاف إلى غنائم الحرب 41 امرأة، و 32 من الخصيّان، و 84 عبداً أسود، و 300 مقاتلين، وعدد من الأبناء والأقارب.

بعد ذلك أصبح الأمير محمد بن عبد الكريم صاحب الأمر في جميع الأراضي المحررة شرقاً وغرباً من شمال المغرب «ريفه» و «جبالته»، وهذا ما أقض مضجع الفرنسيين الذين باتوا يحسبون ألف حساب لنصر الثورة التحريرية تحت قيادة ابن عبد الكريم الذي أصبح السيد المطاع في الشمال، وكتب ليوطي لباريس «لا يمكن أن يكون هناك شيء أسوأ لنظامنا من إقامة دولة إسلامية مستقلة حديثة على قرب من فاس، دولة تجعل من ابن عبد الكريم مركز اجتذاب لا بالنسبة للمنشقين عنا فحسب، بل بالنسبة كذلك لجميع تلك العناصر المغربية، وخاصة الشبان منهم الذين اتسعت نظرهم بسبب الأحداث الجديدة في الشرق، والذين نشأت في أذهانهم مطامح بغض الأجنبي».

ولما استشير ليوطي من لدن حكومته أشار بحركة حربية ثلاثية تشترك فيها: فرنسا، وإسبانيا، وانكلترا لا بجيشها ولكن بأسطولها البحري فقط، لأن ليوطي كان يتخوف من دخول الفرق البريطانية إلى المغرب خشية أن تمتنع بعد من مغادرته، وأن تلعب فيه السياسة

من هو الريسوني؟

«ولد مولاي أحمد الريسوني بالزينات (قبيلة بني مصور) حوالي 1870 م وهو ينتمي لعائلة من الأشراف تنسب لمولاي عبد السلام بن مشيش، ولي جبل العلم (قبيلة بني عروس) وأحد أقطاب الإسلام المشهورين.

«درس في صغره العلوم الدينية والشرعية مبدئاً ذكاء وشغفاً بالدرس مكانه من أن يحرز في ظرف وجيز على معلومات متينة. وقد حدا به حبه للعدالة إلى محاولة تطبيقها بالقوة، فخرج إلى الطرقات يقطع السبيل. وبتأثير من الوسط، والشغف بالحرب، تكون منه ذلك النمط من الرجل الذي يجمع بين قاطع الطريق، والسيد الإقطاعي في بلد تشمله الفوضى وتعمه (السيبة). وحيث تتطلب السلطة أن تكون مهابة الجانب بواسطة العنف، قبل أن تكون محترمة بموجب العدالة، وحيث تعتبر العقوبات القوية الطريقة الوحيدة ذات الأثر الفعال.

«لقد اعتبر أذاه بمثابة تهديد حقيقي للمخزن، وبواسطة الحيلة، استطاع حاكم مدينة طنجة استقدامه لمنزله، وإلقاء القبض عليه، وبعثه أسيراً إلى مدينة الصويرة حيث قضى مثقلاً بالسلاسل والأغلال مدة أربع سنوات. وعندما انتهى القرن التاسع عشر واسترجع حريته، كانت شهرته قد استحكمت.

«لم تتأثر روحه كثيراً بهذا الأسر. فقد ازداد شغفه بالحكم،

من هو الريسوني؟

إن من يطالع الكتب الأجنبية التي تحدثت عن الريسوني يخرج منها بفكرة هي أنه كان رجل فتنة وشغب، ولا ثقة فيه، ولا عهد له ولا ذمة، وأن كل ما كان يهواه هو المال، ومن أجله جعل من نفسه «قاطع الطرق»، للسطو على الناس وسلبهم ما عندهم بالقوة، وقد قاده هذا إلى اختطاف بعض الأجانب طمعاً في افتدائهم بالأموال، فكان بهذا يشيع الفوضى وعدم الأمن في البلاد، ويعرضها كذلك للمشاكل مع الدول، وبالإضافة إلى هذا كان فظاً غليظاً، ومستبداً، وجباراً، وغير هذا مما وصفه به الكتاب الأجانب.

وبما أن الريسوني لعب دوراً بارزاً في أحداث وقته خصوصاً بشمال المغرب، فهو جدير هنا بالتعريف حتى يكون أوضح حقيقة في الأذهان، وبما أن الإسبانين كانوا من أعرف الناس به فقد آثرنا أن نترك الحديث عنه لأحد المسؤولين منهم الذين خبروه فاطلعوا على جليلة أمره، وترجموا له بما أعطى عنه فكرة أقرب إلى الواقع من التي رسمها عنه بعض الكتاب الأجانب، وفيما يلي نبذة عن الريسوني معربة عن الإسبانية ولصاحبها كامل المسؤولية فيما كتبه عن هذا الرجل.

كرفط - الساحل، وبني ليت، وقائماً في نفس الوقت باشا على مدينة أصيلة التي كانت مقر إقامته، وبطبيعة الحال، فقد كان تعيينه على الكثير من هذه القبائل اسماً فقط، وذلك لقيام العديد من الثوار كحسن تاكرارت على الخصوص ضد سلطة السلطان الشرعية أو من يمثلها.



أحمد الريسوني

وترسبت أفكاره نتيجة العزلة وقد كان دائماً يقول: «في السجن يموت الكثير من الشعراء، ويولد الكثير من الساسة».

وقد أقام بعد ذلك في الزينات مسقط رأسه، يذكي في قلبه نار الانتقام من باشا مدينة طنجة الذي لم يغفر له قط خطيئته الكبرى في خيانتة واجب الضيافة عندما استدرجه إلى بيته بواسطة الخديعة، وأسره داخله، دون مرؤة ولا مراعاة لأصول الشهامة.

«لم يلبث أن أخذت أصداء بطولاته تنتشر، وكان أهم أعماله في هذه الحقبة، اختطاف الانجليزي (Harris) واليوناني ذي الجنسية الأمريكية (Perdicaris) والاسكوتلاندي (Mac Lean) مدرب (محلات) السلطان، وعندما أرغم حكومتي إنجلترا والولايات المتحدة على التدخل لافتداء المختطفين وأداء مقدار كبير من المال، تمكنت شهرته أكثر. وهذا ما جعل السلطان مولاي عبد العزيز الذي سبق أن بعث بمحلة له إلى الزينات لمحاصرته وقتاله ولم يفلح في ذلك، فبادر إلى إعطائه حكم احواز مدينة طنجة.

«مكث في هذه الوظيفة يفرض سلطته الشخصية، وعندما خرج المولى عبد الحفيظ على أخيه، انحاز الريسوني إلى جانب السلطان الثائر، وعندما اعتلى العرش، عينه - وفاء لخدماته - حاكماً عاماً للمنطقة التي تضم قبائل: انجرة - وادراس - بني حزمار - بني يسف - بني يدر - جبل حبيب - بني عروس - الغربية - سوماته - بني مصور - أهل سريف - الخلو - بني



الأمير محمد ابن عبد الكريم صحبه السيد ايشقاريطا

«كان الريسوني صاحب ذكاء يقط، وسياسياً خارقاً للعادة،
عليماً بأحوال قومه، مالكاً لجميع الصفات والخصائص التي يجب أن
تتوفر في الحاكم الناجح.

«كانت له نظرة جد واضحة حيال السياسة الدولية، وأحوال
العالم الإسلامي. ومن وجهة النظر المغربية، فقد كان يتطلع إلى
مغرب حر مستقل، مما جعله يتوصل إلى أن وضعية المغرب
تفرض عليه أن يقع تحت هذه الوصاية، وكان يفضل — كأخف
الضررين — أن تقوم بها إسبانيا؛ لأن ضعف حكوماتها كان يستبعد
أي فكرة للسيطرة الأمبريالية، التي كانت مزدهرة في فرنسا، وفي
غيرها من الدول الاستعمارية.

«وفي أعماقه، كان يحب بلاده، ويتمنى استقلالها وتحررها من
ربيقة (مخزن) هرم عاجز يقودها نحو الفوضى والانحلال وكان يقول
لبعض جلسائه:

(كذبة واحدة مني، خير من جهادكم ستين سنة)».

- 1 - تمنح إسبانيا للريف استقلاله التام.
- 2 - تدفع إسبانيا غرامة قدرها عشرون مليون بسيطة.
- 3 - تحتفظ إسبانيا بمركزين في المغرب لا غيرهما سبتة ومليلية لأنها احتلتها بعد الاستيلاء على الأندلس.
- 4 - تترك جميع الجيوش الإسبانية في غير سبتة ومليلية كل ما عندها من السلاح، والعتاد، والمؤونة، وبعد هذا يسمح لها بالانسحاب في حالة مجردة من أي سلاح.
- 5 - تجتمع تلك الجيوش بشجر النكور ببني ورياخل، ومن هناك يتم نقلها عن طريق البحر إلى إسبانيا.
- 6 - يأخذ الإسبان جميع الأسلحة العتيقة وغير الصالحة التي يقدمها لهم المجاهدون، ويعرضونها بأسلحة جديدة صالحة، الثقيلة منها والخفيفة.
- 7 - يدفع الإسبان بعض البواخر التجارية لفداء الأساري الذين كانوا في معتقلات المجاهدين بالريف.

ولما تم تحرير هذه الشروط كلها سافر الوفد الإسباني إلى مدريد لأجل التوقيع عليها، ولكن لما وصل إلى العاصمة وجد الموقف قد تغير لتدخل فرنسا وحملها إسبانيا على عدم القبول، وعلى الاستعداد للحرب على أساس التعاون بين الدولتين صاحبتَي الاحتلال بالمغرب، وهكذا تمت بينهما اتفاقات سرية لإحباط مفاوضات الصلح مع المجاهدين بالريف، ثم رجع رئيس الوفد الإسباني من مدريد حاملاً رسالة توضح أن مطالب وشروط الريف

الفصل الثاني عشر

طلب إسبانيا المفاوضة من أجل الصلح

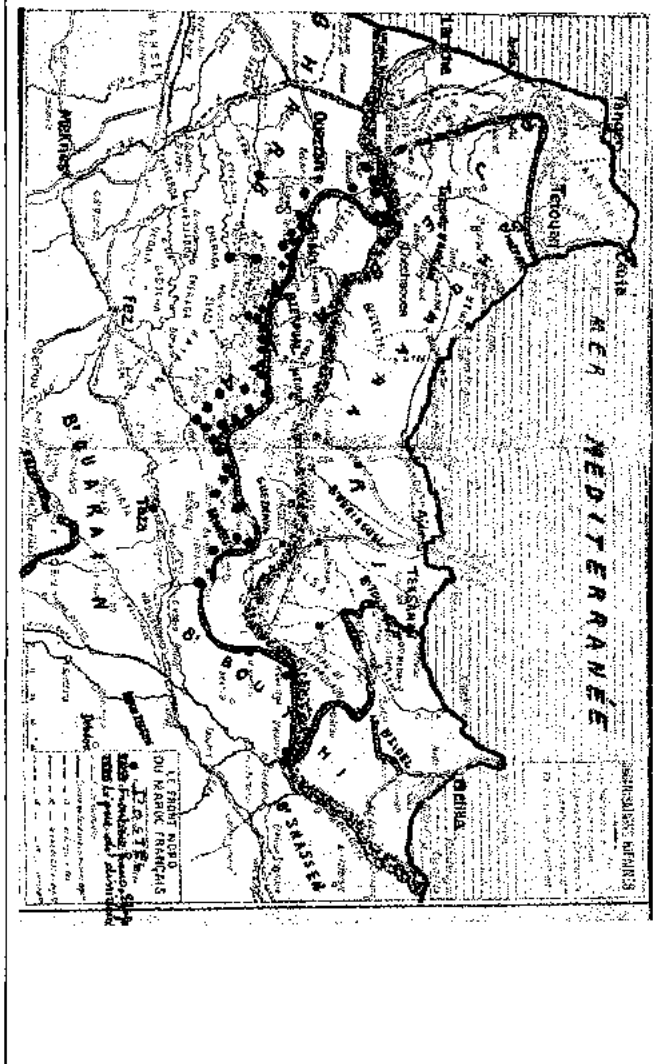
في الوقت الذي أيقن فيه الإسبان بعجز قوتهم أمام قوة المجاهدين قرر حاكم إسبانيا الجنرال (بريمودي ريفيرا) الذي كان كذلك وزير الحرية، كما كانت بيده القيادة العليا بتطوان، الانسحاب من جميع المراكز، كما قرر فتح المخابرة من أجل الصلح، ولكن الإسبان لم يستطيعوا تنفيذ خطة الانسحاب لتصدي المجاهدين لهم من كل جانب، فاضطروا إلى الاستسلام دون قيد ولا شرط، إلا ما كان من بعض المراكز الغربية من جهة تطوان التي هرب المقاتلون منها تاركين كل شيء وراءهم من سلاح، وعتاد، ومؤونة.

ولم تمض ثمانية أيام على هذه الوقائع التي انتصر فيها المجاهدون بقيادة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي حتى أوفد الجنرال (بريمودي ريفيرا) مبعوثاً لمخابرة حكومة الريف في الصلح (ايشفاريطة)، فانعقد مؤتمر بثغر بقيوة حضره محمد بصفته رئيساً لوفد الريف كما حضره عمه المجاهد البطل الأمير عبد السلام الخطابي وغيره من أعضاء الحكومة، وقواد المراكز الحربية، وبعد المداولات تم الاتفاق على ما يلي:

المراكز قرب تطوان بنحو عشرة كيلومترات فأصبحت تطوان معرضة
لتيار المجاهدين، ولكن نظراً لكثرة سكانها من المواطنين كان
المجاهدون لا يرمون بالمدافع إلا منازل الإسبان البعيدة من أحياء
المسلمين.

لا تتفق مع مصلحة إسبانيا، وقد تسلم الرسالة الأمير محمد (فتحاً)، فاستأنف عمله، ورجع إلى شفشاون ليواصل تنظيم القبائل، فلما وصل وجد الإسبان قد دفعوا مالاً وأسلحة لبعض رؤساء القبائل الجبلية الذين أصبحوا يخشون على نفوذهم، فانفقت مصلحتهم مع مصلحة الأجانب ضد حركة التحرير الوطني، ومن نتائج تلك التدخلات، والتحريضات، والإغراءات الأجنبية أن بعض القبائل تمرتد على الحركة الوطنية كما فعلت قبيلة الأخماس، ولكن الأمير محمد الذي كان قائد الجبهة الغربية استطاع سياسياً وحربياً أن يتغلب على القبائل المتمردة بإيعاز من الإسبان ومساعدتهم المادية والعسكرية، وهكذا لم تمض سبعة أيام حتى وصل القائد إلى قبيلة بني عروس فبعث بكتاب إلى من يهيم الأمر في القبيلة، وعرض الدعوة إلى الاتحاد، والانضمام إلى صفوف الجهاد والتحرير، وأوضح الكتاب كذلك أن حركة التحرير لا ترمي إلى فرض رئاسة أصحابها على أحد، وإنما هو الواجب يقضي بالدفاع عن الوطن وأهله، ولكن هذه الدعوة إلى الاتحاد لم تلق أية استجابة، ثم تكررت الدعوة كتابة بدون جدوى، بل كان الجواب عليها بإطلاق النار على المجاهدين. وأمام هذا جاء الأمر - فوراً - من القائد الأعلى إلى شقيقه باستعمال القوة، ومقابلة الحرب بمثلها، وطالت المعركة يرمين تمكن المجاهدون فيها بقيادته من الاستيلاء على قبيلة بني عروس، والوصول إلى تازروت، مقرر رئيس التمرد فيها.

وبعد هذا تم تنظيم جميع القبائل الجبلية، وأسس المجاهدون



مبادئ العمليات الحربية التي كانت تتعرض للعيران
خريطة المغرب

وكان هذا في أوائل سنة 1925، فتم هذا الاستيلاء بعد ما فرّ من كانوا فيها إلى فاس، ثم شنت القوات الفرنسية الهجوم.

وفي أيام قلائل تمكن المجاهدون من اختراق جميع المراكز الفرنسية، ومن الاستيلاء على القبائل التي كان يقدر عددها بـ 25 قبيلة تمتد من بني مستارة بناحية وزان إلى قرب وجدة، ونتيجة لهذا الغزو الوطني استسلمت جميع المراكز الفرنسية التي كانت بتلك القبائل، ويقدر عدد هذه المراكز بخمسمائة مركز غنم المجاهدون كل ما فيها من سلاح، وعتاد، ومؤونة، كما اعتقلوا ألوف الأسرى، ومما أخذه المجاهدون خمسمائة مدفع، وأكثر من ألفي رشاش، وعشرون ألف بندقية، ومئات الألوف من الذخيرة والقنابل، وكثير من الأدوات التلفونية، والمواد الطبية وغيرها مما كانت تستعمله أو تدخره القيادة الفرنسية لصالح جيوشها، وكانت هيئة أركان الحرب من المجاهدين تميل إذاك إلى الرأي القائل بغزو المدن المغربية كفاس، وتازة، ووزان.

وفعلاً، وصل ألف من المجاهدين يوم 27 أبريل 1925 إلى ناحية فاس حيث احتلوا جسراً يبعد عنها بنحو 30 كيلومتراً، غير أن القائد الأعلى الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي كان يرى أن لا مصلحة في مواصلة التقدم بالجيوش، فأصدر الأمر إلى أخيه بأن يتوقف عن الهجوم، وينظم خطاً دفاعياً من ناحية وزان إلى ناحية وجدة، وهكذا أخذ ينظم القبائل والمراكز فيها، ويوجه الوفرة من الأسلحة والذخائر إلى الريف لتوزع على المراكز فيها بشواطئ

الفصل الثالث عشر

الجهة الجنوبية: الحرب مع فرنسا

رجع الأمير محمد (فتحاً) إلى شرق الريف بعد ما ترك القبائل كلها منظمة تحت قيادة أحمد بودرة، ولم يكد يصل إلى هناك حتى كانت الأحوال قد تطورت على الحدود الفرنسية، ذلك أن الفرنسيين الذين اشتد خوفهم من انتصارات المجاهدين على الأسبان لجأوا إلى إثارة بعض الأعيان ومشايخ الطرق في إحدى القبائل، وهي بني زروال.

ورغبة في تلافي الحرب مع الجانب الفرنسي - بالإضافة إلى الحرب مع الأسبان - جرت عدة محاولات استهدفت تطمين السلطات الفرنسية، ووضع حد لتعكير جو العلاقات بينها وبين حكومة الريف، ومن أجل ذلك وجهت عدة كتب مع مبعوث إلى فاس، كما وجهت كتب أخرى إلى أولئك الأعيان والمشايخ حتى يكفوا عن التواطؤ مع الفرنسيين ضد المجاهدين، ولكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل، وإذاك توجه الأمير محمد على رأس رجاله لناحية بني زروال، فلما وصل إليها بدأ بفتح المخابرة مع السلطة الفرنسية التي أجابت بإطلاق النار، فما كان من القائد إلا أن ردّ عليها بالمثل، كما أمر جيوشه بأن تستولي على زاوية بني زروال،

خالد، وكانت مؤلفة من 800 غمارى من بني رزين، وبني خالد، ومتيوه تحت إمرة قائد بني رزين اليزيد بن صالح.

«ودخلت فرقة أخرى مؤلفة من 700 غمارى من بني سلمان، وبني زجل تحت رئاسة قائد بني سلمان محمد محراش من وجهة خط عولاي في الشمال.

«وهجمت (حركة) أخرى مؤلفة من 1500 رجل من بني أحمد، وغزوة، وبني خالد، والأخاس من جهة الشمال الغربي على خط أوضور، في اتجاه زاوية أمجوط المقر الديني الرئيسي للطريقة الدرقاوية ببني زروال، تحت قيادة محمد المصلوحي من بني أحمد.

«وأخيراً، فإن القائد المستاري من بني مستارة، هاجم القبيلة من جهة الغرب بفرقة من قبيلته في اتجاه زاوية أمجوط كذلك.

«وفي ظرف ثلاثة أيام، احتلت قبيلة بني زروال جميعاً، بحيث وصلت القوات الريفية إلى مواجهة المراكز الفرنسية، ولم يحاول أحد المقاومة غير الدرقاوي وجماعته داخل الزاوية، ولكن، بعد صراع قصير، أخذت زاوية أمجوط يوم 16 أبريل وأحرقت.

«أما الدرقاوي فقد لجأ إلى فاس، وقد أدت قبيلة بني زروال كغرامة نصف مليون بسيطة، ثم جردت من السلاح.

«إن هذه الجهود جميعاً، لم تستطع تفادي وقوع مركز البيان في حوزة المجاهدين أخيراً يوم 7 يونيو وقد كان تحت قيادة السرجان بيرني.

البحر الأبيض المتوسط، وبمجرد ما تمت التنظيمات رجع الأمير محمد إلى مقره بالريف في انتظار ما يصدر من فرنسا.

«في شهر مارس سنة 1925، وبعد أن اطلعت القيادة الفرنسية على الأعمال السياسية التي يقوم بها وكلاء ابن عبد الكريم في بني زروال، حاولت إبطالها لعرقلة ارتداد هذه القبيلة التي يعد تأييدها وطاعتها لعبد الرحمن الدرقاوي بمثابة ستار يغطي خطط مراكز ورغة، وبهذا القصد بعث إلى أجدير عبد العزيز الحلو من طرف الكومندان (شاستاني) من إدارة الشؤون الأهلية بفاس.

«وخلال هذه الفترة فإن ابن عبد الكريم، كان يهيء لهجومه على بني زروال، وفي يوم 12 أبريل سنة 1925، وبدون سابق إعلام، صب جام غضبه بصفة نهائية على الفرنسيين، حين قام باكتساح القبيلة فجأة من خمس نقط.

«ودخلت (حركة) قوية مكونة من 3.000 رجل إلى بني زروال من الناحية الشرقية، وكانت مؤلفة من الجيش النظامي بقيادة: شعيب بن الفلاح، ومحمد بن عمرو، ومن جنود الطوارىء للريف الأوسط وصنهاجة تحت قيادة محمد ولد عبد الكريم، ومعه القواد: أحمد بودرة (وزير الحرية)، والفقيه بولحية (وزير الداخلية)، وعمر وعلوش (كبير المحلة)، والهادي بن عزوز (رئيس الجيوش النظامية الريفية)، ومحمد الخطمي.

«وهاجمت (حركة) أخرى من الشمال الشرقي آتية من بني

«وخلال شهري يونيو ويوليو، فإن ضغط الريفيين يستمر قوياً بحيث إن الفصائل الفرنسية اقتصرت، في سبيل الاحتفاظ بمراكزها، على الدفاع، ومضاعفة الجهود من أجل تموين وتدعيم المراكز التي كانت لا تزال تقاوم.

«وفي ناحية وزان، التحقت قبيلة بني مزكّدة بالثورات، ولم تستطع فرق الكولونيلين «دوفرير» و«نييجر» الضعيفة إنقاذ وزان، إلا بمجهودات كبيرة، ولكنها لم تستطع إعاقة العدو من أن يطوف حول المدينة من الشمال والجنوب، مسرعاً نحو سهول الغرب الغنية، ومغيراً على بعض الاستثمارات الفلاحية، إلى أن وصل جبل صرصر على بعد 5 كيلومترات من القصر الكبير، وكيلومترين فقط من مركز الديوانة الفرنسية بعرباوة على الطريق الواصلة ما بين الرباط وطنجة.

«وفي الوسط، اضطر الكولونيل (نوكيس) من مركزه بأربعاء تيسة، إلى أن يقاتل ليرفع الحصار عن عين عيشة يوم 18 يوليو، وإلى أن يقوم يوم 20 منه بتموين مركز عين معطوف، وتاونات، وإلى أن يجلو عن مركز دياردار يوم 26 منه :

«وفي الشرق، فإن خط المقاومة الفرنسية يتراجع إلى أن يصل قرب الطريق الواصلة ما بين فاس وتازة، ماعداً أعالي مسون حيث استمر مركز (الكيفان) يقاوم بفضل إخلاص قبيلة أجزناية تحت رئاسة القائد المذبوح.

«لقد خلفت ردة قبيلتي البرانس وتسول في ناحية تازة وضعية جد صعبة بحيث استطاع رجال الريف أن يصلوا، خلال شهر

«أما فرقة كامباي فقد بقيت شمال تازة تذوذ عن مرتفع (الكيفان) الذي كانت تتركز فيه قوات الريف في هذا القطاع، ابتداء من يوم 19 إلى 21 يونيو، تذهب لتعزيز كتية فريد أنبر في أعالي ورغة، بحيث لم يبق في جبهة تازة إلا فصيلة صغيرة تحت قيادة ليوطنان كولونيل (جيرو) الذي استطاع بمجهود عجيب تفادي سقوط (الكيفان)، إلا أن ابن عبد الكريم ضاعف من مجهوده من أجل الوصول إلى فاس وتازة، ففي أواسط ورغة حقق، كما سبق ذكره، الاستيلاء على (الببيان)، وبمنعه المرور من النهر ما بين فاس البالي وقلعة سلاس اكتسح قبيلة فشتالة التي التحقت بصفوف الثورة، ووصل إلى أمركو على بعد 15 كيلومتراً جنوب ورغة، و 40 كيلومتراً من فاس، قاطعاً بذلك الطريق ما بين فاس ووزان، ولم تتحمل هذا الهجوم غير نقاط تروال، وتفرانت، وفاس البالي، وقلعة سلاس، وعين عيشة التي بقيت تكون نقط ارتكاز للدفاع الفرنسي.

«وخلال ذلك فإن (حركة) من رجال الريف بقيادة أحمد جدى تهاجم (الكيفان)، ويدخل القائد بوحوت معزراً بـ 400 رجل من جنود الريف تحت رئاسة القائدين: بوكلد، وحد وموح أمزيان، قبيلة البرانس، ويهزم (حركة) الموالين للفرنسيين من هذه القبيلة بزعامة الخليفة الرگوكو، فتلتحق القبيلة كلها بصفوف الثورة، تاركة المراكز الفرنسية معزولة، وبعد أن يحارب بوحوت فصيلة (كامبادي) التي رجعت إلى تازة أمام الخطر المهدد يدخل إلى قبيلة تسول التي تنضاف هي بدورها إلى صفوف الثورة.

فاس - السلطات تحيي النشأ ابن البغدادي، ليلة ذهابه إلى الجبهة



AIN-RICHA — La Côte en avant. Poste d'observation.



قبيلة عين عجة - على الراقية

الآن باسم الاستقلال، أن فرنسا واسبانيا مستعدتان لأن تترك للرفيين أمر إدارة أنفسهم، واستثمار ثرواتهم الطبيعية كما يطيب لهم تحت سلطة زعيم يختارونه بأنفسهم».

وتعهد (كانينغ) بأن يوضح كل هذا، كما يفهمه الفرنسيون والاسبان، لقادة الريف الذين سيحاول إقناعهم بأنه ليس وراء ذلك أي خداع دبلوماسي، وسأل (كانينغ): هل يرضي الحكومة الفرنسية اعتراف ابن عبد الكريم بالسلطة الروحية دون الزمنية لسلطان المغرب، فرد المقيم العام: نعم سيكون هذا كافياً، وأضاف أنه سيأمر فوراً بالهدنة بعد رجوع (كانينغ) من الريف بموافقة ابن عبد الكريم، وكان (كانينغ) يعتبر أن الشروط معقولة وشريفة، وواضحة، ولما حل بباركيس اجتمع بالأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي أطلعه على أن أخاه فوض إليه الأمر لمناقشة كل ما هو ضروري لتحقيق الهدنة، وأكد له أنه يتمتع بثقة الريف نظراً لما بذله من أجلهم.

وأوضح (كانينغ) مهمته التي تنحصر في عرض الحكم الذاتي كأشبه ما يكون بالاستقلال دون الاستقلال التام كما يفهمه قادة الريف، ومع ما يحتوي عليه «الحكم الذاتي» من غموض في مدلوله فإن (كانينغ) كان مطمئناً إلى نوايا الحكومة الفرنسية، وإن لم يستبعد أن يكون في التطبيق بعض الأفات والصعوبات، وبما أن الفرنسيين في باريس والرباط قبلوا أن يبقى لقب الأمير لابن عبد الكريم فقد رغب (كانينغ) من قيادة الريف قبول العرض الفرنسي الاسباني،

القبائل أمثال الكلاوي والعيادي، وعسكرت بوادي فاس، وتوجهت بعد برئاسة محمد بن البغدادي، باشا فاس، إلى خطوط القتال لإنقاذ الموقف العسكري الفرنسي، وإمداد الجيش النظامي الذي تقهقر على طول الجبهة، وتحركت المحلة من فاس في يوليو، وقد تمكنت من تطهير جنوب ورغة من الريفين مستولية في يوم 9 غشت على جبل أمركو.

«أما من الشرق، فإن الجنرال (بواشو) آتياً من الجزائر على رأس تعزيزات مهمة مؤلفة من الهيئة 19 من جيش المشاة يشرع في القيام بعملية هجوم من الطراز الأعلى لاحتلال قبيلتي تسول والبرانس.

«وفي نهاية شهر يوليو، فإن ابن عبد الكريم، علماً منه بمقدار التعزيزات الفرنسية القادمة إلى المغرب، وإطلاعاً منه على المحادثات التي شرع فيها بمدريد للوصول إلى اتفاق حول التعاون ما بين فرنسا وإسبانيا، رأى أن موقفه أصبح صعباً، وأخذ يشعر بالقلق، فعقد اجتماعاً لمجلس التاج في أجدير، حضره عمه عبد السلام وأخوه محمد، وجميع وزراء (المخزن)، وبعض الوجهاء، وبعض المستشارين من الأجانب الذين كانوا يحيطون به، ومن بين أنصار البدء في المفاوضات من أجل الوصول إلى سلم مريح، وأنصار مواصلة الحرب إلى النهاية مهما كلفت من ثمن، تغلب أنصار الرأي الثاني، فلم يجد ابن عبد الكريم بداً من خوض هذه المغامرة بعين مغمضة، مغامرة حرب دولتين أوروبيتين في نفس الوقت، وعلى ثلاث جبهات.

6 — أن رئيس دولة الريف سيحصل على لقب أمير.

7 — تكون تطوان عاصمة هذه الدولة.

8 — تتكون المنطقة (الاسبانية) من مليلية، وسبتة، والعرائش، مع مناطق تتراوح بين 20 و 25 كيلو متراً عمقاً، وتقترح حكومة الريف أن تشكل الانجرا شطراً من المنطقة الدولية.

ولما توجه (كانينغ) لمقر قيادة ابن عبد الكريم لأخذ موافقته اطلع على ما ثبت استعمال الاسبان للغازات السامة، وأوضح له قائد الريف أنه متفق مع أخيه فيما ورد في المذكرة، ثم اجتمع بالأمير محمد الخطابي الذي سلمه خطاباً ممضي من الأمير محمد بن عبد الكريم ليحمله إلى باريس، وهو:

«بسم الله الرحمن الرحيم

«له الحمد والشكر

«إني أعلم الحكومتين الفرنسية والاسبانية بهذه الرسالة بأننا نخول البريطاني السيد (كوردون كانينغ) «أن يستلم، باسم حكومة الريف، شروط الصلح التي عرضتها فرنسا واسبانيا في شهر يوليو 1925، هذه «الشروط التي يمكن أن تعمل أساسياً في مفاوضات الصلح وذلك كما نطلع على هذه الشروط، وندرسها، ونقرر ما إذا كنا نستطيع قبولها أو رفضها، والسلام.

الإمضاء:

محمد بن عبد الكريم الخطابي

في 16 جمادي 1344

الفصل الرابع عشر

مؤتمر وجدة ومفاوضات السلام

وفي شتاء 1925 وربيع 1926 تولى ضابط سام انكليزي سابقاً كان رئيس لجنة الريف المؤسسة بلندرة في يوليو 1925 بالاشتراك مع لجنة أميركية برئاسة هربرت مايون الوساطة بين المتحاربين من أجل السلام، ويدعى ذلك الضابط (كوردون كانينغ) جاء إلى الريف في 1924 ممثلاً لجمعية الهلال الأحمر للمساعدة الطبية، فتمتنت أواصر الصداقة بينه وبين أهل الريف وقادتهم.

وبعد ما أعلن رئيس الحكومة الفرنسية (بانلوفي) في 3 في بيان رسمي أنه يعرض على الريف نظام حكم ذاتي متحرر بقدر الإمكان اتصل به (كانينغ) فأكد له الرئيس أن الحكم الذاتي الذي تفكر فيه الحكومتان الفرنسية والاسبانية يشبه الاستقلال مع قيود قليلة، كما أكد له (أريستيد بريان)، وزير الخارجية، نفس الشيء كشرط فرنسية اسبانية للصالح، وكلف (كانينغ) بإبلاغ هذا إلى الأمير ابن عبد الكريم، وفي الرباط اتصل بالمقيم العام الجديد (ستيغ) الذي أوضح له المقصود من الحكم الذاتي بقوله: «إذا ما فهم ابن عبد الكريم معنى هذه العبارة الحقيقي فيسكتشف أنه ستكون في حوزته سائر السلطات لإدارة بلاده الخاصة، وهي التي يطالب بها

بعدها مرة أخرى، وأضاف أنه لم يتلق شروط الصلح حتى يرفضها، كما قيل، ولما سئل عن الشروط التي يرى أن يكون الصلح على أساسها أجاب:

«إن الشيء الوحيد الذي لا يمكن أن نتنازل عنه أبداً هو حقنا في الاهتمام بأنفسنا، وإني لا أعني بالمظهر الشكلي للأمر، وأسمي ذلك حكماً ذاتياً أو استقلالاً. وأما علاقتنا بالأمم الأخرى فإننا على استعداد لأن نعمل ما يقال لنا، وكذلك لن أكون متعصباً في مسألة الحدود».

وسئل: «هل تصر على تطوان وأجدير؟» فقال:

«على أجدير، نعم، فلماذا يجب أن تبقى اسبانيا بعد الصلح في مكان عديم النفع، وفي جوف أرضنا؟ لكن لن أصر على تطوان إذا كان السلام يتوقف على هذه النقطة، وفي رأيي أن من واجب جميع المغاربة أن يطردوا فرنسا واسبانيا من المغرب كله، وأن يخلقوا منه امبراطورية شريفة، لكنه لما كان هذا الأمر مستحيلاً، فيما يظهر، أو يتطلب وقتاً طويلاً، فإننا على استعداد للتخلي عن هذا الواجب بحيث نتمكن، نحن أهل الريف، من العمل في سلام، ونجعل من بلدنا أمة متحضرة، إننا شعب صغير تحاربه أمتان كبيرتان، ومهما كانت قوتها فلن تستطيعا حكم أحد منا، ولن نستسلم أبداً، ولن يكون أعداؤنا في أمان هنا حتى يعطونا صلحاً معقولاً أو يقتلوا إلى آخر رجل، إننا راغبون بقوة في السلم، فإذا هم أرادوا السلم فنحن متهيئون، وإذا هم أرادوا القتال فنحن متهيئون كذلك».

وطال النقاش بين المبعوث والأمير محمد، وانتهى بتحرير مذكرة تعرض وجهة النظر الريفية، وهي:

1 - توافق حكومة الريف على الحكم الذاتي، وتتخلى عن المطالبة بالاستقلال التام مع ضمان امتيازات للأمة الريفية تحت الحكم الذاتي.

2 - توافق حكومة الريف على الاعتراف بالسيادة الروحية لسلطان المغرب، ولا يحق لأي من الحكومتين الفرنسية والاسبانية أن تستعمل هذا الاعتراف للقيام بدعاية مضادة بين قبائل الريف عن طريق مشايخ الطرق والزوايا.

3 - أن حكومة الريف على استعداد للاعتراف بمبدأ الباب المفتوح في التجارة، ويقبول التعريفات الجمركية الحالية كما هي مقررة في المغرب، مع استثناء أي منتج ريفي خاص إذا ما أجحفت به هذه التعريفات.

4 - ستطالب حكومة الريف بالحق في إنشاء قوة للشرطة تحت قاداتها الخاصين، وستراعي في هذه القوة نفس النسبة التي للقوات الفرنسية في منطقة الحماية الفرنسية، وسيباع خارج البلاد أو سيحطم السلاح الزائد على ما هو لازم لتسليح تلك القوة الشرطة.

5 - توافق حكومة الريف على عدم الدخول في أية معاهدات مع الدول الأجنبية، وعلى أن تمثل فرنسا واسبانيا مصالح الريف في الشؤون الدولية.

بصورة علنية»، ثم انسحب الريفيون إلى تاوريرت، وعادوا لوجدة في 26 أبريل برفض ابن عبد الكريم لبحث المطالب التي ألغيت لتبقى المفاوضات مستمرة، وسرعان ما أدى المؤتمر إلى مأزق حول تعريف الحكم الذاتي، وأريد من الريف، باعتباره جزءاً من المغرب، أن يعترف بالمعاهدة الفرنسية الاسبانية لسنة 1904 التي قسمت البلاد إلى مناطق نفوذ، وهذا مारفضه مبعوثو الريف، فعادوا إلى تاركيست حيث أعلن ابن عبد الكريم رفض الشروط المعروضة في مؤتمر وجدة الذي انتهى في 6 مايو، وكانت الحرب من طرف الريف ضد الاسبانيين بصورة أشد وأقوى، وكان ابن عبد الكريم يعرف المصير، لكنه صمم هو ورجاله على أن يدافعوا عن كل شبر من أرضهم مهما كلف هذا من تضحية ومهما كانت العواقب.

ولما حل (كانينغ) بباريس في 30 ديسمبر توصل برسالة المقيم العام (ستيف) يهنئه فيها بنجاح مهمته، غير أنه لما كان في المغرب طراً تغيير على الوضع السياسي في فرنسا، فقد حل (بريان) محل (بانلوفي) في رئاسة الحكومة، وتقوى التيار المناصر للحرب الذي عبرت عنه احتجاجات الضباط الحريصين على القتال وإخضاع ابن عبد الكريم، ولهذا امتنع (بريان) من مقابلة (كانينغ)، وفي خطاب بمجلس النواب اتهمه بالفضول، والتطفل، والمغامرة كأجنبي، والعمالة لصالح مصلحة أنكلترا، ولكي تستر وتغطي على تقلبها الطارئ، اتهمت الحكومة الفرنسية (كانينغ) بأنه طالب بمصالح ومنافع شخصية، بل بدوافع غير شريفة جرياً على المثل الفرنسي: «من أراد إغراق كلبه اتهمه بالسعار» والحقيقة كانت مناقضة لكل ذلك.

ولما فشلت مهمة (كانينغ) بسبب تقلبات موقف وسياسة الحكومة الفرنسية أوضح الأمير ابن عبد الكريم وجهة نظره الصريحة في خطابين وجه أحدهما إلى (كانينغ) نفسه، والثاني إلى رئيس تحرير (التايمز) في 27 يناير 1926، ونشرت الرسالة الثانية في 17 مارس، وخلاصتهما إظهار النوايا الطيبة للريف ورغبته في صلح شريف، وإذا مارفض هذا فإن الريف سيواصل الحرب.

وقام مبعوث (مانشيستر كارديان) بتجول واستطلاع في الريف من ديسمبر 1925 إلى فبراير 1926، وتحدث ثلاث ساعات مع ابن عبد الكريم الذي قال له إنه مديده مرة فلم تقبل، ولن

و 1926 كل ما عرضته إسبانيا وفرنسا من شروط غير
الاستقلال التام.

وأمام ما جد من تطورات وجه الأمير محمد رسالة إلى مجلس
النواب الفرنسي بسط فيها الجهود والمحاولات التي بذلتها قيادة
الريف للمحافظة على حسن العلاقة مع السلطات الفرنسية، وفي
الرسالة شكوى صريحة بالمرشال ليوطي الذي عمل لإفساد تلك
العلائق بسياسته المتطرفة، وفي الرسالة نفى ما روجته الصحف
الفرنسية الاستعمارية زوراً وباطلاً عن حركة التحرير، وتذكر
الرسالة بالمخابرات التي كان أجراها الأمير محمد بن عبد الكريم
سنة 1923 بباريس مع الرؤساء البرلمانيين، والسياسيين، ورجال
الصحافة، وتقول الرسالة في هذا «إننا كاتبنا أولئك الرؤساء مراراً،
وشافهناهم حتى في الكلام مثل المسيو (بانلوفي)، رئيس الوزراء
الحالي، كما سبق لنا الكلام مع المسيو (بوانكاري) بالواسطة،
وأعربنا للكل عما تنطوي عليه ضمائرنا من الوداد نحو فرنسا التي
كنا نظن فيها أنها تكون أول مساعدة على تأييد مطالبنا، والاعتراف
بحقوقنا الطبيعية التي لا يمكن لنا أن نعيش بدونها، وكم راسلنا
المرشال ليوطي أيضاً بالمكاتب المتوالية، وخاطبناه بواسطة المرسل
مراراً، كل ذلك بحرصاً على الموافقة، وطمعاً في الحصول على
حسن التفاهم».

ويوضح الكتاب أن ليوطي كان لا يعتبر ذلك، وكان يعمل
للتحرش بالريف، وتثبيت العدوان على أطرافه تنفيذاً لبرنامج
الاستعماري المتطرف.

مؤتمر وجدة:

بالرغم عما صادفه (كانينغ) من إغراض واتهام فقد تمكن المقيم العام ستيف الراغب في وضع حد للنزاع المسلح من أخذ موافقة حكومته والحكومة الاسبانية لمحاولة أخرى في ذلك السبيل، وفي أوائل أبريل 1926 قبل ابن عبد الكريم اقتراح الحكومتين عقد مؤتمر بوجدة للتفاوض في شروط الصلح، وهي:

- 1 - الاعتراف بسلطان المغرب.
- 2 - نزع سلاح القبائل.
- 3 - إطلاق الأسرى.
- 4 - إبعاد ابن عبد الكريم عن البلاد.

وفي مقابل هذا يسمح لقبائل الريف بنوع من الحكم الذاتي يتلاءم مع المعاهدات القائمة، وأعلنت هدنة، واثمّر المبعوثون في 15 أبريل، ومثل الريف وزير الخارجية «روران»، كرئيس للوفد، وعضوية أحمد شدي، وحدو الأكحل، وكان رئيس الوفد الفرنسي الجنرال موجان، واقترح الفرنسيون والاسبان احتلالهم لبعض المواقع كتمهيد للمؤتمر، وهذا ما أثار استياء الريفيين الذين فهموا أنه جيمع بهم خدعة، وسحب أصحاب الاقتراح اقتراحهم بعد أن كان له أسوأ أثر، وأثار الشكوك، وأبى ممثلو الريف أن يكتموا الاقتراح الذي أعلنوا عنه لمثلي الصحف فضحاً لأصحابه، وصرحوا بأنهم يريدون أن يعرضوا قضيتهم على العالم أجمع، فقال أزرقان: «ليست لدينا أسرار، وفي نيتنا أن نعرض الأمور جيعاً

وطيرانه، إذ حشدت فرنسا وإسبانيا قوات عسكرية مشتركة تخوض المعارك برّاً، وجوّاً، وبحراً، وبلغ عدد الجيوش الفرنسية ابتداء من شتبر 1925، 325000 رجل، تضاف إليها قوات احتياطية مقاتلة بلغت 400000 ساعد الكلاوي على تجنيدها، وكانت القيادة الفرنسية تتكون من 60 جنراً وعلى رأسهم المريشال بيتان، و 32 فرقة عسكرية، وعشرات الآلاف من القوات المساعدة، وخمسون دبابة، و 44 سرباً من الطائرات كلها كانت في وجهة القتال، أما المجاهدون فكانوا عشرين ألف مقاتل فقط.

وتعززت تلك القوات بجيش إسباني بلغ أكثر من مئة ألف، وقدم طيارون متطوعون من بلجيكا، وآخرون من الولايات المتحدة تحت اسم (سرب لافايت)، الجنرال الفرنسي الذي قاتل في صف الثوار الأميركيين للاستقلال عن انكلترا، وبما أنهم لم ينخرطوا في اللقيف الأجنبي الفرنسي فقد سجلوا في القوات الجوية المزعومة التابعة للسلطان، وهي في الحقيقة القوات الفرنسية، وكان على رأس السرب الأمريكي الكولونيل (تشارلز سفييني)، وقاتلوا باسم فرنسا وإسبانيا معاً، وقصفوا بوحشية فظيعة كثيراً من القرى، ومدينة شفشاون التي لم يكن فيها سوى النساء، والأطفال والشيخوخ، حتى إن (التاميس) الانكليزية نشرت برقية لمراسلها تندد بذلك العمل الوحشي ضد مدينة مقدسة مفتوحة، كما قصف الطيارون الأمريكيون أسواقاً خاصة بالنساء في الريف إلى درجة أن وزارة الخارجية الأميركية التي أنذرها (والتر هاريس)، الصحفي الانكليزي، قامت بإشعارهم رسمياً بأن الولايات المتحدة ليست في

الفصل الخامس عشر

التحالف الفرنسي الإسباني للقضاء على الثورة

في 17 يونيو 1925 انعقد مؤتمر فرنسي إسباني بمadrid لتوحيد الخطط الحربية بين الجانبين في المغرب وطالت المداولات نحو الشهر أسفرت عن معاهدة التحالف والتعاون بين الدولتين، وتم الاتفاق المشترك على شروط الصلح لتقديمها إلى ابن عبد الكريم، وهي:

- 1 - تبادل الأسرى.
- 2 - العفو المبتدل التام من يناير 1921.
- 3 - تحديد نظام الحكم الذاتي.
- 4 - تحديد الأراضي التي يطبق فيها هذا النظام.
- 5 - تحديد قوة الشرطة لضمان القانون والنظام في هذه الأراضي.
- 6 - الاعتراف بالحرية التجارية وضمانها في هذه الأراضي على أساس المعاهدات الدولية وخاصة ما يتعلق فيها بالجمارك.
- 7 - منع المتاجرة بالأسلحة والذخائر الحربية.
- 8 - تحديد قطاع من الساحل تحتله إسبانيا سلمياً بعد إنهاء الحرب، وقد رفض ابن عبد الكريم في سبتي 1925

أنه كاتب المقيم العام ستيف يطلب إعادة فتح المفاوضات، كما أمل عبثاً تدخل بريطانيا.

ولما فشل كل هذا، عالج الموقف بواقعيته المعهودة فقرّر، ارتكاباً لأخف الضررين، اللجوء إلى الفرنسيين حتى لا يتمكن منه الإسبان الذين كان أعرف الناس بهم عداوة، ونقمة وبطشاً، ثم توجه سيدي حميدو إلى تاركيست لبحث شروط الاستسلام مع القيادة الفرنسية ومعه رسالة ابن عبد الكريم في الموضوع، ورجع سيدي حميدو إلى إسنادة برسالة تطمئن قائد الريف على نفسه وأسرته، وطلب منه الإفراج عن الأسرى، وكان برفقة الشريف الوزاني ضابطان فرنسيان هما (سوفران) (ومونتاني) ليتصلا شخصياً بابن عبد الكريم، ومدنيان أحدهما طبيب للعناية بالأسرى. ووصلت البعثة يوم 24 مايو 1926، ولما استقبلها ابن عبد الكريم كان ثابتاً غير مضطرب ولا متأثر، بل لقيها بابتسامة، ومما تحدث به إليها: «لست وحيداً، وسيهدم استسلامي كل ما بنيت، ورجالي يثقون بي وهناك قبائل كاملة تريد مواصلة القتال، وواجبي هو أن أبقى معهم إلى النهاية، فإذا ذهبت ماذا سيحل بهم؟ ومن يقود ويدافع عنهم ضد الإسبانيين على الأخص؟».

وتناقش الحاضرون ساعتين، ثم طلب مهلة تفكير، فانعزل في غرفة، وفي منتصف الليل رجع ليعلن للبعثة الفرنسية: «لقد قررت أن أستسلم»، فكتب رسالة إلى القائد الفرنسي بتاركيست لضمان حماية الأسرة، فأجيب طلبه. ولما حل وقت الذهاب إلى

ولما أيقنت القيادة الريفية بعدم جدوى كل مخابرة مع السلطات الفرنسية أخذت تعد العدة لخوض الحرب دفاعاً وزحفاً، وكانت خطط المجاهدين لا تتغير، لأنهم جربوها بنجاح في المعارك السالفة، وخاصة في انوال، وتافرسيت والشاون وغيرها، ثم صدر الأمر إلى الأمير محمد بجمع قواته للتوجه بها إلى ناحية طنجة بغية الاستيلاء عليها، وكان في نية القيادة العليا الوطنية أن تتوجه، بعد الاستيلاء على طنجة، إلى العمل من جديد لدى عصبة الأمم، وهكذا التحق الأمير محمد على رأس المجاهدين ببني مصور، فحاصر بعض المراكز الإسبانية حتى استسلم بعضها.

ولما قدم المريشال بيتان الذي عين في 16-7-1925، ليتولى قيادة الجيوش الفرنسية في 17-8-1925 عدل عن الخطة الحربية التقليدية، وهي الاعتماد على المراكز الحربية الممتدة على حدود الريف لمواجهة قوات المجاهدين، فقرر الهجوم على قلب بني ورياغل التي كانت إذاك قاعدة الحركة الوطنية التحريرية، وفعلاً تم الهجوم المدبر بواسطة الأسطول المشترك بين فرنسا وإسبانيا على مرسى النكور في 7-9-1925، لانزال الجيوش بالشاطئ، ولكن هذا الهجوم أخفق، فانسحب المهاجمون لجهة تمسمان حيث دارت المعارك بمرسى سيدي ادريس، فكان الإخفاق كذلك حليف هذا الهجوم الثاني، فأدى إلى انسحاب المعتدين الذين توجهوا إلى ميناء صغير جداً بقبيلة بقبوة، وكانت حراسة المجاهدين فيه قليلة نظراً لعدم توقع الهجوم عليه ولقلة أهميته، وبالرغم عن النجذات التي أرسلت من بني ورياغل كان السلاح قليلاً وغير متكافئ مع سلاح العدو، وأسطوله،

حالة حرب مع الريف، فكانت نتيجة هذا التوبيخ أنهم عادوا إلى بلادهم.

وتوالت المعارك بين الفريقين، وكان الهجوم على أشده، من طرف المستعمرين المتحالفين ابتداء من السابع مايو 1926 وأدى الأمر بانسحاب المجاهدين إلى خطوط الدفاع حتى وصلوا إلى حدود قبيلة بني ورياغل، وسحقت القوات الفرنسية آخر جماعة كانت تخوض المعركة اليائسة بعد تسعة أشهر من الصمود والقتال بكل شجاعة وبطولة، وكان جيش العدو يجهد نفسه للتمكن من القبض على ابن عبد الكريم الذي استطاع الإفلات، فتوجه الأمير ابن عبد الكريم على فرسه إلى إسنادة وليس معه سوى اثنين وعشرين فارساً الذين بقوا أحياء من الجماعة المقاتلة، وهناك وقف بباب دار سيدي حميدو الوزاني، وطلب حمايته، لأنه كان لا يجرأ أحد على انتهاك حرمة داره كل من دخلها فهو آمن، كما طلب منه أن يعطيه 350 بغلاً لنقل أسرته، وأمتعته، ومُدَّخراته من الأسلحة إلى مكان بعيد وحصين في غرب الريف ليواصل المقاومة، ولو مع قلة من الرجال، ولفترة محدودة، لكن سيدي حميدو حذره بأن القافلة قد تتعرض للهجوم والسلب من طرف من يعيشون في الأرض فساداً، فيضيع كل شيء: الأهل، والأموال، والأسلحة، كما بصره في موقف القبائل المستاءة التي قد تسلمه إلى الإسبانيين اللد أعدائه التقليديين الذين لا رحمة ولا شفقة فيهم عليه وعلى ذويه، ونصحه بأن يتدبر العواقب، ويختار الإفلات من سوء المنقلب والمصير، وفي إسنادة، حاول ابن عبد الكريم محاولة يائسة، وهي

بادس) (Cuatro Torres de Alcala). ولم تظهر فكرة النزول بشواطئ الحسيمة في وقت معين، بل راحت تتبلور، وتتحدد كل مرة أكثر، ابتداء من الوقت الذي تكشف لنا من خلال عملنا الحربي في معارك 1909 ومن خلال معرفتنا للأرض والعدو، أن المحارب الأشد قوة والأكثر مهارة والأوفى خطورة، وهو ريفي بني ورياغل، هذه القبيلة التي كانت دائماً تحتضن التمرد، وتقدم كتائب ذات قيمة قتالية نادرة».

«وقد ظهرت هذه الفكرة سنة 1911 أيضاً، وكانت توصي بأن يعهد بالقيام بها لفرقة صغيرة مكونة من خمس كتائب من الجند الأهالي، وكتيبتين من جنود شبه الجزيرة، تقوم بمساندتها عندما تنزل إلى البرفرقة من رجال القبائل الذين قدر عددهم إذ ذاك بنحو 800 كانوا يؤلفون (حزب الأنصار) الذي كان أفرادهم يتقاضون مرتباتهم من إدارة شؤون الأهالي بجزيرة النكور (جزيرة الحسيمة) وقد عين شاطيء السواني كنقطة هبوط، وهو سهل يقع ما بين مصب نهري (غيس)، و(النكور). كانت هذه الخطة — كما هو واضح من قلة القوات والوسائل العسكرية التي كان يفكر بواسطتها في التصدي لهذه المهمة — تقوم على العمل السياسي أكثر من قيامها على العمل الحربي.

«وفي سنة 1913 وقعت زيادة تفصيل في هذه الخطة من طرف القيادة العامة للمليية بتعيين قوات أكثر أهمية لتنفيذها. تلك القوات التي أصبحت تضم مجموعة الجيوش النظامية للمليية (Régulares de Melila) واختيار نقطة الهبوط في شاطيء (الصفيحة)، وهو شاطيء

تاركيسست تركت شخصيته، وكرامته، وعظمته، ارتسامات عميقة في أعضاء البعثة الفرنسية. وحينها كان يسير على جواده اندفع أتباعه نحوه، وأخذوا يقبلون ركابه وثيابه، ويلقون بأنفسهم في طريقه، واستقبله كبار ضباط القيادة بكل احترام، فقال لهم: «إني أسلم شخصي وأملاكي إلى فرنسا، ولي أعلى ثقة من كرمها»، فرد عليه القائد: «إني أشكرك على تضحيتك بنفسك في سبيل السلام بين شعبينا، وستكون فرنسا شاكراً لك»، وتلك كانت نهاية الحرب في 27 مايو 1926.

وفور الاستسلام كتب الأمير محمد بن عبد الكريم إلى شقيقه يأمره بصفته القائد الأعلى بأن ينتقل بقواته إلى تاركيسست، ولما حل بها وجد الأمير قد نقله الفرنسيون إلى تازة، وبعد ثلاثة أيام قضائها بتاركيسست التحق بأخيه الأكبر في تازة، ورفض ابن عبد الكريم توجيه النداء كما طلب منه إلى المجاهدين لإيقاف القتال والاستسلام، بل ترك لهم كامل الحرية والمسؤولية ليواصلوا المعركة ما داموا قادرين عليها بأية وسيلة، وكان الكولونيل كوراب الموجود بتاركيسست مركز القيادة الفرنسية هو الذي طلب منه النداء ليلقي بالطائرات على قبائل المجاهدين عامة، ومواقعهم الحربية خاصة، وهكذا ترك لهم فرصة مواصلة الدفاع حتى ينهوه باختيارهم دون أن تكون له فيه أدنى مسؤولية تاريخية.

«بعد الانسحاب من شفشاون وجباله خريف 1924 وما صاحب ذلك من مناقشات وأحداث ومماحكات وخسائر فإن الحالة المعنوية للوطن والجيش والقيادة العامة بالمغرب، عانت بدون شك انخياراً خطيراً، يضاف إلى ذلك عدم جدوى المحاولات التي أجريت للوصول إلى اتفاق مع ابن عبد الكريم. كان ذلك كله جماع فكرة النزول، لتوجيه ضربة إلى العدو، ولاسترجاع المكانة المعنوية. وكيفما كانت طريقة التفكير في النزول بالحسيمة، فإنه بدون أدنى شك – ومن الإنصاف الاعتراف به – أن إرادة التنفيذ كانت كلها للجنرال (Prima de Rivera) الذي كان إذ ذاك رئيس الحكومة وقائداً عاماً للجيش الإسباني بالمغرب».

.

«كانت الاتفاقية الفرنسية الإسبانية للتعاون، أقوى مساندة للتصميم على النزول، وأخيراً، راجت بتطوان في المعسكر العام وبتاريخ أوائل شهر شتنبر، أوامر ببدء العمليات».

.

«ولكن على الصعيد العملي وقعت تغييرات هامة كما سنرى، نتيجة الهجوم على (كدية الطهر) بناحية تطوان، ذلك الهجوم الذي أوجب صرف قوات لإيقافه».

.

«نظراً لأهمية الأمر الحربي الآتي بيانه، نرى لزماً الاطلاع عليه، لأخذ فكرة عن الصليبية التي كان الاستعمار على وشك القيام بها.

مصدر إسباني يتحدث عن النزول بخليج الحسيمة سنة 1925

«إن الخطة المتفق عليها بين الحكومتين الفرنسية والإسبانية لسنة 1925، وبين القيادتين الحربيتين للجيشين كسبجة للاتفاقية الفرنسية الإسبانية المبرمة بتاريخ 25 يوليو 1925، كانت تتضمن نزول القوات الإسبانية بخليج الحسيمة بمساعدة فرقة من البحرية الفرنسية، وعملية هجوم فرنسية أيضاً تشمل جميع الجبهة الفرنسية الشمالية، وتكون منطقة تازة مركزاً للجاذبية في اتجاه وادي (كرت) و (النكور)، مع احتمال أن تتعاون معها القوات الإسبانية بجبهة (مليلية) رابطة مسيرتها بالميمنة الفرنسية.

ومن جهة أخرى، فإن القيادتين السياسيتين والبحريتين للمنطقتين، تتعاونان للحيلولة دون عملية تهريب مواد المعيشة والمواد الحربية، التي يجب أن يحرم منها الريفيون بواسطة حصار ضيق».

«إن حيازة إسبانيا (الحجرة بادس)، كانت تمثل منذ قرون فكرة النزول بشواطئ المغرب، والتسرب منها إلى الداخل. ولقد تعددت الدراسات التي أجريت منذ القدم من طرف تقنيين مختصين حول إمكانية النزول بشواطئ الحسيمة، و (بادس) (وقلاع

ستصاحب هذه الفرقة قوات من البحرية، باستثناء قوارب منها تبقى لقصف (واد لاو).

ولإعطاء العدو إنطباعاً بأن الأسطول الذي يحمل الجيوش لا يزال بصحبتها، تبقى هناك (أي في واد لاو) الزوارق (Juan II) و (Escolano) و (Lulio) و (Ménorquin).

فرقة (Fernandez Perez) — تتركب في البواخر في الوقت المناسب لتكون على الساعة الخامسة مساء قبالة (سيدي ادريس)، وتتصرف هناك كتصرف فرقة (Saro) قبالة (واد لاو)، وستكون مصحوبة بالأسطول الفرنسي للأميرال (Hallier) الذي سيساهم بنيرانه في الهجوم التموهبي على هذه الواجهة.

□ يوم 7: فرقة (Saro): على الساعة الرابعة صباحاً، تشرع في النزول المفاجيء بشاطئ (اجداين) وإذا تمكنت من ذلك، ستحاول الإحاطة باستحكامات العدو الكائنة في (Morro Nuevo)، مقيمة بذلك جبهة دفاعية على أوسع مدى ممكن. أن القوات البحرية الأفريقية والطيران، يجب أن يبقيا مستعدين لهذا التاريخ، دون التدخل إلا عند اللزوم. وإن الأمر بتدخل هذه العناصر، سيتلقاه الأسطول مباشرة من قيادتي، كما سيتلقاه الطيران الذي عليه أن يكون على أهبة الاستعداد في قواعده بواسطة الراديو، راجياً من سيادتكم ضرورة إبقاء راديو مليلية، وكذلك جميع محطات الاتصال التليفوني بالقواعد الجوية، متنبهة يقظة ابتداء من الساعة الرابعة صباحاً.

منخفض رملي يقع إلى الغرب من نهر (غيس) ولكن هذه الخطة نفسها كانت سياسية أكثر منها عسكرية، لأنها كانت تقوم بكيفية رئيسية على مساندة وتعاون (حزب الأنصار) ذلك التعاون المشكوك فيه، والذي أثبتته الوقائع فيما بعد. لقد كانت هذه الخطة على وشك التنفيذ، بحيث ربت جميع الاستعدادات ووزعت المناشير، إلا أنها بقيت بدون مفعول لاندلاع حوادث تطوان و (اللوزين) صيف 1913.

مرت السنون، وأخذت خطط النزول هذه تنضج وتكامل بحيث أصبحت تكون كابوساً مسلطاً على الذين تعاقبوا على تسيير الأمر في القيادة بمليلية.

«وعند إنهاء حملة الاسترداد بمليلية سنة 1921، عينت الحكومة لجنة من القيادة العامة المركزية لدراسة الحالة في جبهة القتال واقترح ما يمكن أن يتخذ بصفة نهائية. وقد توصلت هذه اللجنة إلى استنتاج أنه يجب تعيين جبهات الاتصال بمنطقتي سبتة ومليلية، وإعطاء ضربة قاضية للقرى في قبيلة بني ورياغل، وذلك بواسطة الهبوط في خليج الحسيمة.

«هذه الخطة، يمكن اعتبارها الخطة العسكرية الحقيقية الجامعة، وذلك لتكامل العمل السياسي والعسكري بها، ولتوافر الوسائل التي يمكن طرحها للعمل التكتيكي، والعمليات التمويلية بالمناطق الأخرى، وللتعاون المنتظر من جانب البحرية الحربية. أما المكان المقترح للهبوط، فقد كان أيضاً شاطئ (السواني).

الشاطئين، وتقترب مباشرة من أهدافها، أما إذا كان العكس، بحيث لا يليق أن تتصرف بهذا الشكل، فستذهب للالتحاق بفرقة (Saro)، نازلة إما بقلعة (Quemado) أو بقلعة (Bonita)، أو بشاطيء (اجداين) حسب الظروف.

وسيتابع الأسطول الفرنسي للأميرال (Hallier) مساندة هذه الفرقة.

أما أسطول التدريب، فإنه يبقى في الاحتياط ملء الأهداف التي ستعين له.

وفيما بين يومي 7 و 8، ينبغي أن يقع إنزال جميع فرقة (Saro)، والجزء السابق ذكره من فرقة (Fernandez Perez) بحيث يمكن ما تبقى من هذه الفرقة في المراكب كاحتياطي للإغاثة، فيما لو حدث طارئ غير متوقع.

نستقر القوى النازلة استقراراً محكماً، وبالأخص فرقة الجنرال (Saro)، وتقيم لأول وهلة قاعدة محصنة بشكل منيع في شبه جزيرة (Morro Nuevo) التي تعتبر استحكاماً مينعاً للمقاومة، بحيث يمكن تجميع أكبر عدد ممكن به من المواد على اختلافها بشكل مباشر. وفي يوم 11 أو 12، يجب تشكيل فرقتين للهجوم على (اجدير) مزودتين بجميع المواد الضرورية للقيام بهجوم قوي على هاته النقطة التي يجب أن تهاجم من الجانب والظهر - وهذه قاعدة عامة لاحتلال جميع المواقع - وفي هذه المسيرة، فإن الجانب الأيمن من القوات سيكون محمياً بكل فعالية ممكنة بواسطة نيران المدفعية النازلة من

أمر من القائد الأعلى العام لمنطقة مليلية رئيس فرقة النزول

«إن هناك أسباباً عدة ذات طبيعة سياسية وعسكرية غنية عن التعداد، جعلت الحكومة تهيئ لعملية الحسيمة التي سيشرع فيها ابتداء من يوم 5 من الشهر الحالي، بتنسيق مع الجيش الفرنسي، إذا كانت الحالة تسمح بذلك.

«ورغمًا على الموافقة الحاصلة على تاريخ العملية، فإنه سيصادق عليها في الوقت المناسب.

شرح العملية:

□ يوم 5: فرقة (Saro): عند الصباح، يتبدى صعود القوات إلى المراكب في سبتة، لإمكانية الإقلاع من هناك ليلاً في اتجاه (واد لاو).

فرقة (Fernandez Perez): تبتدىء التعبئة في مليلية.

□ يوم 6: فرقة (Saro): تكون عند الفجر قبالة (واد لاو) محمية ومصحوبة بقوات البحرية الأفريقية، ومهمتها في هذا اليوم، هي: استدراج العدو إلى (واد لاو)، وقصفه دون تبذير في العتاد. وسيتعاون طيران تطوان في هذا القصف دون استهلاك للذخيرة.

وعند الثانية زوالاً، وعلى مرمى البصر من العدو، ولكن بعيداً عن نيرانه، تنتقل قوات من الزوارق، (K) وتناور كما لو كانت تحاول النزول، وعند الرابعة، تتابع مسيرتها بمحاذاة الشاطئ لتكون حوالي الرابعة من صباح يوم 7 قبالة (اجداين).

احتفاظ القائد الأعلى بقيادة المجموع وقيادة المنطقة؛ ويركب هذا الأخير صحبة أميرال أسطول التدريب في (Jaime II) مصحوباً بزورق (طوربيد) تحت تصرفه للنقل من نقطة إلى أخرى.

ويصحب الأميرال (Hallier) ضابط من القيادة العليا بمليلية، وآخر من أسطول التدريبات.

ويكون رفقة أميرال أسطول التدريبات ضابط من البحرية الفرنسية وآخر من القيادة العليا لمعسكري العام.

ويصحب قائد القوات البحرية الأفريقية قائد من القيادة العليا لمعسكري العام، ضابط من هذه القيادة أيضاً صحبة رئيس القوافل البحرية.

تعاون الطيران :

إن على هذه القوى أن تتضاعف، لأنه زيادة على الاعتناء بفرق النزول، فإن عليها ألا تهمل منطقتي تطوان والعرائش اللتين ينبغي مراقبتهما بكامل الاحتياط مساندة لحاميتيهما.

وكما سبق بيانه، فإنه لا ينبغي لهذه القوى أن تستهلك بشكل مفرط عتاها في الأيام الأولى للنزول وذلك بقصد الإبقاء على الآليات والذخيرة للحظات العصبية المتوقعة تطورها بعد النزول بيومين أو ثلاثة، حيث يتعين فيها التغلب على الصعوبات التي يضعها العدو، والإيقاع به بكل ضراوة. وفي الصراع ضد القوات، تستعمل قنابل (التريليت) (Trilita) مع الاحتفاظ بقنابل C.5

وبتحقيق النزول، ستشدد قوات البحرية والطيران نيرانهما، وسيبقى أسطول التدريب على مرأى العين، مستعداً للتدخل لتدعيم جبهة (السواني).

وسيقفل الجنرال (Saro) راجعاً بعد النزول، إلى المراكب التجارية بحثاً عن المواد...

□ يوم 8: فرقة (Saro): ستقوم بتصفية المواقع المحتلة في اليوم السابق إذا كان ذلك لازماً، ثم تنكب على الخصوص، على تحصين القاعدة، وجمع المواد الغذائية والحربية.

وستقوم الأساطيل والطيران بضرب مدافع العدو واستحكاماته، كمساندة لهذه الفرقة.

فرقة (Fernandez Perez): تستمر محافظة على موقفها التمويهي قبالة (سيدي ادريس) إلا إذا تلقت أمراً معاكساً، وذلك طيلة اليوم، تحت حماية الأسطول الفرنسي للأميرال (Hallier) وستقوم الزوارق (K) بنقل أربعة آلاف رجل من المراكب التجارية، منتظرة أوامري الواضحة بمتابعة إبحارها بغرض الالتحاق بفرقة (Saro).

إن الغرض المباشر لهذه الفرقة، سيكون الاستيلاء على (Adrar Seddun) و (Rocosa) (مع أفضلية هذه الأخيرة)، ولهذا الغرض يمكنها أن تتصرف كالآتي:

إذا كانت مقاومة العدو بشاطئ (الصفحة) و (Espalmadero) لا تكون عوائق جدية، فإن فرقة تنزل بأحد

- 9 محطات، للإبصار (اثنتان على ظهر الخيل).
- فصيلة واحدة لعمال الهندسة.
- 3 محطات راديو تليغرافية (واحدة شبه قارة، واثنتان جبليتان).
- فصيلة واحدة للسَّبر.
- فصيلة واحدة للإمدادات والتموين للخدمة مستودعات الأطعمة.
- كتيبة واحدة للنقل على الظهور مزودة بـ 125 وسقا.
- مخبزة حربية واحدة.
- فصيلة واحدة للإمدادات والتموين 100 رجل لاستعمالهم كشغالة أثناء النزول.
- سيارة إسعاف جبلية ذات 36 مقعداً.
- مستشفى حربي يحتوي على 300 سرير (تبعه فصيلة من البلطجية).
- فصيلة واحدة للخدمات الصحية.
- فصيلة كاملة جاهزة من كتيبة (بحر مليلية)، مع 30 رجلاً من كتيبة العرائش للمساعدة على النزول.
- فرقة (Saro): وتتألف من القوات الآتية التي تنتمي كلها لمنطقة سبّطة:
- 10 عربات للهجوم السريع.
- لواء من اللفييف الأجنبي.
- ثلاثة (طوابير) للمشاة (Régulares de Tetuan).

قبل، وببطاريات جزيرة الحسيمة والطيران البحري .

وفي يوم 20 يجب أن يكون الهدف النهائي المتوخى من هذه العملية معزراً. وفي نفس الوقت، يجب أن تنزل المواد الغذائية والحربية توقعاً لعزلة مدتها ثلاثة أشهر، وكذلك أكبر عدد من العنابر (البرارك).

وينبغي إبقاء بعض القطع الحربية مقابلة لشاطئ: (واد لاء) و(سيدي ادريس) لتشتيت انتباه العدو.

ويتعين على المدفعية وعلى الطيران، أن يبذلا مجهوداً أكبر، بعد يومين أو ثلاثة من الهبوط، في الهجوم على (أجدير)، وبالتالي يجدر الوصول إلى هذا التاريخ بذخيرة حربية كافية، وذلك بفضل اقتصاد حكيم في اللحظات الأولى. وهذا ليس معناه أبداً أن يكون تدخلهما أقل فعالية وقوة إذا تطلبت الظروف ذلك. ويجب الاحتراز من الوقوع في أخطاء ما، عند تعيين الأهداف وضربها.

وإن الإشارات والاتصالات كيفما كانت، يجب أن تكون واضحة ومتوفرة، وعلى الرغم من اطلاع الجميع على هذه الخطة العامة، فإن مبادرة أي كان، يجب أن تنوب عن أي نقص في الأوامر.

القيادات:

يتولى أميرال أسطول التدريب قيادة جميع القوى البحرية؛ ويتولى قائد الموقع العسكري بميلية قيادة جميع القوى البرية، مع

— فصيلة للخدمات الصحية.

— فصيلة كاملة برجالها الجاهزين من كتبية (بحر سبتة) (100 رجل) للمساعدة في عملية النزول.

أما وحدة الجسور العائمة، فتبقى رهن إشارتكم لاستعمالها في الوقت الذي تروونه مناسباً.

ومن البحرية:

ستتصرفون لغاية تاريخه في القطاعات الآتية:

□ فصيلة التدريبات المدرعتان: (Jaime I, Alfonso XIII) والمدمرتان (Alsedo), (Velasco) والطرادتان (Blasdelezo), (Mendez Nunez).

□ القوات البحرية لشمال أفريقيا: الطرادتان: (Extrehuadura), (Victoria Eugenia) وثلاث بوارج نوع: (Canovas)، وثلاث بوارج أخرى نوع (Récaldi)، وأحد عشر زورقاً لحفر السواحل نوع (Uads)، وستة من زوارق (الطوربيد)، وسبع من زوارق خفر الصيد.

□ ومن الأسطول الفرنسي تتعاون: مدرعة واحدة، وطرادتان، وزورقان للطوربيد، ومدرعة صغيرة (Moniteur)، وسفينة جراحة مع منطاد تابع.

لقنبلة الأماكن الواقعة بمؤخرة العدو. وينبغي أن يكون الاحتراز كاملاً في حالة ما إذا ظهرت في الجو أي طائرة للعدو والتي يجب اصطادها في الحين.

قوات الجيش التي يجب أن تشارك:

□ فرقة (Fernandez Perez): تتألف من القوات الآتية التي تتسبب كلها لمنطقة مليلية:

- كتيبة من المشاة البحرية.
- لواء من اللفياف الأجنبي.
- ثلاثة (طوابير) من المشاة النظاميين للميلية (Regulares de Melilla).
- (حركة) من 600 رجل.
- 600 رجل من (محلة مليلية).
- الكتيبة 16 لقناصة أفريقيا (Cazadores de Africa).
- اللواء الثاني لأفريقيا.
- اللواء الأول للميلية.
- بطارية واحدة لقذائف (الموتزر) عيار 10.5.
- بطارتان جبلتان عيار 7.
- مخزن متنقل، مع كوكبة من المدفعية واثنين للمشاة.
- طاقم من ثلاث كتائب للبلطجية (الجنود الحفارة).
- فصيلة واحدة للإضاءة.
- فصيلة واحدة للمد التليفوني مزودة بعشرين من الأجهزة.

800 رجل (Jorge Juin)

(كتيبة)

600 رجل (Florinda)

(حركة)

1.500 رجل (Romeu)

(ثلاث كتائب لرجال الهندسة وثلاث بطاريات

ورجال الاتصال)

الارسالية رقم 3 (Roger de Flor) 400 رأس من الماشية

(Villarreal) مركب مستشفى سعته 330 جريحاً

(Cublera) لنقل الاحتياطي

(مركب ذو حوض سعته 100 طن)

وإن نطاق الشحن هذا، يمكن أن يتغير عند الاضطرار من
أجل تنظيم أحسن للقوات التي ستنزل بادية الأمر.

فرقة (Saro)

الارسالية رقم 4 (Castilla) 1.000 رجل

(طابوران ولواء)

1100 رجل (Cabañal)

(رجال التموين والصحة)

800 رجل (A. Cola)

(كتيبة)

- (حركة) مؤلفة من 900 رجل .
- 600 رجل من (محلة) تطوان، والعرائش .
- الكتاب: 3 و 5 و 8 لقناسة أفريقيا (Tarifa, Segovia, Arapiles) .
- بطارية واحدة لقذائف (الهوتزر) عيار 10,5 .
- بطاريتان جبليتان عيار 7 .
- مخزن متنقل، مع كتيبة للمشاة وأخرى للمدفعية .
- طاقم من أربع فصائل للبلطجية .
- فصيلة للإضاءة .
- فصيلة للمد التليفوني مزودة بعشرين جهازاً .
- 8 محطات للإبصار (واحدة على ظهر الخيل) .
- فصيلة من عمال الهندسة .
- ثلاث محطات راديو — تليغرافية (واحدة شبه قارة، واثنان جبليتان) .
- كتيبة للنقل على الظهر مزودة بـ 125 وسقا .
- مخبزة حربية .
- فصيلة للإمداد والتموين لخدمة مستودعات الأطعمة .
- فصيلة للشغالة من رجال التموين مؤلفة من 100 رجل للمساعدة في عملية النزول .
- سيارة إسعاف جبلية ذات 36 مقعداً .
- فصيلة من 100 رجل حاملي النقالات .
- مستشفى حربي يحتوي على 300 سرير (تصحبه فصيلة من البلطجية) .

أما وحدة قيادة المناطيد، فستكون على ظهر المدرعة (Jaime I)، وستكون الباخرة - المستشفى (Andalucia) زيادة على مهمتها الأساسية التي هي مصاحبة فرقة (Saro) إلى مكان العمليات، رهن الاحتياط للمساعدة في عملية النقل.

الاحتياطات:

يتألف في كل من منطقتي سبتة ومليلية، احتياطي مكون من 1.500 رجل تقريباً، مشكلين في سبتة من طابور واحد من (Régulares de Ceuta)، وطابور آخر (Régulares de larach) وكتيبة من لواء (Serrallo)؛ وفي مليلية من طابور (Régulares de Alhucima)، ومن الكتائب التي يمكنكم تعيينها.

أما في شبه الجزيرة (أي في إسبانيا)، فسيكون هناك احتياطي جاهز مؤلف من عشر كتائب، وثلاثة أطقم لبطاريات (الهوتزر) عيار 10,5، وطاقم بطاريات عيار 7,5، وطاقم آخر لبطاريات (الهوتزر) عيار 15,5، يضاف إلى هذه القوى كتيبة للحمل على الأظهر، وسيارة إسعاف جبلية.

تحذير عام:

إن المهمة التي ستصل بها البحرية والجيش إلى الذروة، هي ذات أهمية فائقة، بل يمكن القول إنها حاسمة منظوراً إليها من زاوية عملنا في المغرب، وذلك دون اعتبار لما تكتسبه من الأهمية الدولية.

□ وسائل النقل من البحرية الحربية: ستة وعشرون زورقاً نوع (K)، والجرارات: (Cartagenero)، (Gaditano)، (Ferrolano)، (Ciclope)، وسفينة ذات حوض سعة 300 طن، وأخرى سعة حوضها 100 طن.

أسطول النقل:

إن نقل الفرق إلى مسرح العمليات، يتم على الشكل الآتي:

فرقة (Fernandez Perez)

الارسالية رقم 1 (Lazaro) 1000 رجل

(طابوران ولواء)

(Aragon) 1000 رجل

(رجال التموين والصحة)

(Navarra) 800 رجل

(كتيبة)

(Saguinto) 600 رجل

(محلة)

الارسالية رقم 2 (Alhambra) 1.100 رجل

(طابور ولواء)

(Menorca) 800 رجل

(كتيبة)

«إن الفرقتين معاً: فرقة سبته، وفرقة مليلية، كانتا تشابهان تقريباً في التكوين والقوى، حوالي 9.000 رجل في كل فرقة، بحيث يرتقي مجموع هيئة النزول إلى أكثر من 18.000 رجل تحت قيادة الجنرال (Sanjurjo) الذي كان إذ ذاك قائداً عاماً لموقع مليلية».

«وإن القوات البحرية التي كان عليها أن تساعد في إنجاح العملية، كانت تتكون من السرية الفرنسية للأدميرال (Hallier) التي كان عليها أن ترافق وتحمي إرساليات النقل لفرقة مليلية، ومن وحدات بحريتنا المكونة من القوات البحرية لشمال أفريقيا، والتي خصصت لمرافقة ونقل فرقة سبته؛ ومن سرية التدريب التي كانت تمثل دوراً احتياطياً استراتيجياً تحت تصرف القيادة».

كانت السرية الفرنسية مكونة من المدرعة (Paris) والطرادتين: (Metz) و (Strasbourg) وزورقي الطوربيد (Tonquinoise) و (Anamite) ومدرعتي التدريب (Amiens) و (Reims)، ومن سفينة جراحة مع منطاد تابع».

.....

«وإن الطاقة الضاربة لجميع هذه الوحدات البحرية تبلغ 190 قطعة مدفعية: ثلاثون منها من العيار الثقيل، يضاف إليها مدفعية جزيرة الحسيمة معززة بحوالي سبع بطاريات، وبآليات (الهوتزر) عيار 15,5، ومدافع عيار 7,5 أي ما مجموعه 24 قطعة مضافاً إليها قطع البحرية، فيبلغ عدد الجميع 214 فوهة نارية لتعزيز النزول، مستقلة تماماً عن المدفعية المتنقلة للكتائب».

.....

إنها ليست مهمة يسيرة، ولكنها لا تعرض صعوبات كثيرة أمام وسائل التدمير التي نملكها، وكفاءة جيوشنا. وإن تعاون البحرية والطيران الفرنسيين - زيادة على كونه مساعدة لنا - يمثل شرفاً لجيوشنا البحرية والبرية والجوية، الأمر الذي يجعلنا نتطرق في الحماسة، ونسهر على تثبيت المفهوم العالي الذي نستحقه كمحاربين.

وينتظر أن يتطور كل شيء في حالة طبيعية إذا كانت كل خطوة متنوعة بدعم الخطوات السالفة، وتثبيت الجوانب، لأنه يتوخى السير الحسن أكثر من السير السريع.

إن الشكوك التي تعترض خلال تطور العملية، يمكنك أن تستشيرني بصددها حالاً، عارضاً التفاصيل ووقائع التنفيذ حسبما تمليه عليك غيرتك ومعرفتك للتفكير السائد.

أوصيك بضرورة بحث بيان بأساء الخسائر في الأرواح كل يوم قبل الساعة التاسعة ليلاً: القواد والضباط، وبيان آخر بعدد الجيوش مع فصل الأوروبيين عن الأهالي.

ويوم أن تصعد جميع الجيوش إلى البواخر إذ ذاك يجب توضيح هذه العملية للقواد والضباط والجنود، وتوزيع الأهداف المختارة، وبيان كيفية الوصول إليها، مع إشباع حماسة الجميع بضمان النصر، وإقناعهم بالخير المسيطرة على العدو، الذي لا قبل له بحركتنا البحرية والجوية المكتسحة (انتهى أمر القائد الأعلى).

.

وجراً من طرف بحارها، بحيث كانت تسير على مسافة قريبة جداً من الأرض. وتحت حماية نيرانها، أخذت مراكب النقل وزوارق الهبوط كما لو كانت تحاول إنزال القوات على الأرض. وقد نشرت هذه (الطورييدات) وهي سائرة بسرعة فائقة، ستاراً كثيفاً واسعاً من الدخان كما لو كانت تحاول إخفاء حركة مراكب النقل عن العدو. وتحت هذا الستار اتجهت جميع الزوارق وباقي الأسطول نحو الحسيمة. وعلى الساعة 7 والنصف مساءً، كانت قد أنهت التظاهرة، وكان خداع العدو كاملاً، بحيث باتت مئات المشاعل تضيء طيلة الليل في أعالي جبال بني سعيد وتمسمان المحدقة بشاطئ (سيدي ادريس)، داعية من غير شك رجال القبائل لصد النزول المظنون، وبعثت من بني ورياغل فرق للطوارئ، كان عليها أن ترجع في اليوم التالي من تمسمان إلى اجدير عندما تجلت لها حقيقة النزول الواقع في شبه جزيرة (Morro Nuevo).

وعند الساعة الثالثة والنصف من سحر يوم 8 وصلت قافلة فيالق مليية قبالة (Morro Nuevo) منضمة بذلك إلى مراكب فرقة سبتة.

.....

كُذِيَّة الطَّهْر:

«ان ابن عبد الكريم الذي يعرف نياتنا في القيام بالنزول ولكن من غير أن يعرف بالضبط نقطة وقوعه، كان يعلم أنه ستخرج لهذا الغرض من مرفأ سبتة قوات مهمة، فأمر أخاه محمد

بعد أن ذكر المؤلف الأمرين العسكريين لقائدي الفرقتين:
(Saro) و (Perez) الموجهين إلى قواتها، وأوامر العمليات المتحققة
بهما، انتقل إلى الحديث عن مرحلة تطبيق هذه الأوامر.

«نقلت فيالق سبعة جميع المواد من هذا المرفأ إلى البواخر،
وذلك ابتداء من يوم 1 إلى 4 شتنبر وفي اليوم 5 ركبت جميع
الوحدات من الأسطول شارة في المسير، محمية بالبوارج الحربية
لقوات أفريقيا البحرية ليلاً، وصلت عند فجر اليوم 6 قبالة (واد
لاو) حيث تظاهرت كأنها تستعد للنزول، وفي ليلة 6 اتجهت صوب
الحسيمة وعند الصباح من يوم 7 كانت قبالة (Morro Nuevo)، إلا
أن المسيرة الليلية بالأضواء المطفأة والتيار الشرقي القوي جعلنا
القافلة تتشتت، ورغم المجهودات المبذولة، لم يمكن تجميع القطع
إلا بعد تقدم النهار الأمر الذي عاق إنجاز الهبوط يوم 7 كما كان
مقررًا، فأجل لليوم التالي طبقاً لأمر القائد الأعلى الذي أُملي على
الساعة 12 من صباح يوم 7.

أما فيالق مليلية، فقد ركبت يوم 5 في هذا المرفأ مقلعة
صبيحة يوم 6 على الساعة 11، وقد قامت بالتظاهرة المقررة قبالة
شاطيء (سيدي ادريس) تلك التظاهرة التي كانت أعجوبة تقنية
للتنفيذ من طرف مراكب السرية الفرنسية، لقد بدأت التظاهرة على
الساعة الثالثة والنصف ظهراً باصطفاف المدرعة (Paris) وطرادتين
قبالة الشاطئ، لاجتذاب نيران بطاريات العدو، واكتشافها
وضربها بكل ضراوة كما لو كانت فعلاً تريد تعطيلها من أجل
الهبوط. وقد أظهرت (الطورييدات) براعة ومعرفة بالشاطئ،

الصبر نيران مدفعية العدو ومدافع الهاون، بحيث انقلب الموقع إلى جحيم حقيقي».

.

«وخلال ذلك وفي (كدية الطهر) بالذات، وقد نفذ الماء، فإن الحامية البطلة، تابعت مقاومتها بين أنقاض الموقع دون أن تفكر ولو لحظة في الاستسلام، واستعدت للموت انتحاراً كما أعرب عن ذلك في لهجة (أسبيرطية) في تلغرافه الموجز رئيسها الشجاع القبطان (Zracibar) الذي وفي بوعده في اليوم التالي حيث لقي مصرعه الماجد على رأس تلك الحفنة من الأبطال».

.

«على الساعة الثامنة والنصف من يوم 11 بدأ الزحف، كان التقدم جد بطيء نظراً لوعورة الميدان، ونظراً أيضاً لضرورة معرفة جميع البساتين والغابات والقرى. ومرت اليوم كله دون أن يحقق الزحف غاياته.

«وعند الصباح من يوم 12، استؤنفت المسيرة على الترتيب السابق، وهكذا احتلت قرية (ظهر الحلقة) والربوات التي تهيمن على (دار الغازي)، وعند الرابعة مساءً، أعطى الكولونيل (Balmes) أمراً بالهجوم على هذه القرية الأخيرة. كان الالتحام متجاوزاً حد القساوة. وقد احتلت جيوشنا بمساندة نيران الفرق الجانبية ونيران المدفعية القرية والغابة، وقد كان القتال شرساً بالسلاح الأبيض والقنابل.

أن يقوم بهجوم في العمق بقطاع تطوان. وقد اختار محمد ولد عبد الكريم كنقطة للهجوم: التواء الخارج بخط دفاعنا (بكدية الطهر)، وأوصى بأن يرأس هذا الهجوم القائد اخيرو الذي كان متمركزاً بربوة (دار الراعي)، وهي نقطة المرور بالنسبة لجميع الطرق الآتية من جبال بني حسان وبني حزمارة، والهابطة لوادي نهر مرتين وتطوان».

.

«بدأ العدو هجومه يوم 3 شتنبر على خط مواز لخطنا. في الوقت الذي كان سكان قريتي (دار الغازي) و(أسدان) الذين انضم إليهم الريف المتسللون من خلال مواقعنا يهجمون على مؤخرتنا، وذلك من أجل فصل هذه المواقع عن قواعدها، ومنع وصول قوافل التعزيزات إليها.

كان الهجوم على (كدية الطهر) عنيفاً جداً من أول وهلة استعمل فيه العدو عدة قطع من المدفعية ومدافع الهاون والأسلحة الأتوماتيكية، وبعد نصف ساعة كانت (كدية الطهر) كلها تشتعل».

.

«وقد حاول مدفعيو (كدية الطهر) إطلاق نيران مدافعهم ببطولة حقيقية مكشوفين تقريباً، ولكنهم جميعهم ضابطهم أصبحوا خارج القتال في اليوم الأول. إن جنود المشاة وقد أصبحوا محرومين من مساندة مدفعيتهم، كان عليهم أن يقاوموا بكامل

«إن ميزة هذا الهجوم المشاهدة لأول مرة من طرف المؤلف في حملات المغرب هذه كانت هي: طريقة التوجيه القيادي الموحد والخيبر الذي ساق به العدو المعركة: بدء الهجمات إشارات ضوئية ظاهرة للعيان بوضوح، إيقاف النيران في آن واحد على طول الخط عند توقف الهجوم، التأهب المدفعي المضبوط حتى في عز الليل، هجمات قياس القوى، الأهداف المعينة بكامل الأحكام، هذه الجزئيات تعطي انطباعاً عن قتال جيش نظامي خاضع لقيادة موحدة ومقتدرة. وقد لوحظت هذه الخواص الجديدة في طريقة قتال رجال الريف عند تطور الأحداث فيما بعد في حملات سنة 1926 و 1927، يضاف إلى ذلك كله الاستعمال المركز للاستحكام والأسلحة الأتوماتيكية المنصبة في كهوف مغطات، مما أعطى لهذه الحملات طعم حرب أوروبية.

«إن النقص الحاصل في وسائل الإنزال، وسوء أحوال البحر الذي أرغم البواخر على الابتعاد عن الشاطئ، أخلى المكان لمرحلة من الاستقرار الخطير الذي امتد لغاية يوم 23 بحيث مرت الجيوش بلحظات من الكرب والخطر الحقيقيين نظراً لعجزها عن التقدم، ولندرة المواد الغذائية والماء والذخيرة ووسائل النقل، بحيث اضطرت إلى أن تتجمع في حزام ضيق من الأرض لا يتجاوز 6 كيلومترات مربعة، وأن تخضع لقصف متتابع دائري من نصب من قطع العدو المدفعية على طول الجبهة وبعدد يفوق القطع التي كانت في حوزة حياة النزول. هذه الخصائص لم يستطع العدو الإفادة منها لحسن الحظ في توجيه هجماته في العمق، وذلك لكثرة الخسائر التي

«بعد هذه العملية الباهرة، فإن الوصول إلى (كدية الطهر) لم يكلف كثيراً، بحيث احتلت صبيحة يوم 13 من فرقة (Balmes)».

«وقد أصبح العدو محطماً، فإنه لم يكد يظهر يوم 13، وأن جثته التي جمعت (أكثر من 200 جثة) تمثل الدليل الواضح على القتال الرهيب الذي مر، والذي لعب فيه الطيران دوراً حاسماً».

(بعد ذلك ينتقل المؤلف إلى الحديث عن عمليات النزول بالحسيمة في الجبهة الشرقية).

«على الساعة 12 من يوم 7، أملى القائد الأعلى الأمر العسكري الآتي:

«إن تجربة البارحة بخصوص القذف المتواضع لمدفعية العدو ورشاشاته وبنادقه من على مسافة 3250 متراً على هذا المركب، يجعلني أقر أكثر من ذي قبل المزية المطلقة للقيام بهذه العملية ليلاً».

(ويتابع القائد الأعلى تعليماته في الأمر العسكري قائلاً):

«تعديل في الخطة للعلم به من طرف القيادات — تحقيق النزول على شاطئ (اجداين) قبل الصباح وذلك بخداع الأهداف ومفاجأة الحراسة بغرض احتلال وتحصين شبه جزيرة (Morros)، وإقامة قاعدة العمليات فوق بني ورياغل، ثم التوجه إلى (اجدير) كهدف أول مباشر. القائد الأعلى: (Primo de Révira).

«كانت خسائر فرقة الجنرال (Goded)، سبعة من الضباط،
و 218 من الجند، ومثلها تكبدته فرقة (Saro)».

.

«وقد كتب الطيران (بتحليقه الجسور) حسب عبارة الجنرال
(Sanjurjo) في هذا اليوم، وكالأيام العديدة، صحائف مجيدة في كل
المهام التي عهد بها إليه، تلك المهام التي تعاونت معه في تنفيذها
بكل فعالية كذلك، الطائرات نوع (Goliath) من الجيش
الفرنسي».

.

البندقية والمصحف:

«لقد استمرت المعركة في الكهوف والخنادق لإنهاء المقاومة
المتصلبة للعدو إلى الفجر. وكدليل على الانهيار الذي أصاب
العدو، يمكن الإشارة إلى أنه ترك في الميدان حوالي 200 جثة. ومن
بين الجثث التي عثرنا عليها في خنادق الجزر، كانت جثة أحد
القواد: رجل قوي في تمام عمره، وبجانبه بندقيته الجديدة (الموزر)
معنى بها أشد العناية، وما سورتها (جعبتها) لا تزال دافئة، بكسبه
الجانبي (الشكارة المغربية) نسخة من القرآن، عليها إشارة في
الصفحة التي كانت آياتها على الأرجح هي آخر ما قرأ في الليلة
الماضية. أخذت هذين الرمزین معاً: البندقية والمصحف اللذين
احتفظ بهما من بين ما احتفظ به من ذكرياتي حول الحملة في الغرفة
العربية التي تؤلف متحفی الحربی الصغير، وعملت على دفن الجثة

لحقت به، ولأنهيار معنوياته خلال هجماته الفاشلة في الأيام 11 و 12 و 13 و 19».

.

«وبعد تموين الجيوش خلال اليوم 22 بفضل تحسن حالة البحر، أعطيت الأوامر لبدء الزحف بكامل الحزم يوم 23».

.

«أصبحت مبادرة تكوين فرق النزول، والتفكير التكتيكي لتطويره، في يد الجنرال (Sanjurjo) رئيس فرقة النزول».

.

«على الساعة السابعة والنصف (من يوم 23) بدأ الزحف. وكان خط العدو المزود بخنادق جاهزة والمسيطر على حقل ممتاز للرماية، كان مسبوقاً بفرجات ملغمة عند المداخل الرئيسية، وقد تكاملت مجموعة التحصينات بكهوف عميقة في الشقوق الحجرية (Malmusi) الأعلى، وقلعة الجزر (Cala de Los Islotes) و (Morro Viejo) حيث كان العدو يملك مخاضاً عصية على المدفعية والطيران».

.

وفي نفس اليوم: 23 شتنبر 1925 أسرت فرقة الجنرال (Goded) 33 جندياً، واستولت على 163 بندقية وحفائب جانبية (شكارات)، وحمائل للجند، وأدوات للتحصين، وكمية وافرة من العتاد الحربي، وأمتعة، وعدة قوارب، وحاملة للبترول كان يملكها العدو في قلعة الجزر (Cala de Los Islotes)».

.

الكومندان (Varela) بأن جيوشه اصطدمت على مقربة من القمة (الرابية 7) بتجمع للعدو يبلغ 300 رجل كانوا يدافعون بكل إصرار عن مدفع لم يستطيعوا سحبه، ويحاولون الحيلولة دون الاستيلاء على القمة، وأنه من أجل الهجوم عليهم يستعد لتركيز (حركته). أجبته بأن ينتظر قدومي، لأنني كنت أرغب في حضور هذا الهجوم. ولتسهيل مهمة (حركته) أمرت بأن تستبدل قواته بقوات من اللفيف الأجنبي (Tercio) على طرفه الأيمن، وبالأبي من فيلق مليلية على يساره بالاتصال مع (المحلة). كان الحدث فائقاً حد العظمة: العدو الكثيف المركز في أعلى قمة الرابية 7 كان يحمي بنار البنادق والقنابل اليدوية المدفع والمدفعيون الموثقون إلى عجلات ذلك المدفع والعاجزون عن الهرب، كانوا يخدمون القطعة التي لم تنقطع عن القصف على مقربة 500 متر من مواقعنا بكل ضراوة، وهذا قائد طويل القامة، قوي، عجوز، ذو لحية عظيمة بيضاء، واقف من غير أن يستتر ولا أن يبحث عن حماية، وبعضاً ضخمة بيده، كان يشجع الجند ويوقف بضرباتهما المترددين منهم. وتأثراً مني بشهامة ذلك الشيخ طلبت من (Varela) ومن ضباط (الحركة) قبل الانطلاق في الهجوم أن يحاولوا القبض على ذلك الرئيس الباسل حياً، وكنت أنوي تعيينه قائداً (لحركتنا) في ذلك اليوم، إلا أنني لم أستطع تنفيذ رغبتى.

«فقد انقضَّ الكومندان (Varela) محاطاً بضباطه الأشاوس، قاذفاً بنفسه القنابل اليدوية في اندفاع أعمى، وفي لحظات وجيزة، أصبحت جهود العدو البطولية مقضياً عليها، وأصبح المدفع ومنظار

وأنا أحس بتأثر عميق واحترام إزاء استشهاد ذلك المؤمن المحارب، المدعم بعقيدته الدينية. كيفما كانت ديانة الرجل، فإن اعتقاده فيها، هو أقدر قوة. إن المؤمن بالله، والمحارب الذي يستعد للمعركة وهو لا يفكر إلا في الله ويصطحب معه إلى الخنادق كتابه المقدس، لهو سائر بقوة وبقدرة لا تشبهها إلا تلك القوة التي تمنحها فكرة الوطن».

على الساعة السابعة وثلاثين دقيقة (من يوم 30 غشت) بدأت الزحف في آن واحد جميع القوات: فرقة (Franco) على الميمنة متجهة صوب (Monte Palomas) لغاية الرابية 8، وفرقة (Goded) في الوسط، وكههدفين معينين لها: الرابية 7، والجبل المخروطي (Monte Conico)؛ وكان فرقة (Verra) على المسيرة هادفة (Tara Mara) و(بوجيار).

كانت فرقة (Franco) هي التي لاقت في مبدأ الأمر مقاومة أكثر، وذلك لوعورة أرض (Monte Palomas) ولوفرة العدو المحصن به، وفي هذه المعركة سقط جريحاً الليوتنان كولونيل (Munoz grande) الشجاع الذي كان يقود (حركة سبتة)، وهو أحد الضباط الإيجابيين البارزين من جيوشنا في المغرب».

مثال نادر بين البطولة:

«على الساعة التاسعة وخمس وخمسين دقيقة (من صباح اليوم التالي) أخبرني بواسطة الهاتف الضابط المكمل بأعلى الأوسمة

البطارية والعديد من القذائف والبنادق في حوزتنا، وسقط عدد هائل من الجثث، ومن بينها جثة ذلك القائد الذي انكب على ظهره ووجهه إلى الأرض بعصاه الغليظة في يمينه ولحيته البيضاء المعفرة بالدم، وبعينيه المفتحتين وكأنه ما يزال يكهرب بنظراتها الشرسة المحارين الشجعان من جنده الذين دافعوا بجلد حائلين دون الصعود إلى قمة الرابية 7».

«أحدث النصر العنيف لهذا اليوم انهياراً معنوياً في صفوف العدو. ومن الجانب المادي قدم حلاً لمشكلة التزويد بالماء الذي عثر عليه بكمية وافرة بوادي (بوجيبار)».

الهجوم على اجدير :

«على الساعة العاشرة والنصف (من يوم 1 أكتوبر) وبعد عبور (Isly)، فإن القوات الاسبانية، وطئت لأول مرة تراب بني ورياغل القبيلة المخيفة التي لا تقبل الهوان، قلب التمرد، والتي لم تلجأ قط إلى القتال للدفاع عن ترابها هي».

«على الساعة العاشرة وخمس وأربعين دقيقة... وبعد طرد العدو في هجوم عنيف عن الدور التي كان يحتلها، احتلت الأهداف المعينة، وقامت (الحركة) بالاستيلاء على رشاشتين كان يقوم على خدمة إحدهما ثلاثة من الأهالي القادمين من أحد الفيالق الفرنسية للقناصة الجزائريين، الذين واصلوا القصف من أحد

منازل (اجدير) حتى بعد أن تجاوزتهم الموجة الأولى من غارة (الحركة) التي كنا نسير في مؤخرتها الكومندان (Varela) وأنا صحبة بعض الضباط. وقد استعملت لإخضاع هذه الرشاشة وأسر عمالها، كوكبة كاملة من (الحركة) وفي غرفتي العربية التي تكون متحفي الصغير عن ذكريات المعركة، تظهر هذه الآلة وتحتها العبارة التالية: «من حركة مليلية» إلى الكونيل (Goded) بحيث إن من لم يعيش الحادث لا يخطر بباله الحلق البالغ الذي حاول به خدم تلك الآلة أن يعدمونا من على مسافة أمتار قليلة، قبل إخراجهم إلى الأبد».

.....

«وعند الساعات الأولى من صباح يوم 2 أكتوبر، وبعد استطلاع للميدان الواقع بمؤخرة المواقع المحتلة في اليوم السابق، علم أن الخلية الرئيسة لقوات العدو قد انسحبت بحيث لم تترك غير حرس قليل».

.....

احتلال اجدير :

«أصبحت (اجدير) تحت أقدامنا بغوطتها الغنية، وقد كانت عرين ابن عبد الكريم لسنوات عدة، وقلب الثورة الذي نظمت به كل الضربات والهجمات التي تسببت في الكثير من القلق والدماء لإسبانيا، كما كانت مكان الأسر والتعذيب لأسرانا التعساء».

«لم يستطع الرئيس ولا أفراد القوة كلها أن يقاوموا إغراء جعل العدو يشعر بانتصارنا وقوتنا، فانطلقنا ندوس بأقدامنا ونغير على القرية التي كان اسمها يذكر مقروناً بالألم والحد من طرف سائر جيوش المغرب واسبانيا، وبالأخص منزل ابن عبد الكريم الذي كان يقف متحدياً بشكله وحجمه الذي يعلو على بقية الدور والمنازل في هذه القرية. وإدراكاً مني بأن إنهاك معنويات العدو يقدم الغنيمة سهلة، ولو أن ذلك لم يكن يدخل في نطاق المهمة والتعليمات المعطاة لفرقتي، أردت أن أقدم لجيوش المغرب واسبانيا تلك المرصاة.

كان بفرقتي بعض الضباط الذين ذاقوا مرارة الأسر بأجدير، من بينهم الليوتنان (Civantos) من قلم المراقبة بمليلية؛ شاب قوي، بسيط، لم يتقطع طيلة عمليات النزول عن الإعراب عن رغبته الشديدة في أن تدخل فرقتنا هي الأولى إلى أجدير.

وقد كاد قلبه يطير شوقاً عند رؤية المنزل الذي كان أسيراً به وهو يربني إياه من على قمة (Rocosa).

وإبقاء للوحدات منظمة على الخط الذي يمثل حد الجبهة المرسوم للفرقة، سمحت بأن تتفرد منها دوريات من عشرة إلى اثني عشر رجلاً صحبة ضباط وضباط صف للإغارة على أجدير. وقد استمرت الغارة طيلة اليوم رأت بعده جميع الفرقة بفرحة مشروعة، منزل الثائر الصارم البغيض وهو يحترق كمشعل هائل لانتصارنا. وقد جمعنا منه: خمسة مدافع، وعدداً هائلاً من البنادق، والذخائر

والأمتعة من جميع الأصناف، حتى (فونوغرافا) وكمية وافرة من المواد الغذائية بحيث أصبحت الفرقة في غنى عن التموين لعدة أيام.

مسير مكتبة الأمير محمد:

«وقد سقطت في أيدينا، ونقلت بكامل العناية إلى مليلية، المكتبة العربية الجديرة بالذكر، التي استطاع أن يجمعها أخو ابن عبد الكريم والتي قامت جماعة من الصحافيين (بغارة صغيرة) عليها في اليوم التالي لمعرفة كتبها التي جمعت بمركز قيادتي في إحدى (دور اجدير)».

.....

(إن العدو قد أصبح منهار القوى، فر للجوء إلى الأماكن الوعرة من جبل الحمام، ولم يبق إلا بعض المتعصبين يضايقون قواتنا التي أصبحت تنفس بكامل الحرية في نواحي اجدير وجميع غوطة السواني)».

.....

«انتهت عمليات الحسيمة باحتلال جبل (زفزافن) يوم 13 من أكتوبر، وذلك مما أدى إلى ربط (Larocasa) بأمقران، وأعطى الإشارة للبدء منذ ذلك التاريخ لمرحلة صعبة من الاستقرار فيما أصبح يُدعى (بمنطقة اجدير)، تلك المرحلة التي استمرت لغاية فصل الربيع المقبل عندما بدأت قوات الجنرال (Sanjurjo) الذي

أصبح مقيماً عاماً وقائداً أعلى للجيش، الحملة الفعالة التي أدت إلى سقوط الزعيم الريفي، وذلك بتعاون عسكري ودي مع القوات الفرنسية».

الحملة الربيعية ضد ابن عبد الكريم

(سنة 1926) :

«بتراجع الخط العسكري للعدو أكثر إلى الوراء، ونقل المعسكر العام لابن عبد الكريم من (اجدير) إلى (تماسنت)، فإن النظام العسكري والسياسي النادر، أصبح سالماً، وبقيت القبائل المتمردة خاضعة لابن عبد الكريم، واستمرت القوات المتمردة - وإن كانت قد فقدت أكثر من ألف من خيرة رجالها - تتألف من 60000 مقاتل منظمين تمام التنظيم. ولم يستسلم أي واحد من الرؤساء المتمردون ولا أية قبيلة، لأن النزول بالحسيمة لم يسمح إلا باحتلال جزء صغير من قبيلة (بقوية) يمثل ازيد بقليل خمسة كيلومترات مربعة، والمساحة الصغيرة من الأرض التي تضم جبال (امقران) و (Rocosa) و (Adrar seddun) التي احتلت أثناء عمليات يومي 1 و 2 أكتوبر 1925 من قبيلة بين ورياغل.

«ومن 66 قبيلة التي تشكل منطقة حمايتنا، لا تزال 40 قبيلة متمردة، وعشر لم يستسلم غير جزء بسيط منها: وهذا يعني أن أكثر من ثلثي المنطقة لا يزال ثائراً».

«في حملات 1926 و 1927، ووجه في الحقيقة حل المشكل، وهو جم في العمق، جميع التنظيم الثوري الواسع، القوي، الذي أسسه ابن عبد الكريم. وإذا لم يقع الإحساس الألم في إسبانيا كما وقع في عصر سابق، بمفعول هذه العمليات لسنتي 1926 و 1927 التي تكون في الحقيقة حملة واحدة بهدف واحد هو (الاحتلال النهائي للمنطقة) فلأنه ابتداء من يوليوز 1926 أصبح يقوم بالنشاط الحاسم في المعارك، قوات الأهالي والفيلق الأجنبي دائماً، وبالأحرى، القوات الخليفة و (حركة بني ورياغل) التي وقع على كاهلها الجزء الأكبر من العمليات الدموية لسنة 1927 في (جباله)، الأمر الذي وفر علينا ببخل حقيقي دماء الجنود الإسبانين الواردين من التجنيد الإجباري، بحيث لم تستعمل وحدات شبه الجزيرة تقريباً، إلا في حاميات المدن والمعسكرات والمراكز الأقل خطراً، مما جعل الخسائر في الأرواح لهذه القوات قليلة».

.

«في ديسمبر 1925، وقعت محاولة ابن عبد الكريم بواسطة القبطان (Gordon Caning) للفوز بتطلعاته في سلام يضمن له السيطرة الفعلية على الريف، مستغلاً الملل الحاصل لكل من فرنسا وإسبانيا في القتال، وذلك تحت سنار إعطائه حكماً ذاتياً ظاهرياً، أو على الأقل بهدف ربح الوقت والتأثير على الرأي العام في كل من القطرين اللذين يرغبان في تجنب توضحيات جديدة. كان العرض المقدم من ابن عبد الكريم للوصول إلى السلام يتضمن النقط الجوهرية الآتية:

1 - إنشاء دولة مستقلة في الريف تحت طاعة سلطان المغرب.

2 - تعيين حدود هذه الدولة.

3 - السماح للأجانب باستثمار مناجم الريف، مع تسديد ضريبة 12 % لحكومة الريف.

هذه الاقتراحات الغير مقبولة والمتعارضة مع الأوافق الدولية القائمة حول المغرب، كان مصيرها الرفض من طرف الحكومتين معاً.

«واقتناعاً من حكومتي فرنسا وإسبانيا في النهاية بالضرورة لاستئناف العمليات العسكرية سنة 1926 لإمكانية حل مشكل أصبح يثقل بصفة مستمرة وقلقة كاهل القطريين معاً، بدأت محادثات جديدة بهدف الوصول إلى تعاون عسكري حقيقي. وفي فبراير 1926 قدم الماريشال (بيتان) بكامل السلط إلى (مدريد) حيث أسفرت نتيجة السفر عن الاتفاقية الفرنسية - الإسبانية بتاريخ 6 فبراير من نفس السنة، والتي تنقل فيما يلي نقطها الجوهرية:

«الاتفاقية المتعلقة بتعاون إسبانيا وفرنسا

في شمال المغرب سنة 1926»

اعتبارات عامة :

إن العمليات العسكرية الموحدة للقوات الإسبانية والقوات الفرنسية خلال صيف وخريف سنة 1925 في منطقة اجدير، وعلى

الروابي المؤدية إلى الريف، سمحت بتأسيس قواعد جديدة مورست منها حركة سياسية شديدة على القبائل المناخنة...

إلا أن هذه الحركة لم تتسع بصفة مطلقة. إنها مرتبطة بالضرورة بقاعدة من المصلحة أن تبقى قريبة ما أمكن. وفعلاً فإن الحماس القتالي للقبائل الخاضعة، يتطلب لتدعيمه ألا يلقي بالأنصار منها بعيداً عن المراكز التي يجدون فيها تأييداً محتملاً من القوات النظامية. ومن جهة أخرى، فإن القبائل المتمردة، لا يمكن إبقاؤها تحت رهبة أسلحتنا إذا انمحت لديها ذكريات عمليات القوة التي كشف بواسطتها عن الطاقة المادية للقطرين معاً.

يستنتج إذن أنه من الحكمة الاحتياط والإعداد من الآن لعمليات عسكرية بحيث إذا جرت في اللحظة المواتية فإنها تسمح بتوطيد النتائج المكتسبة، وتأسيس قواعد أكثر تقدماً لفائدة حركة سياسية لاحقة.

صفة العمليات العسكرية التي سيشرع فيها سنة 1926 :
إن العمليات التي ستحقق نتيجة لذلك، يجب أن تستهدف بذل مجهود محسوس من طرف القوات الإسبانية والفرنسية، للوصول إلى أراضي بين ورياغل الحصن الحصين لقوة ابن عبد الكريم.

تتضمن من الجانب الإسباني :

1 - هجوماً منطلقاً من (اجدير) محاذياً للخط المائي الفاصل بين (غيس) و (النكور)، ويكون هدفه احتلال المنطقة

الأقرب من المنحدر الشمالي لجبل (الحمام)، شاملاً نحو الغرب، الضفة اليسارية لنهر (غيس) في اتجاه (ترجيست).

2 - هجوماً آخر يستهدف بصفة رئيسية إخضاع (بني توزين)، وتوحيد الجهود في بعد مع القوات العاملة في (بني ورياغل) وفقاً للبند الأول. ويكون هذا الهجوم مسبقاً بعمل تحضيرى ينطلق من (عزيب ميدار) وينتجه نحو (سوق ثلاثاء ازلف) للاستيلاء على خط (كرت) كقاعدة للانطلاق.

3 - هجوماً ينطلق من مليلية ويتجه نحو بلاد (تمسان).

ومن الجانب الفرنسي:

1 - حركة اتصال تنطلق من (باب السلطان) لغاية المرتفعات الواقعة في الجنوب الشرقي من (سوق اربعاء النكور) (اربعاء توريرب)، وذلك بقصد تسهيل تقدم الهجوم الإسباني على (بني توزين)، وستمتد هذه الحركة لاحقاً على الضفة اليسرى لنهر (النكور) حتى تصل إلى مرتفعات (Timerzga).

2 - هجوماً مركزياً ينطلق من رواي الناضور إلى أن يصل سوق النكور الأعلى متجهاً فيما بعد نحو الناحية الجنوبية من (جبل الحمام).

3 - وفي الجناح الأيسر لهذا الجهاز، يقع التقدم نحو منطقة
(ترجيس) بهدف القيام بمحاصرة أراضي (بني
ورياغل) من الجنوب الغربي.

.....

القيادة:

يهيئ كل من الضباط العامين قواد القوات الإسبانية
والفرنسية في المغرب جدولاً للعمل في إطار هذه الاتفاقية، ويتفقون
فيما بينهم على ضمان تحقيقه.

الجيش:

يصل عدد القوات التي ستوضع رهن إشارة هذه العمليات
في كل من الجيشين حوالي 25000 رجل (بما في ذلك عربات
الهجوم، والمدفعية، والطيران... الخ).

المواعيد:

يمكن أن تبتدىء هذه العمليات في يوم 15 ابريل من جانب
القوات الفرنسية وفي فاتح ماي من جانب القوات الإسبانية.

.....

قنبلة تطوان:

كان من اللازم حل المشكل الذي كان مطروحاً بشكل
معنوي حاد، والذي كان يتمثل في قنبلة عاصمة المحمية بواسطة
مدفع أقامه العدو في جبل (بوزيتون) (مرتفع في جبال بني حزمار)

ولذلك قرر (الجنرال سانخورخو) القيام بعملية لاحتلال هذه المرتفعات والتمكن من ذلك المدفع. كان هذا المشكل معضلة هندسية. وحسب رأينا، فإنه إذ لم يطرح في الدوائر المناسبة في تاريخ ملائم، فإن هذه القطع الموضوعة في إحدى مغارات قمة جبل (بوزيتون) على مسافة تزيد عن ثمانية كيلومترات، لا يمكن أن تهزم نظراً لقصر مدى المتابعة من طرف مدافع الميدان، ولمحاولة القضاء على هذه القطع، أقيمت بضواحي مدينة تطوان بطارية من مدافع (الأوبوز) عيار 15.5، وبواسطة هذه القطع أمكن الوصول إلى المدى المطلوب؛ ولكن حيث إن هذه القطع كانت من سلاح (الأوبوز) فإن انطلاقها المنحني وحيدة زاوية هبوط قنابلها، لم تمكن من دخول القذائف في فوهة المغارة، كما لم يكن في الإمكان ضرب المغارة بواسطة الطيران نظراً لأمر العمودي للطائرات... ولكن بعد مرور خمسة أشهر وتفاقم الحالة لدرجة جعلت الأهالي المسلمين يطلبون السماح لهم بإقامة الصلوات من أجل التخلص من هذا الخطر الموتر للأعصاب، فإنه في شهر فبراير لم تعد هناك حاجة للجوء إلى حل هندسي للمعضلة، وأصبح الأمر يتطلب - كحل وحيد - الصعود إلى الجبل والاستيلاء على هذا المدفع، وهكذا وقع حل المشكل من جانب (سانخورخو).

.....
«بدأت العملية في فجر يوم 4 مارس 1926».

.....
«وقد انتهت بكل الروعة يوم 6 باحتلال جبل (بوزيتون) من طرف فرقة (Orgaz).

«وعند استسلام قبيلة (بني حزم) فيما بعد ذلك نتيجة العمليات الشتوية من سنة 1926-1927، فرض كشرط من شروط الاستسلام من طرف المفتشية العامة للمراقبات، أن تقوم القبيلة نفسها بنقل ذلك المدفع من الأعالي التي كان مقاماً بها إلى مدينة تطوان حيث أطلق عليه جنودنا إسم (El Felipe) وقد بقي معروضاً في ساحة إسبانيا (الفدان)، أو ساحة الحسن الثاني الآن بتطوان.

مؤتمر وزان: 17 مارس 1926 :

«لإتمام برنامج العمل المعد لمعركة فصل الربيع في الريف طبقاً لفقرة: «القيادة» من الاتفاقية الفرنسية-الإسبانية بتاريخ 6 فبراير 1926، وقعت في وزان (المنطقة الفرنسية) بتاريخ 17 مارس، محادثات بين القيادات العليا للجيشين. وقد حضر هذه المحادثات:

من الجانب الفرنسي:

الجنرال (Boichut) القائد الأعلى للقوات الفرنسية.
والجنرال (Georges) رئيس القيادة العليا للماريشال (Petain) للشؤون المغربية.
والجنرال (Héllé) رئيس القيادة العليا للجنرال (Boichut).
والجنرالان (Freydemberg) و (Dosse).
والكومندان (Civout) من فرقة العمليات بالقيادة العليا بالرباط.

ومن الجانب الإسباني :

الجنرال (Sanjurjo) .

والجنرال (Goded) .

والكولونيل (Orgaz) .

والليوتنان كولونيل (Aranda) من فرقة العمليات بالقيادة العليا بتطوان .

والدبلوماسي السيد (Aristegui) من النيابة العامة للإقامة .

مفاوضات وجدة :

«بينما كانت هذه الاستعدادات للهجوم الفرنسي - الإسباني الكبير قيد الدرس، فإن ابن عبد الكريم، أراد أن يوقف الضربة بإحداث الفرقة بين البلدين، وذلك بعرضه السلام على فرنسا على وجه الخصوص، ذلك العرض الذي نتجت عنه مفاوضات وجدة .

«إن معرفة هذه المحاولة رسمياً، وقعت بواسطة رسالة موجهة من طرف المقيم العام الفرنسي السيد (Steeg) إلى حكومته كشف فيها على أن القائد حدو الكحل تقدم في (توريت) للمراقب المدني السيد (Gabrielli) معرباً عن رغبة ابن عبد الكريم في الوصول إلى سلام مع فرنسا، ثم استئناف المساعي فيما بعد مع فرنسا وإسبانيا معاً .

وبعد تباحث الحكومتين - مع اقتناعهما المسبق والمؤكد بعدم جدوى هذه المباحثات، وخوفاً من تمكن ابن عبد الكريم من ربح الوقت لا غير - قبلنا البدء في المباحثات بهدف عدم إضاعة أية إمكانية للحيلولة دون إراقة الدم، ولإطلاع الرأي العام في البلدين على أنه لا يلجأ إلى العمليات الحربية إلا في آخر المطاف.

بتاريخ 9 ابريل، قبل عرض مباحثات السلام بصفة رسمية من طرف الحكومتين الفرنسية والإسبانية، واتفق على أن تجرى في وجدة (المنطقة الفرنسية)، وقد عين مندوبين عن فرنسا: الجنرال (Simon)، والسيد (Ponsot) نائب مدير الشؤون الافريقية بوزارة الشؤون الخارجية، والسيد (Duclos) مدير الشؤون الأهلية في الإقامة العامة بالرباط، وعن إسبانيا: السيد (Lopez Olivan) رئيس قسم بالمديرية العامة للمغرب، والكومندان (Aguilar) من المفتشية العامة للمراقبات بتطوان، والقبطان (De Miguel) أحد قوادنا اللامعين بمصلحة المراقبات، وعن ابن عبد الكريم: السيد محمد ازرقان (El Pajarito) المعين كوزير للشؤون الخارجية لحكومة الريف، والقائد حدو الكحل، والسيد أحمد الشدي.

وقد حددت الحكومتان الفرنسية والإسبانية باتفاق بينهما كشروط مسبقة للمباحثات:

أولاً: طاعة السلطان.

ثانياً: إبعاد ابن عبد الكريم.

ثالثاً: تجريد القبائل من السلاح.

رابعاً: تبادل الأسرى.

خامساً: وقف الاعتداءات، مع تمكين القوات الإسبانية والفرنسية من تحقيق اتصالهما عند (كرت).

لقد قبل شرط إيقاف الاعتداءات، ونفذ بنظام قل نظيره من جانب الريفيين، ولم يقبل شرط السماح لقواتنا بالاتصال فيما بينها عند (كرت)، ذلك الشرط الذي لم يقع الالتحاق عليه لإعطاء دليل آخر على روح المصالحة.

جرت المفاوضات ابتداء من 18 ابريل في (Camp Berteaux)، والعيون، ووجدة على التوالي متقطعة عدة مرات بدعوى استشارة المندوبين الريف مع ابن عبد الكريم، إلى أن أعلن الجنرال (Simon) بتاريخ 7 ماي من اعتبار المفاوضات منبهة، وقطع الهدنة نتيجة رفض المندوبين الريف بصفة نهائية للشروط الأساسية للخضوع للسلطان وإبعاد ابن عبد الكريم، وحصر تسليم الأسرى في الوعد بتسليم الجرحى والمرضى والنساء والأطفال لا غير.

لقد قبل قطع المحادثات من طرف المندوبين الريف على ما يظهر برضى ظاهر، وقد فاه السيد محمد أزرقان عندما ابلغه الجنرال «سيمون» أن المحادثات أصبحت متوقفة، وأن الهجومات يمكن أن تستأنف ابتداء من يوم 7، بجملته المعروفة: «نقبل قطع المفاوضات بفرح وسرور».

.....

«يشرح ابن عبد الكريم في مذكراته التي نشرها (Roger Mathieu) فشل مفاوضات وجدة بالعبارات الآتية: «في وجدة

أملت علينا، وعلى غير انتظار، مطالب جد صارمة لم يسبق
التحدث عنها من قبل. كان علي أن أغادر الريف، وأن أنفي من
المغرب، لم يعرف مندوبونا هذه المطالب إلا بعد وصولهم إلى
(تاويريرت) لم نكن نرى أنها من وحي فرنسا. كنا على اقتناع دائم
بأن فرنسا لم تكن مرتبطة في سيرها مع إسبانيا، هذا ما قيل لنا
دائماً، وأعيد قوله...».

.....

«في يوم 6 من ماي، قد أوشكت مفاوضات وجدة على
الفشل، أمني من طرف القيادة العامة بتطوان الأمر العام الآتي لبدء
العمليات في الوقت الذي سيعين...».

الأمر العام الآتي لبدء العمليات في الوقت الذي سيعين...».

1- موضوع وأهمية العملية: تهدف العملية إلى كسر
جبهة (ايبيرلوقين) «Iberloken» واحتلال هضبة (أزغار)، و(رابية
الأولياء) أو (كدية الصالحين) Loma de Los Morabos.

.....

«اكتسبت جبهة (ايبيرلوقين) التي حصّنها الريفيون بعد استقرار
قواتنا بأجدير في شهر اكتوبر 1925، نظاماً وقوة شبيهين بالجبهات
الدفاعية للحرب العظمى.

كانت تتكون من خط متواصل من الخنادق التي كانت تنبسط
ابتداء من (الجل المخروطي) Monte Conico في الغرب عند منابع
(ايبيرلوقين)، على الروابي جنوب هذا النهر، موازية للمسلك

المعروف بـ (مسلك الأساري) من (اجدين) إلى (آيت قمرة) ومستندة في وسطها على (ملجأ الأساري) Casamata De Prisoneros، وفي ميمتها، على البحر في مقابل (قلعة المجاهدين) عند مصب (ايرلوقن)، كان خط الخنادق هذا يحتوي على مستقرات محفوظة من الرشاشات، وأقية المدفعية والطيران. وكان هناك خط ثان للمقاومة حيث توجد مستقرات المدفعية، يستند إلى (رابية الأولياء) و (رابية الخنادق)، وهضبة (ايرخوطن) و (أزغار)، وهذه المجموعة من المرتفعات هي الحد الفاصل بين (ايرلوقن) و (دفيش)، وتكون الحاجز الحصين الذي يدافع عن (تماسنت) حيث أقيم المعسكر العام لابن عبد الكريم».

.....

معركة (كدية الصالحين):

«على الساعة السادسة من صباح يوم 8 ماي، بدأت فرقنا (فيكس) Fixer و (ضولا) Dolla هجومها انطلاقاً من منطقتي La Rocosa, Calvet على التوالي، وقد لقيت فرقة Fixer مقاومة شديدة، وهوجمت ميمتها بكل شراسة، الأمر الذي دعاها لأن تنشر على هذا الجانب جزءاً من قواتها التي تجشمت الكثير، وبالأخص كتية القناصة الأفارقة رقم 8 التي قاومت بكل شجاعة هجوم العدو على هذا الجانب، بالرغم من الخسائر التي منيت بها، من بينها قائدها الكولونيل الذي جرح جروحاً بليغة».

.....

«كان ميزان الخسائر في هذه الحملة: 30 ضابطاً، و 510 من الجنود، بينما لم تتقدم الجيوش أكثر من 3 كيلومترات في العمق. وقد أثبتت هذه النتائج الضئيلة المحرز عليها بالمقارنة مع المجهود المبذول والخسائر المترتبة في الأرواح، متانة الخط المحصن للعدو، وعزمه الأكيد على الدفاع.

«وعلى الساعة الثامنة والنصف من صباح اليوم 9 ماي، بدأت الفرقتان هجومهما من جديد».

.

«كانت مقاومة العدو أكثر عناداً من اليوم السابق».

.

«على الساعة الثانية والنصف، فهم الجنرال «سانخورخو» بأن هذا الهجوم لا يمكن أن يتم بإعداد مدفعي كاف نظراً لقلة الوقت من جهة، وصعوبة تحقيقه من طرف حشد Varela الذي كان عليه أن يعمل تحت شروط قاسية من سعة الميدان وانكشافه لمدفع العدو من جهة ثانية، فأمر بإيقاف العملية.

وعند غروب اليوم 9 ماي، كان توازن القوى أقل إرضاء. لم يقع في هذا اليوم، غير أن وطئت قواتنا تراب (كدية الصالحين) ورغم وقوع الكثير من الخسائر في جحافل اجدير: 51 ضابطاً، 761 جندياً، فإنه لم يتوصل فيما بين يومي 8 و 9 من كسر الخط»

.

«وعند الشروق من صباح يوم 10 بدأ حشد Varela من فرقة Balmes الهجوم على مراكز (كدية الخنادق) بعد إعداد مكثف

للمدفعية والطيران. وفي نفس الوقت قامت (حركة تطوان)،
و Regulares de Melillay بهجوم على (كدية المدفع)، وعلى الساعة
9 وخمس وأربعين دقيقة، كان الهدفان معاً في حوزتنا».

.

«وقد كلفت هذه العملية جحافل اجدير: 25 ضابطاً، و352
جندياً، إلا أن النتيجة كانت حاسمة فقد وقع خرق جبهة
(ابرلوقن)».

.

«وقد سمي مجموع هذه الأيام الثلاثة: 8 و9 و10 من ماي
من طرف المراسلين الحربيين الأجانب، وفي الأعمال المنشورة في
المجلات المختصة (بمعركة رابية الأولياء)».

.

«وقد كلفت معركة كسر هذه الجبهة: 36 ضابطاً، و1113
جندياً».

.

«لقد وقعت الواقعة، حسب قولة (نابليون)».

.

«ابتداء من ليلة 7 إلى 8 من شهر ماي، بدأ الهجوم على
الجبهة الفرنسية باستيلاء الفرقة الثالثة على جبل Rokbaba (ركبابة)
حيث اتصلت بالجيوش الاسبانية، وفي الأيام من 9 إلى 11، قامت
الفرقة الثالثة بزحف عام استولت فيه على جبل Tahurt الحد
الفاصل بين (كرت) و(النكور)، كما استولت الكتيبة المغربية على
جبل Izkritin. إن هذا الهجوم من طرف فصيلة الهجوم التابعة

للكتيبة المغربية تحت قيادة الكولونيل Kieffer، يمثل أحد الفصول الرائعة والدامية في هذه المعركة بالنسبة للجيش الفرنسي بالمغرب. لأن هذا المرتفع الجبلي بارتفاعه الذي يبلغ 2000 متر، يغطي من جهة الجنوب الوادي الأعلى للذكور، ويكون الحارس المتقدم لأراضي (بني ورياغل) جنوباً، والذي أمر ابن عبد الكريم بتحصينه كأقوى ما يكون التحصين، والدفاع عنه مهما كلف الأمر. وقد تحمل كل من (كوم) القبطان Schmidt والمشايين الجزائيين للقائد المذبوح، واللفيف الأجنبي للواء الأول، صراعاً قاسياً لتحقيق الاستيلاء على هذا المعقل، لأن الريفيين بعد مقاومة عنيدة، انقضوا عدة مرات في هجومات مضادة جسماً لجسم. وإن اسم جبل Izkritin سيقى يرن ابتداء من يوم 9 ماي 1926 في آذان الفرنسيين بتأثر.

وصلت الفرقة الأولى (Vernois) في يوم 10 إلى المرتكزات الجنوبية من جبل (Rokdi) وفي الجانب الغربي، وصلت حشود فاس يوم 11 صحبة الفرقة الرابعة والفرقة 128 إلى قلعة (Bukorra) (وزاوية مولاي عمران) في بلاد (مستارة). وتقدمت الفرقة الثانية في (بني ورياكل) و(فناسة)، رابطة اتصالها بالفرقة الأولى من حشود تازة عند (تفراوت)».

.

«وفي يوم 15 ماي، قامت حشود اجدير بتجديد هجومها».

.

في انتظار رجوعنا:

وقد استولى فرسان Ponte في زحف سريع على (سوق اثنين بني بوعياش)، وقد أظهر العدو بعض المقاومة خصوصاً إزاء الفرسان. وقد كلفت العملية: 5 من الضباط، و 50 جندياً.

وعند استيلاء قواتنا على ضريح (سيدي يوسف) - وهو ضريح مقدس في قبيلة بني ورياغل - وجدت به كل الزراي، و(الحياطي)، وأدوات العبادة لدى المسلمين، دون التمكن من سحبها، كما وجدت لافتة مكتوبة بالعربية معلقة على الباب فيها:

(الرجاء من المسيحيين ألا يحدثوا ضرراً، في انتظار رجوعنا).

كانت هذه الجزئية علامة على الحالة المعنوية المنهارة لقوى رجال القبائل الذين لم يعد من وجود لغير ظل ابن عبد الكريم بينهم، ودالة من جهة ثانية على ما لقواتنا من مفهوم في نفوس المغاربة حول احترام معتقداتهم وعاداتهم. لقد احترم هذا المطلب البسيط، والمعرض في أصالة ونبل، بكامل الدقة، وذلك بوضع حارس من الأهالي عند باب الضريح».

.

«في نفس اليوم، قامت فرقة Pozar (مجموعة تسمان) بهجوم على (بني سعيد) ابتداء من (Afrau) دون مقاومة كثيرة مخضعة فخذة Tasaguin وبينها القائد عمرو بوعزة أول قواد ابن عبد الكريم الكبار الذين استسلموا لقواتنا.

وابتداء من هذا التاريخ بدأ رجال من أفخاذ (بني تعبان) من قبيلة (بني توزين)، و(آيت يوسف وعلي) من (بني بوعياش) في قبيلة (بني ورياغل)، يستسلمون.

قامت بمساعي قبول الاستسلام، المراقبات العسكرية المختصة بمساعدة فعالة في قبيلة (بني ورياغل) من طرف القائد الشهير سليمان الخطابي (ابن عم ابن عبد الكريم)، وفي قبيلة (بني توزين) من طرف الشاب النشيط: محمد علال محمد أحد القواد الشجعان لبني توزين الذين قدموا لنا خدمات فائقة في مجال نزع السلاح».

.....

«إن الشعار: (رجل بيندية) المحافظ عليه ابتداء من ذلك التاريخ كمبدأ للمفتشية العامة للمراقبات، كان الشرط الوحيد المفروض لقبول الاستسلام، مع المحافظة من طرف قواتنا في مقابل ذلك على احترام أشخاص وأملاك المستسلمين الذين بعد أن اطمأنوا إلى هذه الضمانات، أخذوا يتوافدون بأعداد هامة صحبة عائلاتهم وماشيتهم، وذلك التواجد بالإضافة إلى تسليم السلاح، أصبح يكون ضمانة ثابتة للاستسلام الحقيقي.

احتلال (تماسنت):

وفي يوم 17 ماي 1926، وعلى أثر زحف من جانب حشود اجدير، أصبحنا سادة (تماسنت) المعسكر العام الثاني لابن عبد الكريم».

.....

محبس الريسوني:

«وفي (تماسنت)، وفي المنزل الذي كان الريسوني أسيراً به، أمكننا رؤية تلك الحجرة القذرة التي عاش بها ذلك الشريف المنعم الرقيق الذي كان فيما مضى سيداً لمرتفعات (جباله) وقصور (أصيلة) و (تازروت)».

«لقد أخذ كبار القواد يجذون حذو القائد عمرو بوغزة، وهكذا استسلم أحمد الشدي (أحد المندوبين في مؤتمر وجدة) وحدو بن محمد أمزيان، وذو المكانة بتمسمان علال بن الحاج، ولم يبق في المقاومة سوى بعض الخلايا المعزولة التي لم تعد تتمتع بالتنظيم الكامل الذي وحده قوة لجيوش ابن عبد الكريم.

وبقي السيد أحمد أخ ابن عبد الكريم، وقواد آخرون في مثل قيمة علوش الصديق، وادريس ميمون خويا، وموح حميش، ومُحَمَّد أسدات، يقودون بأنفسهم المحاربين الذين تحملوا ثقل هجومنا.

أما ابن عبد الكريم، فبعد أن فقد ملجأه في (تماسنت) وقيمته الشخصية في قيادة المعارك، فقد اختبأ بادية الأمر في Timerzga جنوب (بني ورياغل)، وأمام هجومات الفرنسيين على هذه الناحية، فقد هرب باحثاً عن ملجأ في (قصة سنادة) في بيت الشريف سيدي احميدو الوزاني إنه يرى قيادته وقد انهارت، أخذ لا يفكر إلا في إنقاذ حياته وممتلكاته المادية المنقولة التي جمعها في (Kemmun) (كمون).

«عندما رأى ابن عبد الكريم نفسه محاصراً بكل شراسة في
عقر داره بالريف، أمر رئيسي التمرد في المنطقة الغربية القائدين
أحمد بودرة (وزير الحربية) واخليرو بالقيام بهجوم في العمق، في
اتجاه تطوان بهدف جعل القيادة تصرف بعض القوات من منطقة
اجدير، معيداً بتلك المناورة، الدور الذي قام به سنة 1925 عند
هجومه على (كدية الطهر).

وقد بدأ الهجوم فعلاً بتاريخ 10 ماي بـ (بني معدان) في
منطقة مراكز (بودارغ)، بواسطة (حركة) قوية من جباله وغمارة».

«وقد احتاج الأمر لإيقاف هذه الغارة» «لأكثر من 5000
رجل».

(وقد أسفرت العملية عن) «21 أسيراً، و78 جثة للعدو».

«وفي يوم 22 ماي، قام الجنرال (سانخورخو) صحبة رئيس
قيادته العليا الجنرال (كوديد)، والقائد العام لمنطقة مليلية الجنرال
Castro Girona – في حراسة قليلة – بأول جولة كاملة من اجدير
إلى مليلية أرضاً، مكرساً بذلك، النصر المحقق، وتوحيد منطقتي
مليلية والحسيعة.

وبتاريخ 23، جاء إلى مليلية، السيد Parent أحد معطوي
الحرب الفرنسيين صحبة الدكتور (Gaud) في مهمة صحية تخص
أسرى الريف، وبمساعي المقيم العام الفرنسي، سلم للجنرال

(سانخورخو) رسالة من ابن عبد الكريم يطلب فيها هدنة «لتفادي إراقة الدم». وقد حمد السيد Parent رسالة أخرى إلى المقيم العام الفرنسي، كما وضعت رهن تصرفه طائفة لتنفيذ مهمته».

.

«وأثناء ذل، على الجبهة الفرنسية قامت الفرق الست لمجموعتي فاس وتازة، بهجوم عام لتضييق الحصار على الريف الأوسط. تقدمت الفرق الثلاث من مجموعة فاس نحو (بني زروال) غير ملاقية مقاومة تذكر. أما مجموعة تازة، فإن فرقها الثلاث، استطاعت أن تستولي يوم 19 ماي بواسطة الكتبية المغربية على جبل (بوزينب)، ويوم 21 بواسطة الكتبية الأولى على جبل (رُكُدي)، ويوم 23 بواسطة الكتبية الأولى أيضاً على ممر (Tizi Ifri) وبواسطة الكتبية الثالثة على قمة (جبل الحمام)، متصلة هناك بالقوات الاسبانية تحت قيادة الجنرال Carrasco وهكذا تحققت «المرحلة الثانية» من هذه العمليات بالاستيلاء على مرتفع (جبل الحمام).

أما «المرحلة الثالثة»: الهجوم العرضي على (ترجيس)، فإنها تبدو أمراً سهلاً بالنسبة للكتبية المغربية التي لم تجد في طريقها أي عائق».

.

استسلام المجاهد ابن عبد الكريم:

«أصبح مصير ابن عبد الكريم مطروحاً، ونهايته حتماً وقضاء مقررة، ويروي Pierre Khorat في كتابه «نهاية عبد الكريم»،

اللحظات المؤثرة لاستسلامه، وشكوكه وتردده في الآونة الأخيرة لانتهار نفوذه، فبمساعي الشريف سيدي حميدو الوزاني الذي حضر إلى (ترجيست)، بعث ضابطان فرنسيان: القبطان سوفران Suffren، وملازم من البحرية مُونطان Montagne لقصة (سنادة)، للاتفاق حول التسليم. وبعد تردد قصير، وبفضل مهارة وجلد هذين الضابطين، بت ابن عبد الكريم في الأمر. وبتاريخ 27 ماي، وبعد أن أعطى أوامره بتسليم الأسرى الفرنسيين والاسبانيين سلم نفسه للجنرال Ibos قائد الكتيبة المغربية في (تيزمورن) على بعد كيلومترات من (ترجيست). وقد حملت فصيلة من الجيش الفرنسي، وكتيبة من السينيغاليين تحت رئاسة العقيد Giraud في (كمون) السيدين: عبد السلام، وأحمد، الأول عم الزعيم، والثاني أخاه، وأبناءهما وزوجاتهما، وكذلك السادة: محمد أزرقان، ومحمادي، وحدو الوزراء المنكسرين لابن عبد الكريم. وقد حملت ممتلكات ابن عبد الكريم على ظهر 200 بغل. وعندما انخرق صندوقان محملان بالريالات الاسبانية أثناء الطريق، أهديا بسخاء للسينيغاليين من طرف أسرة الناثر.

وفي يوم 26، سلم بترجيست: 162 من الجنود الاسبانيين الأسرى مع بعض المدنيين، وأسرى من الجيش الفرنسي».

.....

«أصبح الجنرال (سانخورخو) مقتنعاً بالاستفادة من الوقت، فعزم على متابعة العمليات».

.....

آخر معارك الجبهة الريفية:

«لقد لقيت فرقة Gonzalez Carrasco مقاومة في معركة قاسية بسوق أحد (تيزار) حيث أرادت خلية من الثوار تحت رئاسة القواد: علوش الصديق، وادريس ميمون خويا، وابن دادة من وراء المتراس الطبيعي لمرتفعات الحد الفاصل بين (غيس) و(اسويكن) أرادت هذه الخلية أن تعطي مثلاً لشجاعة محاربي (بني ورياغل) قبل أن تستسلم، فقامت في محاولة يائسة أخيرة، بهجوم عنيف على (حركة مليلية) ومجموعة الجند النظاميين للحسيمة Regulares de Alhucema الذين تحملوا بمساندة كتائب القناصة رقم 16 و 18 طيلة يوم كامل، معركة جد قاسية. كانت هذه المحاولة هي آخر معركة بالجبهة الريفية. إذ في يوم 30 تقدمت فرقنا Mola و Dolla بمساندة فرقة Gonzalez Carrasco لاحتلال جميع فرقة بني عبد الله من قبيلة بني ورياغل التي استسلمت بعد مقاومة خفيفة، كما تلقت فرقة Ponte و Castillo و Balmes استسلام فخذة (تيجديت) Tijidet من قبيلة (بقوية) وقبائل (بني يطففت) و(بني بوفراح). وقد استسلم أيضاً القائدان: علوش، وادريس ميمون خويا، اللذان قادا معركة سوق أحد (تيزار) بعد ذلك بأيام قليلة بعد أن أرضوا الشرف العسكري لمحاربي الريف.

استسلام أحمدو الوزاني:

«وبتاريخ 31 ماي، قدم الشريف سيدي أحمدو الوزاني طاعته للمخزن أمام المقيم العام والمفتش العام للمراقبات وذلك

عند (حجرة بادس)، وقد كان يرافقه: مولاي خالد، ومولاي مصطفى، الأول ابن الشريف الريسوني والثاني أحد أقربائه.

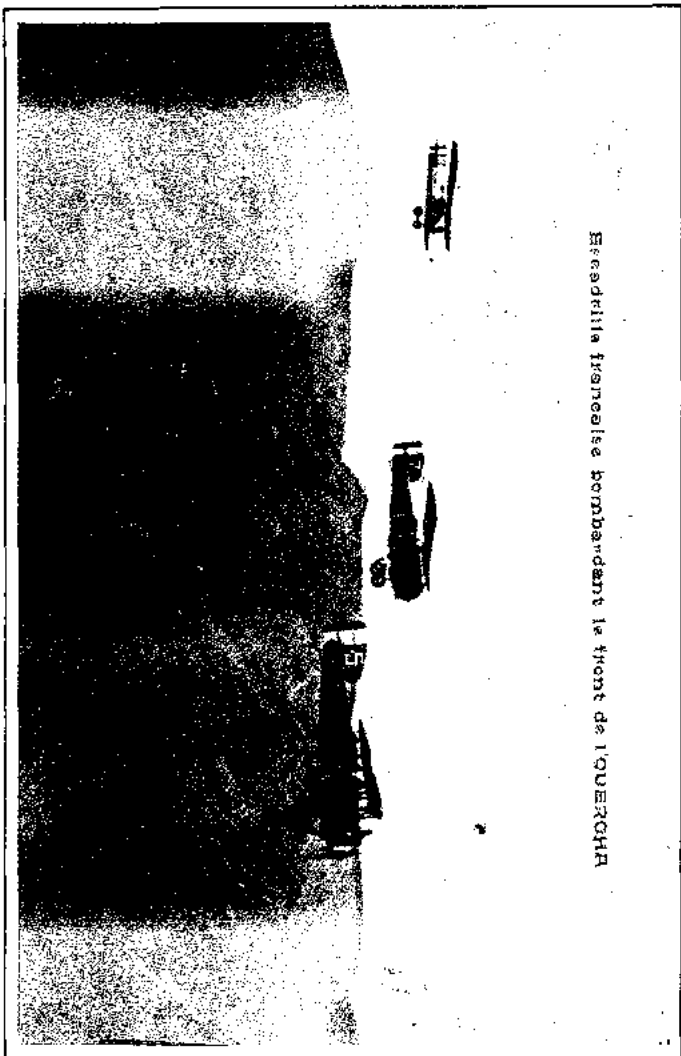
استمرار المقاومة:

«للوصول إلى التهيئة الكاملة، واحتلال منطقة حمايتنا، بقي علينا مواجهة مشاكل غمارة وجباله حيث تستمر المقاومة».



خليج الحسيمة وساحل اجدير

Escadilla francesa bombardant le front de l'OUEROUA



الطيران الفرنسي يقصف جبهة ورقا

ناحية فارحيت



ساحة المسلة يوم 21 ماي 1925 على باب الوند و مولاي عين الحنان



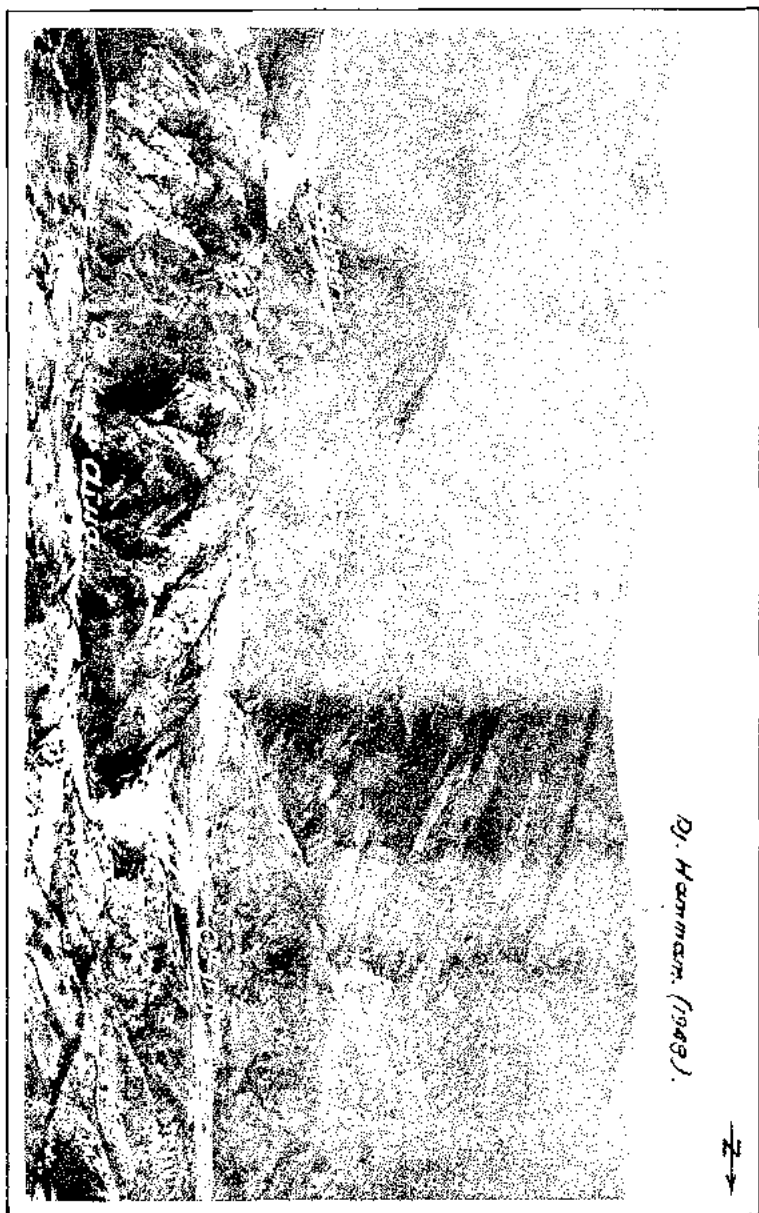
4



Dr. Hammam. (1948).

Dr. Bou Zineb.

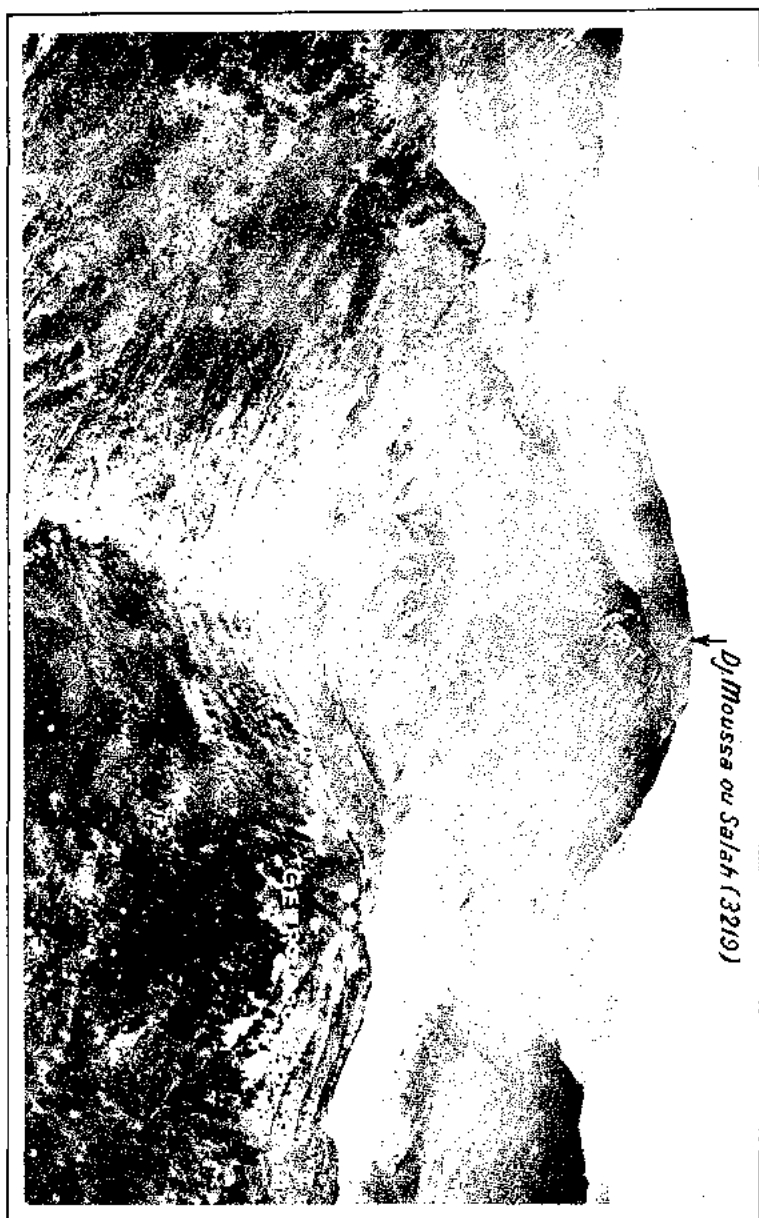
على صفا 19 ماي 1926



Dj. Harimash. (1949).

2

مسح المسالك يوم 19 و 22 ماي 1926



مسح صلبة 15 يوليوز 1926 : تزي تازولت

عمل الصلابة يوم 16 يوليو 1926 : غابة تافوت



أسباب الهزيمة الحربية

إن الأمير محمد ابن عبد الكريم ومن جاهدوا معه طوال سنوات ضد اسبانيا ثم ضد فرنسا منفردين، تارة، ومتحالفين، تارة أخرى، لم تعوزهم إرادة القتال حين اضطروا إلى إلقاء السلاح، فقد رأينا أن الأمير الخطابي وقتما التجأ إلى دار الشريف سيدي حميدو الوزاني أراد أن يستعد لمواصلة الحرب، وكذلك تجلّت إرادته وصلابته كقائد حربي في حديثه مع البعثة العسكرية الفرنسية بتاركيست، كما أنه لم يعوزه السلاح، فقد طلب من سيدي حميدو 350 بغلاً لنقله إلى حيث أراد لمواصلة الجهاد مع رجاله، وايضاحاً لهذا ننقل ماورد في كتاب فرنسا، واسبانيا، والريف الصادر في 1927 «لوالتيرها ريس»، الصحفي الإنكليزي الخبير في شؤون المغرب عامة، وشؤون ثورة الريف خاصة، من أن الأمير الخطابي قد كان يملك عند استسلامه 135 مدفعا، وأكثر من 40 ألف بندقية، و 240 رشاشة أوتوماتيكية، وكميات كبيرة من القنابل والذخائر كلها غنمها المجاهدون من الاسبانيين والفرنسيين في ساحات القتال.

وبالإضافة إلى هذا كله، لم يعوز الأمير ابن عبد الكريم

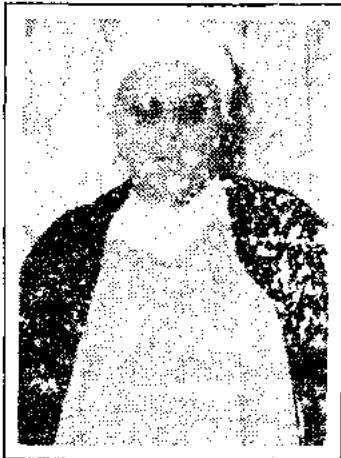
المحاربون الأشداء، فقد رأينا كيف كان بعضهم يندفعون نحوه وهو يغادر تاركاً مقلبين ركبته، وثيابه، بل كانوا يرتمون على الأرض في طريقه إخلاصاً ووفاء، وتقديراً وإكباراً، وتعلقاً وانقياداً، وقد أعطى هذا للحاضرين، وكذلك للفرنسيين، خير مثال، وأقوى برهان يقدمهما المجاهدون في أخرج الظروف، وأعسر الساعات لقائهم الأسير.

الحقيقة هي أن ما تسبب في إنهاء الثورة هو شيء خارج عن إرادة أصحابها، قادة ومجاهدين، ولم يكن غير تفوق الأعداء — الأسبان والفرنسيين ومن والاهم وتعاون معهم من القوم طوعاً أو كرهاً — في العدد والعدة، فقد عبأت فرنسا، وقد كانت تعد وقتئذ أقوى دولة عسكرية في أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى، كل قواتها العسكرية، وطاقتها القتالية، وإمكاناتها المادية، ليس في فرنسا والمغرب فقط، بل حتى في الجزائر، وتونس، والسنغال، وجميع ممتلكاتها الاستعمارية في إفريقيا وآسيا، ولهذا استطاعت أن تحيى في المغرب ما لا يقل عن 325 ألف محارب بقيادة ما يتراوح بين 60 و 80 جنرالاً يرأسهم الماريشال بيتان نفسه، فكانت تلك القوات تمثل 32 فيلماً معززة بعشرات الآلاف من القوات المساعدة المغربية و 400 ألف من رجال القبائل المغربية المعبئة عسكرياً باسم حركات (بسكون الرء) للقتال إلى جانب الجيوش النظامية العدو التي فاقت مليون محارب، بينما كان عدد المجاهدين المسلحين نحو عشرين ألفاً فقط، وكانت قوات العدو تتوفر على جميع أنواع الأسلحة الثقيلة والخفيفة بذخائرها، وكانت المصانع الحربية في فرنسا وإسبانيا خاصة من وراءها تمددها باستمرار بكل ما تحتاج إليه

من سلاح وعتاد، في حين كان المجاهدون يتسلّحون بما يقتنمونه في ساحات القتال دون أن يكون في إمكانهم التسلّح من الخارج لقلة المال، وللحصار المضروب على الشواطئ من الأسطولين الحرين الاسباني والفرنسي .

يضاف إلى هذا أن جيوش الأعداء الجراحة استطاعت أن تحتل أراضي كثير من القبائل سهولاً وجبالاً، فضيقت رقعة المنطقة المحررة إلى أقصى حد، وحرمت الثورة من أكثرية القوات المحاربة والمناصرة مع ما في أرض القبائل المغلوبة من مواقع حصينة وإمكانات مادية لا غنى عنها لمواصلة حركة الجهاد .

وأكثر من ذلك كله توفر الأعداء على قوات كثيرة من الطيران الحربي الذي مركزته القيادة العدو الفرنسية والاسبانية في أهم وأقرب المدن من واجهات القتال كفاس، وتازة، ووزان، بالنسبة للفرنسيين .



الأمير محمد ابن عبد الكريم الخطابي

وقد كان للطيران المجمع من فرنسا، والجزائر، وتونس، والممتلكات الاستعمارية الفرنسية في القارات دور فعال وحاسم في شد أزر الجيوش البرية، وتمهيد العمليات لها، وإمدادها بكل وسائل وضروريات الحرب ونقلها إلى المراكز الأمامية ونقل الجرحى إلى المراكز الصحية في المدن، واستطلاع تحركات المجاهدين ومواقعهم، وضربها بوحشية متناهية، وبث الرعب والإرهاب في القبائل بقصف مداشرها وأسواقها، ومواشيها، وإجلاءها إلى التشتت والفرار تحت القنابل المتساقطة عليها، إلى غير هذا مما يدخل في مهام الطيران، ولإعطاء نظرة عامة على دور الطيران الفرنسي خاصة نبث هنا بعض المعلومات المستمدة من كتاب الجنرال الطيار «أرملنكو» عن العمليات الجوية خلال 1925 و 1926.

فبعد أن تحدث عن تجميع الطيران الحربي ونقله بشتى الوسائل البرية والجوية من المدن إلى المواقع المعدة له بالواجهة سرد أمثلة، وهي:

في 21 مايو 1925 تجمّعت أسراب الطائرات بالدرادر في ورغة آتية من فاس، وتازة، وقامت بمائة وسبعين (170) قصفاً جويًا، وبثلاثين (30) نقلة للجرحى، وفي الرابعة عشية انعدم الأمن بالنسبة للطيران، فعاد لقواعده بفاس وتازة.

وفي 22 مايو قامت نفس الأسراب بثلاثة وستين (63) قصفاً جويًا وبعدد كثير من المهمات الصحية أي إفراغ الجرحى من

الميدان إلى حيث توجد المستشفيات، وعادت بعد الظهر إلى قواعدها الحضرية حيث الأمن والسلامة.

وفي 23 مايو تولّت نفس الأسراب خمسين (50) قصفاً، وأنجزت كثيراً من المهمات الصحية، وهي نقل الجرحى للعلاج.

وفي 25 مايو قامت الأسراب نفسها بمئة وخمسة عشر (115) قصفاً، وبمهمات صحية كثيرة كالعادة.

ويعلّق الجنرال الطيار على هذا بقوله: «إن هذه اللوحة (طابلو) تكفي لبيان النشاط التناوري الذي استطاع أن ينجزه الطيران الحربي».

ومما قاله: «إن تجمعات الطيران الحربي وأكثرها بفاس، كانت في الواقع أولى قوات الحماية والتغطية للعمليات الحربية، فلولا تدخل الطيران لما توقّف تقدّم الريفيين نحو فاس من عدة جهات حتى إن ليوطي قال: «إن الطيران هو الذي أنقذ مدينة فاس».

ولما كاد يكبده الطيران، أثناء غاراته المتوالية على المناطق المدنية من خسائر في الأرواح، والمواشي، والمزروعات، انتقد عضو لجنة برلمانية فرنسية كان هو نفسه من رجال الطيران في الماضي تلك التدخلات، وذلك أثناء زيارته للمغرب، في يوليو 1925، طالباً التقليل منها اكتفاء ما أمكن بعمليات القوات البرية، وكذلك الكف أكثر ما يمكن عن التدخل الجوي المباشر في قلب الأرض الريفية،

ولكن ردّ عليه بأن الوضعية الحربية الفرنسية كانت وقتئذ سيئة وحرجة جداً.

وكمثال لسفك دماء الأبرياء، ونشر الدمار والخراب، قال الجنرال (أرمانكو): «كان لا بد من 150 قصفاً جويّاً ليتخلف 350 ضحية أثناء المعارك لصالح جيش الجنرال (دوشامبران) يوم 21 مايو 1925، ولكن اثني عشر (12) قصفاً جويّاً استطاع في مولاي عين الجنان، يوم 21 يونيو 1925 أن يخلف في دقيقة واحدة فقط في سوق بني زروال ثمانية (800) ضحية!». .

وهكذا كانت الأسواق هدفاً لقنبلة الطيران بالإضافة إلى المداشر، فكان السكان ينقلون أسواقهم داخل الغابات أو يلغونها بالمرّة.

وقد تحدث الماريشال بيتان أمام البرلمان، فأكد أن الجيش بلغ خلال 1925: 44 فليق (باطايون) و 73 طائرة حربية، استعملت 11.307 أطنان من القنابل.

وفي أواخر 1925 أو خلال 1926 تضرخت قوات الطيران، فتمكنت من الإغارة بكثرة على مؤخرات المجاهدين، وهكذا قصفت شفشاون، وتبرانت، وتاركيست، واجدير الخ، وذلك لتبطل بالسكان، وتزرع الخراب بين الديار، وتشيع الإرهاب، وتبعث على هجر الأماكن فراراً من الخطر، وبث السأم والملل من الحرب، والميل للسلم بين سكان القبائل والحواضر في الشمال، وذكر الجنرال «ارمانكو» أنه قبل استسلام ابن عبد الكريم بأيام

تقدم «بيرباران» إلى المقيم العام بتقارير حول كثرة الضحايا التي أحدثها الطيران في الشيوخ، والنساء، والأطفال، فأبدى المقيم العام للجنرال القائد الأعلى رغبته في أن يوقف عمليات الإغارة والقصف الجوي فوق المؤخرات، ولكن الحرب كانت على وشك الانتهاء، وكان الطيران خلال عمليات 1925 و 1926 قد استطاع أن يضرب الرقم القياسي في قصف مواقع المجاهدين ومؤخراتهم نفسها تقبلاً وتخريباً، ونذكر هنا بأن أسراباً من بلجيكا والولايات المتحدة تطوّعت إذاك للمساهمة في الحرب الفرنسية، لأن الأولى كانت من دولة حليفة عسكرياً، والثانية أرادت أن ترد الجميل الذي كان أسداه الجنيرال لافاييت لقوات الثورة الأمريكية ضد انكلترا قديماً، وقد كان الطيارون الأمريكيون بقيادة كولونيل يقصفون القرى والمدائر كما فعلوا في شفشاون كمدينة مفتوحة حتى إن الصحافة الانكليزية نددت بهذا العمل الهمجي الذي شمل حتى أسواقاً خاصة بالنساء في الريف، وقد أُنذر الصحفي الإنكليزي، «والثير هاريس»، مراسل «التايمز» اللندنية، في كتاباته وزارة الخارجية الامريكية التي اضطرت إلى إبلاغ الطيارين الامريكيين المتطوعين أن الولايات المتحدة ليست في حرب مع الريف، فرجعوا إلى بلادهم موبخين وملعونين من الرأي العام الإنساني أجمع. وفي كتاب «كارلpton كون» بعنوان «كارفان» (Caravan) «ان ابن عبد الكريم كان يمكنه أن يقاتل الفرنسيين أثناء فترة لا نهاية لها لو لم يستعمل خصومه الطيران والدبابات»، وقال كذلك مراسل «التاسمس» الإنكليزية «والثير هاريس» في كتابه «فرنسا واسبانيا، والريف». لقد كانت حرباً لم يكن لها مثيل في

التاريخ الاستعماري.

ولكي ندرك أكثر دور الطيران في التعجيل بهزيمة ابن عبد الكريم نشير أن ليوطي كان في حربه ضد الريف يحرص على الانتصار بأسرع ما يمكن وبأقل الخسائر والتضحيات عملاً بمذهب المعبر عنه «بالحرب الاستعمارية البناءة التي تهدف إلى هزم قوات المجاهدين المحاربة مع تلافي التخريب والتدمير ما أمكن بالنسبة للبلاد والسكان، ولهذا كان للطيران دور محدود في مساعدة القوات الفرنسية المحاربة من حيث الخدمات والإغارات، وجرى الأمر بخلاف هذا لما خلف المارشال بيتان ليوطي في قيادة الجيوش الفرنسية المحاربة في الريف بتعاون مع القوات الاسبانية، فقد كان بيتان مؤيداً بوزارة الحربية وبالقيادة العليا العسكرية في باريس، وكانت كلتاها صاحبة الأمر في توجيه الحرب ضد الريف، فكانت القرارات الحاسمة في هذا المجال تصدر عن الأوساط ضد القيادة العسكرية في باريس. وتنفذ بواسطة بيتان وهيئة أركانه في المغرب وبعبارة، كانت الكلمة العليا الفاصلة للمجلس الأعلى للدفاع الوطني في تقرير سير ومصير الحرب الفرنسية بالمغرب بعد ماتخلص من ليوطي وعوضه بيتان الذي وجد فيه ضالته المنشودة أي رجل القوة والحرب التي لا تبقى ولا تذر.

وفي تقرير بتاريخ 11 يونيو 1925، للجنرال سيريني (Serrigny) الذي كان بيده زمام المجلس الحربي نجد التعبير عن نقد خطة الحرب على عهد ليوطي، وهي الاهتمام بالانتصارات المحلية الجزئية لا على الريفيين أنفسهم، ولكن على القبائل التي

ضموها لحركتهم بينما يترك الريفيون «يدوبون» في الجبال لشن حرب العصابات التي لا نهاية لها، وبعكس هذا اقترح صاحب التقرير خطة استراتيجية جديدة تتلخص في القيام بحركة هجومية من المنطقتين الفرنسية والاسبانية في اتجاه اجدير - قاعدة الثورة - وباستعمال أحدث الوسائل الحربية برأ، وجواً، وبحراً، ويجب أن يكون الهجوم جارفاً وساحقاً بكل القوات والأسلحة، وتوفير ما أمكن لقوات المشاة تدبر العمليات باستعمال أقوى سلاح عصري موجود، وهو الطيران المدمر، والدبابات، والمدافع الرشاشة المحمولة، و فرق الرشاشات، الخ.

وفي تقرير آخر للقبطان ماست بتاريخ 12 غشت 1925 - وكان عضواً في هيئة أركان الجيش - نقد أساليب الحرب في عهد ليوطي، واعتمادها على الفرق المتحركة بحيث كان الجيش فاقداً للاستقرار والنظام، وتعرض التقرير بوجه عام للحالة المادية والمعنوية لجيوش الاحتلال في المغرب، وانتهى التقرير باقتراح إعادة تنظيم أجهزة التجريدة العسكرية الفرنسية في ميدان الحرب وذلك على أساس ألوية (ريجيمان)، وفرق (بريكاد)، وفيالق (ديفيزيون)، وكان التقريران مضادين لنظام الجيش الفرنسي في حربه بالمغرب، ومؤيدين لوجهة نظر (بيتان) Petain ومن على شاكلته. ولهذا دعي بيتان لقيادة الحرب ضد الريف، وعهد إليه بإنهائها بالنصر قبل فصل الشتاء، فكان القرار المتخذ قرار «الحد الأقصى» في الحرب مع إبعاد كل مخابرة أو مفاوضة مع الخصم لأنها تفهم منه أو من غيره كعلامة ضعف، وتساهل، وتنازل، فالحرب أولاً وآخراً،

ولا شيء غير الحرب حتى النصر، وهذه العقلية المتصلبة والمتطرفة سيطر أصحابها في فرنسا والمغرب على مقاليد الأمور، وتصرفوا في عمليات الحرب تخطيطاً، وإعداداً، وقاتلاً، وبظهور بيتان كمكلف أولاً بمهمة تفتيش الجيش المحارب، ثم بعد هذا كقائد حربي تحقق الفصل بين السلطين المدنية والعسكرية حتى لا يبقى بينهما تداخل وتنافس، وبناء على هذا انتهى جمع السلط كلها في يد المقيم العام، واستأثر العسكريون بجميع سلطهم التي تعززت وتضاعفت وقتئذ.

وكان بيتان مؤمناً بالتعاون الحربي مع اسبانيا ضد الريف، ولهذا توجه لمدريد حيث تحادث مع الديكتاتور بريمو دي ريفيرا في 28 يوليو و 21 غشت 1925، وارتكز تخطيطه الحربي المقترح على أساسين هما:

1 - تسوية المسألة الريفية تعتبر بماليس بعد البيان بيان مشكلة فرنسية اسبانية، ولهذا لا قيام بعمل محلي غير مرتبط بالبرنامج الاسباني.

2 - لا إقدام على عمل جزئي دون هدف عام شامل.

واستناداً إلى هذا اقترح بيتان مخططاً ذا مرحلتين إحداها الوصول إلى «عتبات» الريف (أعالي الأودية والشعاب في مسألة وكرت، والنكور)، ومن هنا يكون التسرب والتوغل في جوف الريف باحتلال بني ورياغل القبلية المتزعمة للحرب بقيادة ابن عبد الكريم، وتم الاتفاق الحربي بين الدولتين في 11 يوليو 1925، ولكن التطبيق اصطدم بعقلية العسكريين المتأثرين بخطة

ليوطي الحربية، وعدم امتثالهم للتعاون الفرنسي الاسباني، لأنهم بلا شك كانوا يعتبرونه في صالح الاسبان أكثر مما كان في صالح الفرنسيين الذين عبثوا كل قواتهم، وطاقاتهم، وفنونهم الحربية لإنقاذ اسبانيا من المأزق الذي عجزت وحدها عن الإفلات منه.

وهكذا لما وصل بيتان للمغرب لم يجد القيادات الفرنسية في فاس والواجهة الشمالية طوع يده، وكان الاصطدام وكذلك مع المقيم العام ستيف الذي اتهمه بالتأثر «بكتلة فاس» العسكرية، واستطاع بيتان أن يبعد بعض الجنرالات المخالفين له، وأن يقنع الحكومة في ديسمبر 1925 بصلاحيه مخططه الذي تقرر بصفة نهائية، وأخذت الاستعدادات لتنفيذه في فصل الربيع، ولكن نشب الخلاف في يناير 1926 بين بيتان وبين ستيف حول عزم الأول على إبرام اتفاق دقيق ومكتوب مع الاسبانيين للقيام بعمل مشترك متجه نحو المركز المستهدف، وتحكم رئيس الحكومة في الخلاف، وكان ستيف يقول بعدم اللجوء إلى عمليات واسعة النطاق لأن الحالة لا تتطلبها (تقرير ستيف بتاريخ 29 يناير 1926)، ولكن تغلب بيتان آخر الأمر باسم الاتفاق مع اسبانيا، والتعهدات نحو السلطان، وعدم ترك اسبانيا وحدها متورطة في المشاكل حتى تقرر الانسحاب من الشمال الذي يصبح في هذه الحالة منطقة هيجان تهدد الوجود الفرنسي في المغرب وشمال افريقيا، وفي تقرير بيتان إلى بانلو في آخر شتير قال بيتان: «لا توجد غير وسيلة واحدة، هي احتلال القبيلة التي يعد ابن عبد الكريم قائدها وذلك لإكراهه على الاستسلام أو على الاختفاء، وبكلمة واحدة، يجب التوصل إلى

السلم دون ابن عبد الكريم». ولكن ستيغ لم يلق السلاح، ولهذا دخل في تسابق مع بيتان بمحاولة الاتصال بابن عبد الكريم بإيفاد كابرييلي المراقب المدني بتاوريرت والجنرال موجان، ونجح ستيغ في عقد مؤتمر وجدة، وبانعقاده اعترض الحل المقرر من قيادة باريس، وهو الهجوم الساحق الماحق المتفق عليه في يونيو 1925، وكان هدف الخلاف والتسابق بين الطرفين هو من يفوز الأول باستسلام ابن عبد الكريم، وفي نهاية الأمر كانت الغلبة لبيتان وأنصار الحرب العصرية بكل وسائلها الحديثة. وذلك بعد فشل مؤتمر وجدة.

وفي شتبر 1925 بدأ هجوم الخريف بتدخل الطيران بشكل قوي وواسع غير معهود في الحرب الاستعمارية التقليدية في المغرب، فكانت سلسلة كثيفة من القصف تهدف إلى بث الرعب والإرهاب في السكان، وهكذا قصف الطيران شفشاون في 5 شتبر 1925، واجدير في 6 منه، فأحدث هذا الرعب والفرع في السكان بشكل عظيم، حتى اضطر السكان إلى بيع مواشيهم بأبخس ثمن خوفاً عليها من الدمار، وتوالى قصف الطيران يومياً بوحشية نادرة للمدن والقرى في حرب الإبادة المخططة في باريس ومدريد، والمهادفة إلى هلك الحرث والنسل على أوسع نطاق مستعملة أفضع وسائل التخريب والتدمير في العصر، ولم تشمل حرب الإبادة الفرنسية الاسبانية المحاربين فقط، بل حتى المدنيين من الشيوخ، والنساء، والأطفال، وكذلك الموارد والخيرات، وبما أن المساكن كانت مبعثرة فقد تركز قصف الطيران الحربي على الأسواق، والمواسم، وكل التجمعات، فكانت، كما أشرنا إليه سابقاً. وهكذا

اتخذت الحرب أفضع صور الوحشية التي لا يقدر عليها إلا أذعيا
الإنسانية والمدنية من الأوروبيين المعتدين على المغرب باسم
الاستعمار، وهذا مايجب على الأجيال المغربية أن لا تنساه أبداً،
وأن يسجله المؤرخون المغاربة حتى يبقى ذكره حياً في النفوس على
تعاقب الأزمان.

وبالإضافة إلى وحشية القصف الجوي طوق الاستعمار
المنطقة الثائرة بقيادة ابن عبدالكريم بحصار اقتصادي للتجويع
والخنق، وتعزز هذا بتدابير صارمة استيلاءً على الأملاك، ومنعاً
للتعامل، ونهب المواشي والمواد الغذائية بالنسبة لمنطقة الجهاد،
وأخذ الرهائن، والنفي والترحيل، والإعدام للانتقام والمثال،
وممارسة جميع أنواع الضغط، والقهر، والاضطهاد، وباختصار
استعمال كل وسائل وأساليب مايعبر عنه «بالحرب الثورية
المضادة»، ولم تتورع كذلك عن ارتكاب جريمة الدفع بالمغاربة إلى
التقاتل بينهم لصالح عدوهم المشترك الذي هو المستعمر المعتدي
والمحتل.

وتحذر الإشارة إلى أن مجموع الطيران الحربي المستعمل في
الريف بلغ 44 سرباً كما صرح بهذا من فوق منبر البرلمان في فاتح
يونيو 1926 دون أن ينازع أحد.

والخلاصة، أنه لولا مشاركة طيران العدو — كما أشرنا
إليها — ولولا إشرائك مئات الآلاف (400) من «الحركات» القبلية
المغربية في عمليات الأعداء لما استطاع المستعمرون المتحالفون أن

يتغلبوا على الثورة التحريرية التي طالما برهنت من قبل، مدة سنوات، على أنها حققت الآية الكريمة: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾، وهكذا سجل التاريخ من هزائم وكوارث الأعداء إلى الأبد ما غطى على خسران المعركة الأخيرة لثورة دخلت هي ورجاؤها إلى عالم الخلود مكللة بأكاليل النصر والفخار، والإعجاب والإكبار.

في طريق المنفى

لما التأم جمع آل الخطابي بتازة توجهوا ليلاً تحت الحراسة إلى فاس في فاتح يونيو 1926، وهنا نسأل: لماذا أُتي بهم إلى فاس، ولم يتركوا بتازة حتى يتوجهوا إلى المنفى؟ هل خشي على بقائهم بتازة التي شهدت أعنف المعارك بين الفرنسيين والمجاهدين، ولم يستطع الفرنسيون افتكاكها إلا باستعمال الغازات السامة التي سلطوها على خنادق المجاهدين؟ أو هل أُريد بنقل آل الخطابي إلى فاس تدبير مكيدة سياسية ضد سكانها ليزدادوا بإقامتهم بينهم نحو ثلاثة أشهر تأكيداً من انهزام واستسلام الرجل الذي كان أملهم في تحرير البلاد، والذي كان له فيها أنصار كثيرون، وحاول الاستيلاء عليها ليفكها من سيطرة الاستعمار؟ ولما وصل الأمير ابن عبد الكريم ومن معه لفاس أنزلوا بدار في حي الدوح هي عرس الإدريسيين، وضربت عليها الحراسة المشددة، وأقاموا فيها محاطين بالسرية التامة، فلا يتصلون بأحد، ولا يتصل بهم غير رجال السلطة الفرنسيين المكلفين بهم.

وفي 27 غشت 1926 نقل الأمير محمد بن عبد الكريم وحاشيته البالغ عددها 24 نفرًا في مركبة خاصة ملحقة بالقطار

المتوجه إلى الدار البيضاء حيث وصل في الساعة الثامنة ونصف مساءً، ودخلت المركبة الخاصة للمحطة البحرية في التاسعة وربع، وركب المنفيون في الباخرة (عبدة) التي أبحرت في الرابعة بعد ظهر اليوم التالي متجهة إلى مرسيليا، ورافق المسافرين الريفين القبطان الترجمان «ساني» من إدارة الشؤون السياسية (الاستعلامات) بفاس، ووقتها كانت الباخرة تقلع من الميناء وقف في أعلاها الأمير محمد بن عبد الكريم ورفع يده إلى رأسه ليؤدي التحية إلى أرض الوطن، وليودع شعبه الذي جاهد مضحياً بنفسه وبكل عزيز عليه في سبيل خلاصتهما وتحريرهما، وضارباً أعلى مثل للأجيال في الجهاد والبطولة.

ومن مرسيليا نقلت الباخرة «أميرال بير» المنفيين إلى جزيرة لارينيون القريبة من مدغسكار.

بعد نفي الأمير ابن عبد الكريم لم تتوقف حركة الجهاد ضد الإسبان، فإن عدداً من قادة الأمير استمروا في المقاومة على رأس قوات شجاعة ومستميتة بالرغم عن قلتها بالنسبة لقوات العدو، وقد اعتمدت على إيمانها وثباتها، وروحها البطولية، وكانت حركة الجهاد في هذه المرحلة حرباً يائسة، ولكنها جسمت إرادة الكفاح وقوة المعنوية، وعزيمة الدفاع عن كل شبر من أرض الوطن، وقام البرهان تلو البرهان في هذا المجال على أن المغاربة حققوا الخوارق في معاركهم ضد الأعداء الذين طأطأوا الرؤوس اعترافاً وإعجاباً، وقد ساعدت المجاهدين طبيعة الأرض في تحدي قوة العدو، كما

ساعدتهم خبرتهم الطويلة بحرب الأعداء، وتجربتهم القتالية منذ بدء الاحتلال والعدوان.

وأكبر قائد واصل المقاومة حتى الاستشهاد البطل أحمد بن محمد الحزمري الملقب بأخريرو، أبي أن يستسلم، فجمع قوة من المجاهدين في ناحية «جباله»، واعتصم بجبال غمارة حيث خاض المعارك مدة ستة أشهر، أي من مايو إلى نوفمبر 1926، وكانت حرب عصابات، وقتل في ساحة الشرف أثناء اشتباك مع الأعداء، فحمل أنصاره جثته إلى جبال بني عروص، حيث دفنوها على مقربة من ضريح مولاي عبد السلام بن مشيش.

ومن أشهر القواد الذين خاضوا معه المعارك - بعد الأمير ابن عبد الكريم - الأخوان الحاج عبد السلام والحاج محمد التمساني، وقد كانت بعض القبائل مستعدة للجهاد في سبيل استقلال البلاد، ولم يفت في عضدها نفي ابن عبد الكريم، ولا تحالف الأعداء، ولا تفوقهم المادي، وإنما كانت في حاجة إلى قادة في مستوى الأحداث، وقد وجدتهم في أولئك الرجال الصناديد وأمثالهم الكثيرين.

وستترك هنا المؤلف عسكري إسباني الحديث عن مواصلة حرب التحرير بعد ذهاب الأمير محمد ابن عبد الكريم.

فأس - الأمير محمد بن عبد الكريم عند ممارسته فأس في طريقه إلى المنفى



فاس - عائلة الأمير محمد بن عبد الكريم عند مغادرتها فاس في طريقها إلى المنفى



مواصلة الجهاد الوطني عمليات صيف 1926 في غمارة وجباله والريف (حركة المهاجرين)

«بقيت بعض قبائل الريف جنوب ترجيست لم تحتل، وهي قبائل (تحالف صنهاجة السراير). وإن التقدم الذي كان مقرراً نحو الغرب لا يمكن تحقيقه في مستقبل قريب دون توطيد الموقف بها.

استمرار مقاومة اخيرو:

وفي (جباله) استمر التمرد نشيطاً، قائماً تحت رئاسة القائد العنيد: اخيرو، والرئيس الديني المتعصب مولاي أحمد البكار والقائد الجبار: أحمد بودرة وزير حرية ابن عبد الكريم الذي أخفى عن القبائل هزيمة واستسلام الريف، وبقي يشجعها على المقاومة.

وبقاء هؤلاء الثوار في حماية جبال عظيمة من السلسلة الوسطى بجباله، وهم محاربون أشداء كمحاربي الريف، مكنهم من القيام بمقاومة طويلة الأمد. ولإعداد الهجوم على هذه المرتفعات الصلبة المهمة، ذلك الهجوم الذي كان سيضع حداً للمعارك عند ربيع 1927 حسب خطط القيادة العليا، يتعين قبل كل شيء، احتلال وتنظيم القواعد التي تسمح لنا بالاقتراب من هذه المرتفعات».

.....

(في رسالة وجهها الجنرال القائد العام للجيش الإسباني إلى رئيس حكومته بتاريخ 24 يونيو 1926):

«أما الوضع في المنطقة الثالثة (جباله) فهو يكون في هذه اللحظات حالة سياسية مضطربة، إن منطقة (جباله) كانت تكون دائماً مشكلة تختلف عن مشكلة الريف، إلا أن النفوذ الكبير الذي استطاع أن يحرز عليه ابن عبد الكريم في جميع المناطق المتمردة بالمغرب خلق في نواحي (جباله) حالة من التبعية لهذا الأخير بواسطة مراقبين ورؤساء ريفيين كانوا ينوبون عنه. وقد أحدثت هزيمة ابن عبد الكريم في (جباله) كمظهر أول، حركة تمرد على ضغط الريفيين، إما بطردهم أو قتلهم، وباختفاء القيادة الوحيدة التي يزاوئها آخريو، وأحمد بودرة باسم ابن عبد الكريم، ولكن المساعي السياسية وحدها، لم تكن كافية للوصول إلى حركة استسلام واسعة.

لقد استقلت القبائل عموماً عن سلطة نواب ابن عبد الكريم، ولكن ظهر فيها ميل نحو الاحتفاظ باستقلالها وثورتها تحت قيادة رؤسائها. لقد اختفت الحشود الهامة والحراسة المنظمة، تجاه جبهتنا. ولكن من أجل الحصول على الاستسلام، يجب القيام بضغط عسكري. وقد عرضت للحالة السياسية لكل قبائل الناحية الغربية في تقريري الذي بعثته بتاريخ 17 يونيو، فلا حاجة لإعادة ذلك، غير أن صفوة الحالة عموماً هي كالآتي: آخريو والبقالي (القرفة) من قبيلة بني سعيد، وأحمد بودرة الوزير الأسبق للحربية في حكومة ابن عبد الكريم، يوجدون في مراكزهم

صحبة قلة من الخارجين على القانون، وهم يرفضون الاستسلام. وإن القبائل التي تظهر ميلاً نحو ربط علاقات بنا والاستجابة للعمل السياسي هي: بني يدر، وبني حزمار، وبني يسف، وبني زكار، ولكن دون أن تستطيع البت في ذلك ما لم تلحظ قيام حركة في العمق من جانبنا. وفي الأخماس فإن القائد ولد الفار أحد أصدقائنا القدامى الذي كان أسيراً عند ابن عبد الكريم، يظهر أنه يتمتع بنفوذ أكبر، وهو على اتصال بنا، ويؤكد على إمكانية إخضاعه القبيلة، إلا أنه يؤكد أكثر على وجوب القيام باتصال مباشر من جانبنا بالقبيلة».

«اختارت القيادة العليا للقيام بهذه العملية (حركة المقدم Capaz) ليس فقط لقواتها وتشكيلها المركب من 1000 رجل، ولكن للمزايا الاستثنائية على الخصوص لقائدها، ولمعرفته الكبرى بمنطقة (غمارة) وعلاقات الصداقة التي تربطه بالقواد الأكثر نفوذاً في هذا التحالف، البقالي القرفة من (واد لاو)، واليزيد بن صالح من (بني رزين)، والبحياوي من (بني سلمان)، وحميدو عبد الوارث من (بني خالد) وابن حمان من (العلو الفوقي) (الأخماس العليا).

«وحتى يوم 3 يولييه 1926» فإن الوضع ببني خالد لا زال متردداً نظراً للقتال الداخلي الدائر بها، وللموقف الأقل هدوءاً».

«بتاريخ 6 يولية تصل إلى (الكومندان Capaz) أنباء مفادها أن أناساً من (بني حسان) و (بني سعيد) بمساندة هارين من

القبائل الغمارية التي كانت لغاية وقته، خاضعة. لقد أحرقوا قاع أسراي) و (ترغة) - عند الشاطيء - ويحاولون مهاجمة قبيلتي: (بني بوزرة) و (بني منصور) المجردتين تماماً من السلاح. بعد أن ترك الكومندان «كاباس» بخميس (تجكان) مائتي رجل من (محلة تطوان) التي كانت تعز فرقة لمتابعة ضغطها على بني خالد بمساعدة القائد عبد الوارث، قام في يوم 7 بمسيرة شاقة وسريعة جداً قطع أثناءها مسافة 40 كيلومتراً هبط بعدها على (تيجساس) من أعالي جبال (بني سلمان)، قاطعاً في الوقت المناسب نشاط التمرد الذي أخذ يظهر في قبيلتي: (بني زيات) و (بني سعيد). وقد مكث في (تيجساس) عدة أيام لتدعيم الحالة ونزع السلاح من (بني زيات)، وتمهية قاعدة صغيرة لمتابعة المسيرة نحو الغرب.

وبتاريخ 10 يوليه كانت نتيجة عمل المقدم / (كاباس) بغمارة جذابة. لقد اكتسح منطقة فسيحة جداً دون أن يقذف طلقة واحدة. كما استسلمت قبائل: (متيو)، و (مسطاسة)، و (بني سميح) و (بني جرير)، و (بني بوزرة) و (بني منصور)، و (بني سلمان)، و (بني زيات). وبدأ الاحتكاك بيني خالد القبيلة الأكثر رحابة والأقوى شكيمة في غمارة، نظراً لقربها من القبيلة النائرة: الأخماس، ولموقعها كلها تقريباً، جنوب الحاجز الجبلي الكبير للخط الفاصل الذي يحميها».

.....

وفي يوم 20 يوليه، وصل (المقدم كاباس) لخميس (بني سلمان)، وفي اليوم التالي قام باحتلال (أميادي) ذلك المركز المختار

بكامل البراعة، تحت جبل (تيزيران) العملاق الغماري الذي لا يبعد كثيراً عن (باب برو) الممر الأكثر أهمية في الجهة الغمارية، والذي يكون باب المدخل الآتي من شمال غمارة نحو الجنوب، أي نحو (بني خالد) و (الأخماس)».

.....

«وبفضل موافقة القائد اليزيد بن صالح من (بني رزين) الذي كان أكثر قواد ابن عبد الكريم بروزاً في المنطقة الغربية (وبالأخص أثناء الحملات على قبائل ورغة) والذي أصبح بعد استسلامه، أكثر مساعدتنا فعالية، بفضلله، أمكن تغيير خط التموين ومده من (رأس الصيادين) (Punta Pescadores) إلى (أميادي) عبر وادي (اورينكة) وجبال (بني رزين)».

.....

هجوم اخيرو على (واد لاو):

«ومن جديد يهاجم ثوار (بني حسان) و (بني حزمار)، (واد لاو) تحت قيادة اخيرو، في نفس الوقت الذي حاول ثوار (بني خالد) و (الأخماس)، تطويق (أميادي) واكتساح غمارة».

.....

«إن القيادة العامة في تطوان، تبعث على وجه السرعة بتعزيزات إلى (واد لاو)».

.....

«بعد أن طردت فرقة «كاباس» ثوار بني خالد عن (أميادي) في معارك صغيرة، قامت بتهدة هذه المنطقة، وتركت هناك طابوراً

من الجند. ثم شرعت في المسير نحو الغرب في يوم 2 غشت. وبعد أن تجتاز (باب برد)، تسير بمحاذاة جبل (تيزايران) وجبل (العناصر) ثم تقوم بتطويق الربعين الثائرين: ربع (بني دركول) وربع (بني فلوط) من قبيلة الأخماس، ثم تحتل جبل (القلعة)، وتهبط بشكل مفاجيء على شفشاون، داخلية المدينة يوم 10 غشت، ملتقية بذلك - كما سنرى بعد - بالقوات الآتية من تطوان.

بهذه الصورة تمت (غارة كاباس) على غمارة، تلك الغارة التي تكون أحد الأطوار الأكثر جمالاً في عمليتنا لسنة 1926 و 1927، والتي ستبقى مثلاً يحتذى لمثل هذه العمليات. ففيها تكامل بكامل المهارة، النشاط السياسي مع الضغط العسكري الذي لم يكلف غير بعض المعارك، وغير السرعة والبراعة من جانب الفرقة، وبذلك وقع إخضاع عشر من القبائل بحيث لم يبق ثائراً في غمارة غير قبيلة (بني خالد). وقد جمع خلال هذه الغارة 2788 بندقية، كما أقيم الاتصال من جانب الشاطئ بالمنطقتين الغربية والشرقية من محميتنا».

.

«وفي إقليم (جباله)» . . . «فإن التمرد أصبح سيد الموقف في الجبال كلها، مرتكزاً في العمود الصخري الذي هو امتداد لجبال غمارة، والذي يتشكل من جبال (تارية) و (تنغاية) و (الخزانة) و (كركر) و (السكنة) و (بوهاشم)، و (جبل العلم). وهذه السلسلة من الجبال تكون في جباله الحد الفاصل المائي بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي».

.

«وفي تطوان، كان التفكير في التقدم نحو شفشاون، يعتبر أمراً لازماً من طرف القيادة، وذلك قبل قدوم فصل الأمطار».

.....

(وفي رسالة موجهة من طرف الجنرال «سانخورخو» إلى رئيس الحكومة الإسبانية بتاريخ 29 يولييه، يشرح فيها خطته على الشكل الآتي):

«... وفي شهر غشت تتقدم قوات من العرائش نحو (المشرع) حسب الخطة المذكورة سابقاً، وذلك بقصد الاتصال بالقائد ولد الفار، وبقبيلة الأخماس، مع محاولة استئناف الزحف من هناك على شفشاون. وفي نفس الوقت يقع التقدم من تطوان على شكل وثبات نحو (الزينات) و (الرملة) و (سوق اربعاء بو حسان) إذا كان الوضع مواتياً بشكل محقق...».

.....

(بتاريخ 31 يولييو، يسهب الجنرال «سانخورخو» في تفاصيل الخطة التي يقترح تنفيذها في رسالة سياسية أخرى على الشكل الآتي:

«عندما وقع حل مشكلة الريف بقيت مطروحة أمامنا من أجل التهدة الشاملة وإنهاء احتلال منطقتنا، مشاكل ثلاث ذات مظاهر مختلفة: جباله، وغمارة، والقبائل المتوسطة جنوب غمارة (صنهاجة السراير، وكنامة، ويني أحمد... الخ).

وطبقاً للمخطط الذي رفعته إلى الحكومة، والذي صودق عليه، فقد بدأت القيام بنشاط سياسي عسكري في نواحي (جباله) و (غمارة) والذي نتج عنه استسلام ونزع سلاح جميع قبائل

التحالف الغماري، و (بني سعيد) و (أهل سريف)، وبعض «الفخذات» من (بني يسف) و (بني يدر)، و (بني حزمار) في جباله، مع ربط علاقات بجزء من (الأخماس).

وفي الوقت الراهن، ونظراً للهباج الحاصل في (جباله) من طرف بعض الثوار ذوي العناد، وعلى الأخص: اخريرو، وكوريطو، ومولاي أحمد البكار، وفي (بني خالد) و (كتامة) من طرف عصابات الفارين من الريف والمنطقة الفرنسية، تلك العصابات التي يحاول تنظيمها الشريف المكي الوزاني (أحد أقرباء الشريف الحميدو صاحب سنادة)، نظراً لكل ذلك، فإن العمل السياسي، يلاقي عراقيل كبرى، الأمر الذي يستوجب مساندته بنشاط عسكري إذا كنا نريد تجنب قيام ثورة ضدنا في (جباله) وجنوب (غمارة)... ويتعين زيادة على ذلك العمل بكامل السرعة والقوة قبل الشتاء الذي يمكن أن يشل حركتنا. وهذا مادعاني إلى اتخاذ قراري الذي صادقت عليه الحكومة، وهو: البدء في طور من العمليات التي تبدأ بنشاط مركز آت من تطوات، و (تيفر) و (واد لاو)، ينصب على شفشاون طبقاً للمخطط العام الموضح في برقيتي بتاريخ 29 من الشهر الجاري. ولهذا الغرض أقترح القيام بهجوم من تطوان بواسطة ثلاث فرق على: (دار الراعي)، و (دار ابن قريش)، في اتجاه (سوق اربعاء بني حسان)، وذلك في وثبة أولى لغاية (ترانس)، وفي نفس الوقت، التحرك بواسطة قوات (المخزن) على (بني يدر). ومن (تيفر) يقع الزحف نحو (المشرع) من أجل الاتصال المباشر بالأخماس حيث يوجد القائد ولد الفار في

جانبنا على ما يظهر، وأنا أقوم الآن بتركيز (حركة) في (واد لاو) مركبة من 500 ريفي من المحاربين الأشداء الذين جرى تجنيدهم طوعاً في بني ورياعل تحت قيادة الكومندان (LoPez-Bravo)، والذين يساندتهم ويقودهم (Capaz) بحركته . . .

.

أما ما يخص (غمارة) و (بني خالد) فإن الجنرال (Castro) سيقوم انطلاقاً من جبهته، بترجيست و (بني كميل) بنشاط سياسي، وبحركة ريفية أخرى، بهجوم على (بني سدات) وشمال (كتامة)، مدشناً بذلك عملاً مركزاً أقامر فيه بحركتين من رجال الريف. . . حيث أرى أن ذلك من شأنه أن يحدث مفعولاً مادياً ومعنوياً هائلين، إذ أقدر أنه سيكون من أحد انتصاراتنا السياسية الكبرى، الوصول في ظرف شهرين فقط، إلى مشاهدة الورياعلين، وهم يحاربون في جانبنا، أولئك الذين كانوا يعتبرون لغاية الآن، أعداء لا يمكن إخضاعهم لنا».

.

«بعد إقرار الهجوم على شفشاون بموافقة الحكومة الإسبانية، بدأ الزحف يوم 2 غشت).

«وفي يوم 10 غشت 1926، احتلت فرقة الليوتنان كولونيل (Capaz) مدينة شفشاون، وفي يوم 11 منه، قامت بنفس الدور فرق تطوان، إحدى طلائع فرقة (Asencio) بقيادة (Castello). وفي هذا اليوم، قام الجنرال (Sanjurjo) بدخوله الظافر إلى مدينة شفشاون صحبة معسكره العام، بعد أن استسلمت بصفة كاملة كل من

قبائل (بني حزمارة) و (بنتي حسان)، وربع (بني جبارة) من (الأخماس).

وفي الناحية الشرقية بعد إنهاء معارك الربيع من سنة 1926؛ والوصول إلى خط: قلاع بادس - ترجيست، بقي في الجنوب والغرب، تحالف قبائل (صنهاجة السراير)، وقبيلة (بني سدات)، و (كتامة) في حالة توقع وتوجس، مكونة بذلك علامة استفهام كبرى. وقد أصبح من اللازم توضيح الموقف لتبيين الحالة.

وقد استطاع الجنرال (Castro Girona) القائد الأعلى لمنطقة مليلية بمهارة، وبواسطة المساعي السياسية لمصلحة المراقبات بالمنطقة الحصول على صداقة أسرة الشرفاء الخمالشة الذين كانوا يمارسون نفوذاً روحياً وسطوة لا ريب فيها بالمنطقة، وعلى الأخص منهم الشريف سيدي محمد الفلاح ابن محمد الكبير.

.

«ابتداء من تاريخ 22 غشت، أخذ الموقف يبدو أكثر صعوبة، إذ رفضت قبيلة (كتامة) تحت ضغط نواة ضخمة من هاربي الريف، الخضوع. وفي (غمارة)، قامت خلية أخرى من الفارين تضم أكثر من 1000 بندقية برئاسة القائد محمد التسماني، ومساندة ثوار (بني خالد)، بالهجوم على فرقة (Capaz) في (تلاريجان) جنوب (تمروت)، وفي نفس الوقت قامت خلية أخرى من ثوار (الأخماس) وجنوب غمارة، بالهجوم على كوكبة صغيرة من قوات (Capaz) في (بني بوجلو) من (بني سلمان)».

.

«إن الوضع الكومندان (كباس) في جنوب (غمارة) قد أصبح مضغوطاً من جانب عدو يفوقه عدداً، وقد وصل حداً من الصعوبة بحيث أمضى لحظات جد حرجة يومي 10 و 11 من شتنبر عبر عنها في البرقيات المستعجلة التي بعثها إلى القيادة يطلب فيها النجدة والذخيرة».

.

(وابتداء من 15 شتنبر) أصبحت وضعية فرقة «كباس» أشد صعوبة وبرقياته أكثر استعجالاً، وقد استنتجت القيادة بأن مقاومة خطيرة. تحدث من جديد في (غمارة) فبلغت بكامل السرعة إلى إغاثته، وبعثت 100000 خرطوش بواسطة الطيران الذي قام بمساعدة الطيران الفرنسي بقبلة (بني خالد) و (كتامة) . . . كما عززت فرقة «كباس» بـ 1500 رجل خلال ثمانية وأربعين ساعة».

.

«وفي يوم 12 شتنبر، انجلى موقف الفرقة شيئاً ما».

.

«وتتويجاً للعمل المنجز ابتداء من ماي لغاية شتنبر، قام الجنرال (Sanjurjo) صحبة رئيس القيادة العليا الجنرال (Goded)، ومرافقة كتيبة واحدة لا غير من الليف الأجنبي (Tercio) كحرس، بأول جولة أرضاً من تطوان إلى مليلية، ماراً بجميع المناطق المستسلمة، مدعماً بصفة عملية، الوحدة المحققة بين المنطقة الغربية والمنطقة الشرقية».

.

«في ظرف خمسة أشهر فقط، كسر تكتل القبائل الثائرة التي ساندت نفوذ ابن عبد الكريم، وجرى القضاء على هذا الأخير وإخضاعه. ومن جملة 66 قبيلة التي تشكل منطقة الحماية الإسبانية، والتي لم تكن خاضعة فيها عند بداية العمليات غير 14 قبيلة كاملة، و 11 قبيلة أخرى لم تكن خاضعة إلا في أجزاء منها، أصبح الخاضع منها عند نهاية العمليات 55 قبيلة بصفة كاملة، وسبع بصفة جزئية، أي أنه خلال هذه المدة، وقع احتلال 37 قبيلة احتلالاً كاملاً، واحتلالاً جزئياً لأربع قبائل أخرى. وأخذ من العدو 28488 بندقية، و 135 مدفعا، و 8 مھاریس (Mortiers) و 240 رشاشة، وكمية هائلة من الذخيرة والمواد الحربية الأخرى. ومن أجل ذلك، لم يقع الإتيان بقوات أخرى من شبه الجزيرة فقط، بل على العكس أعيد إلى الوطن منها خلال العمليات 20 كتيبة و 11 بطارية وبعض الوحدات الأخرى، كما سرحت دفعات الاستبدال لسنة 1923 التي عملت بالمغرب لأول مرة أقل من ثلاث سنوات، كما وقع التھییء لإعادة 20 فرقة أخرى قبل انتهاء السنة».

وقد لقي تنظيم هذه (الحركة) غير واحد من العراقيين في طريقه، لأن البعض بداله أن إعادة تسليح بني ورياعل بعد مرور أشهر قليلة على إخضاعهم ونزع أسلحتهم، يشكل خطراً؛ ولكن هؤلاء لم يكن في حسابهم الظروف التي كان عليهم أن يعملوا داخلها بعيدين عن قبيلتهم، وتاركين تحت رحمتنا ونفوذنا عائلاتهم وأراضيهم».

«في شهر نونبر، وبعد تشكيل (حركة «لويس برافو»، قرر الجنرال «سانخورخو» اكتساح وإخضاع قبيلة (بني يدر)، التي كانت بموقعها القريب جنوب الطريق الذاهبة من تطوان إلى طنجة، تكون خطراً على ضمانة المرور في هذه الطريق، والتي كانت بلاداً للصوص وقطاع الطرق، وللفارين من القبائل الأخرى. هذه القبيلة التي لم تعاقب بعد، والتي كلفت قواتنا خسائر محسوسة عند تفهقها سنة 1924 عندما فرضت شروطاً قاسية وثقيلة على الجنرال (Prino de Rivera) للسماح بخروج حامية (بوحرث).

ولاكتساح قبيلة (بني يدر) هذه، شكلت ثلاث فرق: اثنتان من القوات العسكرية كان عليها القيام بتطويق القبيلة والهجوم عليها من ناحية الشرق والغرب، وثالثة من القوات الخليفة (الحركة) كان عليها أن تحتاحها وتقطعها من الشمال إلى الجنوب».

.

«كان على رأس الثوار، القائد أحمد اخيرو» . . .

إستشهاد اخيرو بتاريخ 3 نوفمبر 1926 :

«لقد احتلت فرقة الميسرة (أخياط) بكل سهولة، وعند بلوغ نواحي (كدية السبيت)، وقع صدام عنيف جداً مع إحدى خلايا العدو التي توقفت عن إطلاق النار فجأة، وانسحبت بسرعة فائقة دون سبب ظاهر. وبعد ذلك بقليل، حضر إلى (السبيت) أمام

الجنرال «سانخوخو» والمؤلف، شيخ ريع (بني شراح) الذي أوضح لنا السبب. لقد لقي (اخريرو) مصرعه في ذلك الاشتباك، ونقل جثمانه إلى (جبل العلم) للقيام بدفنه بمثل ما يستحقه من الإكرام... وهكذا أنهى حياته بسقوطه بكل بسالة على رأس رجاله الأشداء، ذلك القائد المتحمس العظيم الذي كان فيما مضى راعياً عند الريسوني، بل عند الخرطيطي، والذي بلغ بشجاعته شهرة عظيمة وهو لم يتجاوز بعد الثلاثين من عمره».

.....

«لقد كان العقاب المفروض على قبيلة (بني يدر) جد قاس، كما كانت شروط الاستسلام قاسية أيضاً: فقد أحرقت عدة مداشر لمقاومتها، وأُغِيرَ على القبيلة كلها، بحيث استولت (حركة بني ورياخل) على أكثر من 6.000 رأس من الماشية في قبيلة بني يدر واشترط عليها تسليم 1000 بندقية».

إن الأثر المعنوي الذي أحدثه عقاب قبيلة (بني يدر) بالإضافة إلى موت (اخريرو) كان عظيماً بين القبائل المجاورة. وهكذا دخلت قبيلة بني عروس في مفاوضات».

.....

«وفي 17 يناير 1927، قامت القوات الخليفة للعرائش دون مقاومة تذكر، وبواسطة المساعي السياسية لا غير باحتلال مرتفعات (بني كُرفط) وبذلك استسلمت هذه القبيلة، ووقع الشروع في الإعداد لمحاصرة قبيلتي (بني عروس) و(سوماتة)».

«بانتهاء (غارة كباس) على (غمارة)، والنشاط السياسي العسكري بـ(صنهاجة السراير)، وبإخضاع قبائل الحلفين معاً باستثناء قبيلة (بني خالد)، وقعت السيطرة على جميع منطقة (غمارة) شمال الحد الفاصل المرسوم على طول خط: القلعة - تيسوكة - العناصر - تيزيران.

وأن الانسحاب من جديد نحو الشاطئ الغماري، وإهمال قبائل (كتامة) و(صنهاجة) بالرجوع إلى الخط العسكري: قلاع بادس - ترجيست، ضيع علينا جزءاً من المزايا التي حققناها بالريف وغمارة؛ إذ أن الفارين من اللاجئين بالأخماس العليا وبني خالد والجنوب الغربي من كتامة برئاسة القائد: الملي من (الأخماس) والقائد محمد التمسماي، والقائد الحياي، والقائد الليل من (كتامة)، وهذا الأخير هو خصم ومنافس للقائد: التولوذ المناصر لقضيتنا. إن هؤلاء الفارين، بالاتحاد مع القبائل الثائرة: (الأخماس) و(بني خالد) و(بني أحمد السراق)، اجتاحوا على وجه السرعة القبائل التي كانت قد استسلمت دون احتلال، وساقوها عن رضى أو بالقوة نحو الثورة».

.....

«وفي (جباله)، وبعد احتلال شفاشاون و(تنقوب)، فإن التمرد بقي محصوراً في جيب مُشكل من القبائل الثائرة لبني يدر، وبني عروس، وبني ليت، وبني كُرفط، وبني يسف، والأخماس؛ ولبث الثوار يركنون إلى العمود الفقري الأوسط لأعالي جباله.

وكمركز لنشاطهم الرئيسي، اختاروا (جبل العلم)، ذلك الجبل المقدس».

.....

حركة (Lopez Bravo) :

«عند هذا الحد، أرادت القيادة العليا لتطوان، خلق أداة حربية تمكن من إجراء العمليات الشاقة لفصل الشتاء بأقل وهن ممكن لقواتنا النظامية. ومن أجل هذا الغرض، فكرت في تشكيل (حركة) مساعدة من محاربي بني ورياغل التي ستكون في طليعة جيوشنا كقوة اصطدام لاجتياح وعقاب القبائل المصرة على الثورة، والتي بفضل شهرة وشجاعة محاربي بني ورياغل المكتسبة، ستشكل قوة نافذة لإرغام القبائل المترددة. وفي نفس الوقت، يمكنها أن تمنحنا بمنطقة جبال نفوذاً هائلاً عندما يشاهد محاربو ابن عبد الكريم وهم يقاتلون بجانبنا، أولئك الذين كانوا أعداء لنا قبل ذلك بأشهر.

ولتنظيم هذه (الحركة)، ثم تعيين المقدم (Lopez bravo) من مراقبة تطوان».

.....

«وللقيادة الأهلية لهذه (الحركة)، وكقائد للقواد، اختير قائد بني ورياغل: علوش بن محمد الشدي أحد القواد الأكثر وفاء لابن عبد الكريم حتى آخر لحظة، والذي لم يستسلم إلا بعد معركة 29

يونيه بسوق أحد (تيزار)، تلك المعركة التي كانت آخر حركة للمقاومة ببني ورياغل».

.

«وقد اختير لتشكيل هذه (الحركة) 15 قائداً من قواد المائة لابن عبد الكريم الذين كان على كل واحد منهم أن يجند مائة من جنده كمتطوعين التزموا بالخدمة لمدة ثلاثة أشهر، بحيث يجدد هؤلاء 1500 رجل مرتين خلال هذه العمليات التي خسرت فيها أكثر من 900 رجل».

.

«لقد تطورت في (كتامة) و(صنهاجة) خلال شهري مارس وأبريل من سنة 1927 أحداث مهمة من جراء ارتداد بعض القبائل الخاضعة والمجاورة لخط دفاعنا، والتي بلغت حداً من الخطورة الحقيقية كاد أن يقضي على التطور الطبيعي الذي حصلت عليه الحملة لو لم تقم القيادة العليا بتطوان بإغاثة سريعة. لقد أعطينا شرحاً وافياً عن خاصية المرونة التي اتصفت بها الجبهة الغمارية والصنهاجية نظراً لعدم القيام بالاحتلال العسكري للقبائل الخاضعة من هذين التحالفين خلال فصل الشتاء. وحيث إن القبائل الخاضعة المجاورة لخط دفاعنا، والتي لم تكتسح عسكرياً، لم تكن توجد بها أية حماية ثابتة وراء المراكز المحصنة، بحيث كان عليها أن تتكبد غارات الفارين والشوار من القبائل المجاورة، كان يجب أن يترك لها جزء من السلاح لتنظيم (ايدالات) برئاسة القواد المناصرين لنا، الذين كان عليهم أن يدافعوا عن الجبهات طيلة فصل الشتاء، بالاستناد إلى مجموعات من القوات الخليفة الرابضة

إلى الوراء على نقط مناسبة. وفي غمرة، فإن الحصول على صداقة قواد أكثر نفوذاً وشهرة من طرف اليوتنان كولونيل «كبّاس»، سمح ببقاء الجبهة سالمة طيلة الشتاء.

وعلى العكس من ذلك في (كتامة)، فإننا لم نستطع الحصول على أكثر من تعاون القائد التولوز المخلص الشجاع. غير أن نفوذه لم يتجاوز الجزء الشمالي من القبيلة. أما القائدين: الليل، والحياني، فقد رفضا الخضوع، وجرا معهما إلى الثورة جزءاً من هذه القبيلة. وهذا الوضع أحسن استغلاله من طرف القائدين: التسماني، وابن نوح اللذين كانا يقودان جماعة (الفارين من الريف) الذين استمروا على تمردهم في (بني خالد) بالاتصال مع القائد الملي من (الأخماس العليا) وهكذا تمكنوا من تشكيل خلية من الفارين ذات عدد متغير حسب المساندة العرضية التي كانت تُمدُّهم بها القبائل التي لا تزال تائرة من غير أن يتجاوزوا 1000 بندقية، يقودهم: المقدم التسماني، وابن نوح، والملي، والليل، والحياني والقائد مُحَنَّد، ازداد فيما بعد، وهو أحد قواد الألف لابن عبد الكريم الذي قاد صحبة بوحوت، الهجوم على (البرانس) و(التسول) المنطقة الفرنسية سنة 1925، والذي بعد أن استسلم لنا استطاع أن يلحق في شهر مارس بالثوار. وأخيراً، تحت رئاسة الشريف سيدي محمد بن علي أخمليش (السليطن) الذي ارتد هو أيضاً، حسداً من ابن عمه، الفلاح أخمليش عندما رأى النفوذ الممنوح له من طرفنا. ونظراً لمكانته كشریف، استطاع الوصول إلى رئاسة هذه الخلية من الفارين. لقد استطاعت هذه الخلية من الثوار التمرکز في الجزء

الغربي والجنوبي من (كتامة). وفي ليلة 5 إلى 6 فبراير، قامت بأول استعراض لوجودها بالهجوم على (ايدالة) القائد التولوذ في (وحشيد) غرب (كتامة)....».

.....

«كانت القوات المحتلة بـ (كتامة) بقيادة القبطان (Ostariz) في هذا التاريخ مشكلة من جماعة من (ايدالة) صنهاجة السراير بقيادة القبطان (Sanchez Pèrez)، ومن (ايدالة) القائد التولوذ من (كتامة)، وطابور من (حركة مليلية)، وطابورين للمشاة، وآخر للفرسان من (المحلة رقم 5) ومن وحدات ناقصة للخدمات الصحية والإمدادات، والاتصالات (الراديو) والتموين بلغ مجموعها 1947 رجل».

.....

«وقد بعث القائد العام بتاريخ 8 مارس البرقية الآتية إلى القائد الأعلى بمليلية:

«ظهور جماعات العدو في الجزء الجنوبي لكتامة، يمكن أن يشكل خطراً على مراكزنا جنوب (صنهاجة السراير) في (برانت) و(أدمان) و(زرقت). لذلك يجب على سيادتكم أن تضعوا مجموعة لا تقل عن طابور من القوات الحليفة أو القوات الحليفة أو القوات النظامية (Regulares) كإحتياطي لمراقبة هذه الجبهة من مكان يمكنها منه الحضور في أقرب وقت يطلب فيه منها مساعدة هذه المراكز».

.....

واقعة (وَرَطِيط):

«في الخامسة عشر يوماً الثانية من شهر مارس، بدأت في الظهور من جديد، مجموعات صغيرة من الهاريين جنوب (كتامة) وفي نواحي (تغزوت) وفي يوم 18 منه، استقبل في تطوان نبأ خروج الشريف (السليطن) أخليش من قبيلته، وانضمامه إلى الثوار صحبة بعض الأنصار من عائلته. وفي يوم 26 منه، استقبلت الأنباء الأولى عن ارتداد قبيلة (تغزوت).

لقد كان قائد (تغزوت) سيدي أحمد، صديق (السليطن)، يعد من غير شك ولمدة طويلة لهذا الغدر باتفاق مع هذا الأخير.

كانت قبيلة (تغزوت) الواقعة على خط جبهتنا لزرت
— (أدمان) — (تبرانت) قد احتفظت بعد استسلامها بجزء من أسلحتها من أجل الدفاع. وبحجة تهدة النفوس وضمأن الاستسلام، وطلبت إقامة مركز عسكري بالقبيلة؛ فلم يكن أمام قائد موقع مليلية إلا أن يبعث بكتيبة من الجند النظاميين (Regulares) من مجموعة مليلية بقيادة الملازمين: (Ortega) و (Diaz) De La Serrana) قدمت القبيلة مراسيم الضيافة لهذه الكتيبة في القرية الهادئة الحاملة (ورطيط)، الطبيعة في هذه القبيلة باهرة الجمال: الوادي خصيب، ملء بأشجار البرتقال وأزهار الليمون، غني، مصنع، رجاله فنانون جديرون بالذكر يقومون بصناعة الجلد والخشب. وفي الأعالي على مسافة ساعتين مشياً، توجد القمم المغطاة بالأرز والثلج من جبل (تدغين) وجبل (اغروزن) التي تكون خلفية ساحرة، وصبغة ناعمة خضراء لهذا الوادي.

في هذه الطبيعة الودية الباسمة، وقع بتاريخ 26 مارس الهجوم الغادر، لقد قام رجال هذه القبيلة برئاسة قائدهم سيدي أحمد وخلية مركبة من 300 فار بقيادة (السلطن)، والقائد ابن نوح أحد أقرباء التسماني، بهجوم مباغت على مركز (تغزوت) يحملون قنابل يدوية. قامت قوات الجيوش النظامية (Regulares) بالدفاع بكل بسالة. وفي هذا الدفاع لقي مصرعه الملازم (Ortega) كما سقط الملازم (De La Serrana) جريحاً في حوزة العدو، ولقي حتفه فيما بعد كما يموت الشهداء، ولم ينج من هذه الغارة، إلا جندي واحد فقط من الأهالي هو الذي أبلغ نبأ الحادث إلى مراقبة (أدمان).

هاهم أولاء 71 من الأعداء يرفدون فيما بين قتيل وجريح أمام المركز، ومن بينهم: ابن نوح. أما المدافعون عن المركز، فقد هلكوا جميعهم، إلا أن كل واحد منهم قبض ثمناً لحياته، حياة أحد أعدائه. لم تكن هذه التضحية عقيمة، كما لم تكن مثيلتها عند استشهاد (Ostariz) بعد ذلك بأيام».

.

موقعة (تبرانت):

«بتاريخ 28 مارس ركب الجنرال قائد الموقع متن الطائرة إلى الحسيمة رفقة الجنرال رئيس قيادته العليا، للقيام بالإشراف بنفسه على العمليات العسكرية بـ(صنهاجة) و(كتامة) و(غمارة)، بعد أن ترك أعمال التعزيزات للمنطقة الغربية قائمة، وبعد أن أمر

العقيد «كياس» بأخذ طابورين من فرقته للقيام بنشاط في قبيلتي (بني كليل) و(بني سدات) اللتين بدأ الاضطراب يسودهما، وذلك بقصد ردعهما، وتأمين مؤخرة كتيبة (Pozas) عند ذهابها من (كتامة) إلى تغزوت).

وعند وصوله لقلعة المحروق Quemado Cala (Villa Sanjurjo) فيما بعد (الحسيمة حالياً)، أحاطه قائد الموقع علماً بالمصيبة التي حلت يوم 27، بالكتيبة الصغيرة للقبطان (Ostariz) عندما حاول إغاثة موقع (تبرانت) لقد خرج من (ترجيس) القبطان (Ostariz) في طابورين من (المحلة) في فجر يوم 27. وعند وصوله إلى (ادمان) دون مشقة، علم بوقوع الهجوم على مركز (تبرانت)، فانقض منساقاً بروحه المتسعة، وبأحد الطابورين فقط لغوت (تبرانت)، تاركاً الطابور الثاني وراءه صحبة بقية القافلة. وعند وصوله إلى (تبرانت)، وجد المركز مهجوراً لانسحاب حاميته إلى المنطقة الفرنسية أمام ضغط العدو؛ بينما تدخل العدو بين الطابورين وهجم عند فج (أوتيل) على الطابور الثاني. وعند تراجع (Ostariz) لنجدته من (تبرانت)، هجم العدو عليه بصفة مباغته، فلقي حتفه بشجاعة القبطان (Ostariz) على رأس قواته، وكذلك الملازمون (Cuevas) و (Aleman) و (Castell) و (Primo Ruiz) مع سقوط 245 جندياً من قوات الأهالي. أما بقية الطابورين صحبة القبطان (Valdès) والملازمين (Antonio) و (Alba)، وهم الضباط الذين بقوا على قيد الحياة، فقد انسحبوا بألم وحسرة إلى (ادمان).

«بعد دراسة الحالة التي خلفها ارتداد قبيلة (تغزوت) ودخول العدو إلى (صنهاجة)، أدركت القيادة خطر الموقف، فقررت منذ ذلك التاريخ ألا تقوم بأي نشاط، قوات قليلة يمكن للعدو المتغطرس من جراء انتصاراته الجزئية الأولى، أن يطاردها، بل يجب التوقف عند (ادمان) لتحصين هذا المركز، والبقاء هناك وبـ(تايئزة) لغاية جمع نجدات مهمة تؤلف منها حشود للعمل بهاتين النقطتين اللتين تسمحان بالقيام بعمل مركز على (تغزوت) بقوة ضاربة كافية ونصر مضمون».

.

(في إحدى المكالمات الهاتفية للمؤلف الجنرال «ثوديد» مع الليوتنان كولونيل (Aranda) ليلة 28 مارس، يخاطب الجنرال «ثوديد» العقيد «أراندا» قائلاً:

«يجب أن يحاط «كباس» علمًا بأن الأمر هنا يصير بكيفية معقدة، إذ ابتلع طابوران من (المحلة)، فيجب عليه أن يحضر في أقرب وقت صحبة طابوريه وقوات من مراقبات متيوه و(بني رزين) وبمساندة سياسية من جانب القائد أكويس... لردع هؤلاء القوم ونزع أسلحتهم بكل ضراوة، وإقامة طابور على وجه السرعة في (إغماض) لضمان سلامة مؤخرة (Pazas) مع إمكانية استبدال الطابور المقيم هناك الذي أصبح استبداله ضرورياً...»

إن السرعة وحدها هي التي يمكنها أن تنقذ الموقف...».

«بتاريخ 31 مارس، وفي ظرف خمسة أيام، تمكنا من التمرکز في «ترجيس»، وتوزيع أكثر من 5000 رجل على فرقتي (Mola) في

(ادمان) و (Pozas) في (تايّنة). وبالإضافة إلى ما كان بهذين
المركزين من القوى أصبح الكل يشكل حشداً مكوناً من 10.000
رجل من قوات الالتحام، مستعدين للتدخل في أي وقت».

وأثناء ذلك، وبتاريخ 29، استطاع الكولونيل (Mola) أن
يحقق الوصول إلى (ادمان) قائداً ببراعة فائقة فرقة عبر ذلك الميدان
الصعب أثناء الليل. وفي يوم 31 حاول العدو عند (زرقت) أن
يقطع حبل اتصال فرقة (Mola) بترجيست، مغيراً على مركز
(سيدي مسكين). ولكن قافلة خفر للتعزيزات، خرجت من
(ترجيست) تحت قيادة العقيد (Rada) من فيلق اللفياف الأجنبي
(Tercio)، فوصلت إلى (زرقت) في وقت مناسب لإحباط ذلك
الهدف».

.

من أجل القضاء على صنهاجة وكتامة:

«بعد أن يتطرق المؤلف للتعاون الفرنسي الاسباني الذي كان
موضوع المباحثات التي قام بها الكولونيل (Gendre) رئيس القيادة
العليا للقوات الفرنسية بالمغرب في الحسيمة، أتى بنص للأمر
العسكري رقم 1 الذي بعث به القائد الأعلى للجيش الاسبانية
بأفريقيا، إلى قائد موقع مليلية يتضمن خطة القضاء على (صنهاجة)
و (كتامة) و (تغزوت)، وذلك بتشكيل فرقتين قويتين: الأولى تعمل
على خلاص (ادمان - زرقت) تحت قيادة الكولونيل (Mola) والثانية
في (تانيزة - باب ستيكر) تحت قيادة الكولونيل (Pozas):

.

«في يوم 11 أبريل، أصبحت فرقنا (ادمان) و(تامينزة) مشكلتين».

.....

«حشد في مجموع قوات هذه العمليات من أجل القضاء على (صنهاجة) و(كتامة)، أكثر من 14.000 نفر أغلبهم من قوات التدخل».

أصبح كل شيء جاهزاً، وأصبح الوضع واضحاً تمام الوضوح، بحيث يسمح ببدء العمليات المخططة، مع ضمان النصر السريع».

.....

«إلا أن عناصر الطبيعة، انطلقت من عقالها في عاصفة ثلجية هوجاء، أحالت الخطط نحو وجهة أخرى، وأوقفت العمل، خالفة للقيادة وضعية من أصعب مامرّ خلال هذه المعارك التي نروي قصتها».

لم ينقطع المطر عن النزول بشدة في هذه المنطقة ابتداء من منتصف ليلة 11 إلى 12 أبريل، وابتداء من الفجر، أخذ الثلج يتساقط بغزارة في (ترجيس) وسائر الجبال، طامساً معالم الطرق والمسالك، بحيث أصبح من اللازم تعطيل مرور الجيوش والقوافل. وأثناء النهار، ازداد تساقط الثلج حدة، مصحوباً في نفس الوقت بانطلاقة إعصار حول المنطقة، إلا بعض الأخبار التي كان ينقلها بعض الراجلين من الأهالي، والتي مفادها أن بعض

الفرق أصبحت عرضة للهجوم بفضل هذه العاصفة، وعلى الأخص فرقة (Solán) عند (بوشعيب).

.

«واستمرت العاصفة الثلجية بنفس الحدة طيلة يومي : 13 و 14 أبريل».

.

«أصبح 50 في المائة من جنود فرقة (Pozas) في حالة خطيرة جداً بسبب تجمد الأرجل، كما نفقت جل الماشية، وشبيهة بهذه الحالة يجب أن تكون وضعية فرقة (Mola) التي لم يتمكن من معرفة أي شيء عنها، وكذلك فرقة (Solans) بمرتفع (بوشعيب) التي لا يعرف عنها إلا أنها تعرضت للهجوم بكل شراسة، وأنها بعثت تطلب الغوث في ثلاث إعلانات مستعجلة موجهة صحة بعض الراجلين إلى (تيزي افري)، و(اثنين بني عمارت) و(ادمان) تقول: «الوضع يائس إذا لم يصل الغوث في أقرب وقت». إنها وضعية أشد ما يكون حرجاً بالنسبة لقيادة معزولة تماماً، فاقدة لجميع الاتصال بوحداتها، وبمجموع 10.000 رجل من خيرة قوات التدخل، معزولين في الجبال، شبه مدفونين في الثلج، ومهاجرين في نفس الوقت من طرف عدو شرس وكثير العدد».

.

«في مساء يوم 14 أخذت حدة العاصفة تتناقص، وتوقف الثلج عن النزول، وأصبح الطيران، الوسيلة الوحيدة للحصول على معلومات حول الوضعية».

.

«وخلال يوم 12، وصلت أخبار متأخرة حول الهجوم المفجع في (بوشعيب) على فرقة (Solans) عندما وصل إلى القيادة بلاغ وجه إلى (تيزي ايفري) يوم 13 على الساعة 14.20 س، يذكر فيه الليوتنان كولونيل (Solans) بالنص: «إلى القيادة - مرتفع بوشعيب - ثابت في هذا الموقع، ومستعد للمقاومة مهما كلف الأمر. في هذا اليوم لم يضايقنا العدو كثيراً اقتناعاً منه من غير شك، بعدم جدوى مقاصده نتيجة الخسائر التي تكبدها في الأرواح. إلا أنه لجأ إلى محاصرتنا انتظاراً منه من غير شك أن تقضي الثلوج علينا. لم يبق من طابور (Regulares) العرائش غير أربعة ضباط و 200 رجل. تحي اسبانيا! لويس صولانس».

وفي بيانات لاحقة، علم أن العدو الذي هاجم هذه الفرقة كان يتزعمه (السليطن)، و(محمد أسدات)، وقد تكبد خسائر هائلة».

.....

«إن (الحركة) المساعدة المشار إليها في هذا الأمر (يقصد المؤلف هنا: الأمر العسكري رقم 2 من القيادة العامة)، كانت في طريق تشكيلها في مليلية تحت قيادة الكومندان (Bueno) والقائد عمروشن، وقد كانت مكونة من رجال (بني سعيد) و(بني توزين) بصفة رئيسية».

.....

«وفي فجر اليوم 18 من أبريل بدأت فرقنا (Mola) و (Solans) الهجوم، محرقين ومغيرتين على قرى (أوغريدن)، و(بورمضان)،

و (تَامَرَارِين) و (أَسْنُخُو)، فإنسحبت حشود (السليطن) الثائرة التي كانت في (تَفِرْتُوت) تاركة في حوزتنا 15 قتيلاً. أما الفرقتان، فلم تتكبدا غير 12 جريحاً.

استشهاد مَوْحُ أَرْدَاذُ:

«في نفس هذا اليوم، حاول العدو قطع المواصلات ما بين (ادمان) و (ترجيست)، فهجم بشراسة على مركز (سيدي مسكين) في (زرقت) الذي دافعت عنه بشجاعة الحامية الصغيرة من طابور مليلية بقيادة الليوتنان (Lopez de Haro) إلى أن وصلت نجدات (Regulares) الذين خرجوا من (زرقت). ومن بين 40 مدافعاً عن المركز، لم يسلم غير أربعة. غير أن العدو الذي انقضض بعزيمة حقيقية، تكبد عدة خسائر في الأرواح، من بينها: رئيسه الشجاع، العدو الخطير مُحَنَّد أسدات القائد الكبير فيما مضى لابن عبد الكريم».

.

«وفي يوم 29، وقع الزحف العام بحيث قضت فرقة (Pozas) على حشود العدو بهضبة (تَالْعُونْت) وإلتقت الكتائب الثلاث: (Pozas) و (Escalera) و (Mola) في جبل (إَغْرُورَن)، أما (حركة) (Bueno) صحبة القائد عمرو شن، فإنها قامت بغزو وتخريب جميع القرى التي لقيتها في طريقها، فأصبحت قبيلة (تغزوت) كلها مقضياً عليها، متكيدة بذلك عقاباً مثالياً على حيانتها».

.

المعارك الربيعية لسنة 1927 :

(من الخطة العامة للعمليات التي جرت خلال فصل الربيع
من سنة 1927 – القيادة العامة):
«التعاون الفرنسي»:

(أ) خلال الطور الأول من معارك (كتامة)، توفر القوات
الفرنسية التموينات لفرقتنا جنوب (كتامة) و (بني خالد) في المراكز
الآتية:

□ (قلعة بني بربر): ما يكفي لثمانية أيام من المواد الغذائية
لـ 2000 رجل والعلف لـ 500 رأس من الماشية، و 100000 من
خراطيش «الموزر»، و 1000 قنبلة يدوية.

□ (تاوانات): ما يكفي لثمانية أيام من المواد الغذائية والعلف
لنفس الأعداد السابقة من الرجال والماشية، و 50000 خرطوش،
و 500 قنبلة يدوية.

□ (قلعة بني قاسم): ما يكفي لثمانية أيام من المواد الغذائية لنفس
العدد من الرجال، والعلف لـ 500 رأس من الماشية، و 50000
خرطوش، و 500 قنبلة يدوية.

□ (الزهارين): ما يكفي لثمانية أيام من المواد الغذائية لـ 2000
رجل، والعلف لـ 500 رأس من الماشية و 100000 خرطوش،
و 1000 قنبلة يدوية.

فرقة من (الكوم)، وكتبتان، وبطارية تتابع سير فرقنا بموازة
حدود المنطقة الفرنسية من غير أن تدخل منطقتنا.

وخلال معارك (بني أحمد)، و (العلم الفوقي) (الأخاس العليا)، يجب على الفرنسيين أن يقوموا بتطهير المنطقة الكائنة عند جبهتهم من العدو في (غزاوة) ناحية (بني عميل) و (جبل قُشاقُشة) و (جبل كُولِيشْ) من أجل احتلالها بسرعة، وتزويد الحد المائي الفاصل بين نهر (زُبَار) (حوض زرغة) ونهر (الشريف) (حوض لوكوس) شرقاً، ونهر (الخميس) (حوض ورغة) غرباً، بالمدافع.

(ب) على الطيران (الفرنسي) أن يقوم بضرب (جبل الخزانة)».

.....

ومن جملة ما جاء في الخطة العامة المشار إليها أعلاه في باب (التنظيم اللاحق للمنطقة):

(ج) أما ضمان تهذئة المنطقة، فيجب أن يؤمن بواسطة نزع السلاح الكامل من القبائل. ومن أجل هذا الغرض، فإن الوحدات العاملة، هي التي تقوم بنزع السلاح خلال زحفها، ويكون كل منها مصحوباً بضابط من قلم المراقبة تكون مهمته الأساسية قاصرة على القيام بإحصيات نزع السلاح، دون أن يأذن لرجال القبائل البالغين 18 إلى 60 سنة بالعيش في مداشرهم، إلا إذا قام كل واحد منهم بتسليم بندقية في حالة جيدة. وبعد زحف الوحدات، فإن مراقبة كل قبيلة تكون مهمتها الرئيسية التي عليها أن تتركس جميع طاقاتها حينما يستتب الأمر للمخزن، أن تتابع بمثابة ودون ملل، تطهير المنطقة من جميع الأسلحة التي يمكن أن تبقى مستورة، مع وضع إحصائيات عن جميع الأسلحة التي تقوم

بجمعها في قبائلها، اعتماداً على لوائح التسليح التي كانت على عهد الناصر ابن عبد الكريم - في (Villa San Jurjo) 28 ابريل 1927.

«وقد أصبح العدو خائر القوى، وخسر زعماءه الرئيسيين: أحمد بودرة الذي أسر من طرف قوات «كباس» واخربرو الذي توفي في معارك نوفمبر في (بني يدر)، لم يعد يعتمد لا على تنظيم ولا على قيادة موحدة لتوجيه مقاومة منظمة، إلا أنه لم يعدم من يوجهه من رؤساء محليين، فتشكل في الأغلب من أشد الزعماء تعصباً، ومن الفارين من القبائل الخاضعة، وهم ثوار شرسون كنا نعلم أنهم سيتطوفون في المقاومة إلى النهاية. كانت المراكز الرئيسية لمقاومتهم في أعالي الجبال التي تشكل العمود الفقري الأوسط لجباله، ذلك العمود الذي يكون الحد المائي الفاصل ما بين المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط. وهو امتداد للحد الجبلي، الأعظم الآخر في غمارة والمحدود في جباله بـ (جبل العلم) و (بوهاشم) و (السكنة) و (الحزانة)، وعلى الأخص الأول من هذه الأربعة الذي يعتبر جبلاً مقدساً، وحرماً لا ينتهك، لأن به مقبرة مولاي عبد السلام بن مشيش التي هي بمثابة (مكة) لمسلمي الغرب» (هكذا).

.

«وبتاريخ 29 ابريل بدأت أعمال الإغارة على (بني عروس) من طرف ثلاث وحدات كان عليها انطلاقاً من (بوحراث) في (بني يدر) ومن (ركبة الغزال) في (بني عروس) ومن (المنسك) في

(بني كرفط)، أن تلتقي في سوق (خميس بني عروس)».

«كان مجموع القوات المعبأة للإغارة على (بني عروس) يصل نحواً من 14900 رجل تحت رئاسة الجنرال (Don (Berenguer (Federico قائد موقع سبتة».

قبيلة (سوماتة) ترغب في الاستسلام:

«احتل (خميس بني عروس) يوم 3 ماي 1927، وفي الأيام التالية من 4 إلى 7 ماي، توبعت عملية احتلال القبيلة كلها إلى أن وصلت إلى (ظهر البردع) حيث كان من المقرر إقامة قاعدة انطلاق الغارة على قبيلة (سوماتة).

«وابتداء من اليوم التالي لاحتلال (خميس بني عروس) شرعت قبيلة (سوماتة) في بعث الرسل للقيام بالمساعي الضرورية للاستسلام. هذه القبيلة الجموحة التي خائننا سنة 1921، والتي بعد أن كانت قد استسلمت، ارتدت بعد وقوع حوادث (أنوال)، وأغارت بصفة مباغطة على منهل معسكر (النوادر) متسببة في سقوط 40 قتيلاً. وبذلك اكتسبت في جباله شهرة القبيلة المتنادية في الثورة، والمغلقة على كل محاولة للاستمالة أو التأثير السياسي، والتي لم ترزح قط حتى للشريف الريسوني في عز سطوته على جباله، كان يقود مقاومتها الشريف المتعصب (الشاوني). وعلى أعالي جبالها الوعرة المغطاة بغابات كثيفة، كان الثوار، والهاربون، والمجرمون من القبائل الأخرى، يجدون ملجأ كانت تلك الجبال

تعتبر عائقاً لا يمكن تجاوزه من قبل قواتنا. وكان التفكير في الهجوم عليها، يعتبر بمثابة عمل جدي مليء بالمصاعب».

«في يوم 13 ماي، بدأ الهجوم على (سوماته)».

«بعد كسر شوكة القبيلة والتغلب على الجزء الشمالي، التجأ الثوار إلى الجبال العالية المقفرة في الناحية الجنوبية. ومن أجل إنهاء السيطرة التامة على جميع القبيلة، قامت بتاريخ 23 يونيو وحدات (Balmes) و (Castello) بقطعها من الشمال إلى الجنوب على المنحدرين الشمالي والجنوبي للقمة الوسطى / مروراً بـ (الزعرورة) و (عين بيضة) على التوالي حيث التقت عند ضريح سيدي مزوار (الذي تعتبره الأسطورة مكان الوقائع التمهيدية للمعركة الشهيرة بالقرب من القصر الكبير (يقصد: معركة وادي المخازن) التي مات فيها ملك البرتغال San Sebastian».

قبيلة (سوماته) تستسلم:

«في ظرف عمليات ثلاثة (أيام 13 و 14 و 23) أصبحت قبيلة (سوماته) العvisية المحاربة، خاضعة تماماً. أما العقاب الذي تجشمته، فقد كان قاسياً جداً بحيث جمعت منها 1000 بندقية، وأغار (حركة بني ورياغل) على أكثر من 3000 رأس من الماشية، وخرجت عدة مداشر، وقد أحدثت المفاجأة مفعولها في رجال القبائل من جراء سرعة وشراسة الهجوم لدرجة أن من لم يستطع

منهم سحب عائلته - بالرغم من الإعلام الذي وجهه الجنرال «سانخور» في سوق (الخميس) عند قطع المباحثات يعلمهم فيه عن رغبته في ألا يتألم النساء والأطفال - فإن عدداً كبيراً من النساء، عولجن بمستشفياتنا. وكمثال على شتات العائلات الذي وقع على أثر الهروب، نذكر حادثة رئيس القبيلة الثائرة نفسه: الشاوي الذي حضر لدينا يطلب الترخيص له في البحث عن زوجته التي اختفت فرخص له في ذلك».

.

استسلام قبيلة (بني يسف):

«واستغلالاً للموقف من طرف القبطان (Font) مراقب قبيلة (بني يسف)، وبمساعدة أحد أنصارنا القائد أحميدو الخمال، استسلمت قبيلة (بني يسف)، في سوق (خميس بني عروس) في اليوم 16 من ماي، أمام القائد الأعلى والمفتش العام للمراقبات، قائمة هي نفسها بمصاحبة القوات وعلى الأخص منها قوات المراقبات التي احتلت ونزعت أسلحة القبيلة».

.

احتلال (تزروت):

«وبتاريخ 3 يونيو، احتلت وحدات (Balmes) (تزروت) دون مقاومة، وهي الإقطاعية السابقة والمقر القديم للريسوني».

.

حتى الأموات يستسلمون الرجل الذي مات مرتين

«في اليوم 8 من شهر ماي، اصطدمت قوات الكولونيل «كباس» في معركة قاسية في (باب برد) مع عصابة التسمماني، حيث هزم هذا الأخير. وأذكر كنادرة مستلمحة، أنه في هذه المعركة، ظن أن القائد محمد التسمماني قد توفي نظراً لأن عدداً من الأهالي أكدوا التعرف على جثمانه من بين أموات العدو المجمعين، وهكذا بُعِثَ الخبر إلى الحكومة. وبعد ذلك بشهرين عندما حلت بالأخماس آخر بقايا الثورة وحضر جميع الرؤساء المتمردين بالجملة: تملكنا الدهشة عندما حضر من بينهم القائد التسمماني نفسه الذي حسباه قد توفي. أخذتنا الحيرة، ولم ندر كيف نفسر هذا الخطأ للحكومة، وعند ذلك خطر للجرنال «سانخورخو» مخرج ذكي، إذ عندما أنهى المؤلف كرئيس للأركان العامة كتابة البلاغ الرسمي حول العملية النهائية للمعركة الذي ذكر فيه الأعداد الكبيرة من الرؤساء الثائرين الذين استسلموا ومن بينهم التسمماني، أخذ الجرنال «سانخورخو» القلم، وأضاف عند نهايته العبارة الآتية: «حتى الأموات يستسلمون».

انتقال (السلطن) إلى (عنقود):

«بعد أن هزم (السلطن) اخمليش في (تغزوت) و (كتامة)، استطاع أن ينشئ مركزاً آخر له بمدشر (عنقود) (قبيلة بني أحمد).

فكان من اللازم العمل بسرعة قبل أن يستحفل أمره، وبشكل مقاومة حقيقية ضد تقدم قواتنا نحو الغرب. كانت المعلومات التي وصلتنا، وكذلك معلومات إدارات الشؤون الأهلية للفرنسيين تفترض أن (السليطن) يهدف إلى التصلب في لمقاومة عند (عنقود) حيث جمع أكثر من 1000 محارب، ومخزن مهم للأسلحة والذخيرة. وعلى أساس ذلك كان يفترض أن الهجوم على (عنقود) سيصبح عملية من الأهمية بمكان. ولتسهيل هذا الهجوم والعمل بكامل الوثوق في النصر، زحفت وحدات الاحتياطي للكلونيل (Mola) بمساعدة وحدات (Capaz). وفي اليوم 22 من ماي - وعلى أثر مسيرة ليلية بلغت 30 كيلومتراً، أصبحت بعدها وحدات «كباس»، عند الفجر خلف مواقع العدو - انقضت الفرقتان معاً على (عنقود) بصفة مباغتة، فهزم (السليطن) واستولت القوات على جميع مخزن الأسلحة والذخيرة، مع سقوط أربعة فقط من الجند الأوروبيين، و 56 من الجنود الأهالي. هذه المعركة التي كان يظن أنها ستكون دامية، هي التي مهدت لنا الدخول إلى (بني أحمد السراق).

.

«وفي اليوم 29 من شهر ماي، تقدمت فرقة «كباس» من (عنقود) نحو سوق (ثلاثاء بني أحمد) حيث استسلمت (قبيلة بني أحمد السراق) بفضل نفوذ القائد المصلوحي (ينبغي ألا يغيب على البال أن القائد المصلوحي كان من كبار قواد ابن عبد الكريم أثناء هجومه على قبائل ورغت جنوباً) الذي كان «كباس» قد أجرى معه اتصالات سياسية من حين دخوله إلى غمارة الجنوبية.

وفي يوم 7 يونيه، احتل «كباس» سوق (أحد بني دَرُكُول) في (الأخماس العليا) حيث انضمت إليه مجموعة (بني بوحلو).

لقد أصبحت قبيلتا: (بني خالد) و (بني أحمد السراق) من هذا التاريخ محتلتين، منزوعتي السلاح، وتحت رحمة هجمات ثوار (الأخماس).

أما خلايا الثوار: (السليطين) و (التمسماني)، والقائد (الملي) وهذا الأخير من (الأخماس)، فقد تحصنت بغابة (كورت) وبأعالي جبل (تَارِيَّة). وبعد ملاحظة تقدم وحدات جباله نحو (باب تازة)، فإن فرق غمارة توقفت عن زحفها لإعطاء الوقت الكافي لاحتلال (الأخماس السفلي)، وللعمل الأكثر تركيزاً فيما بعد على جبل (تارية).

وأما في جباله، فبعد استسلام (بني عروس) و (سومانه) و (بني يسف)، فقد أصبحت نواة التمرد محاطة في المرتفعات الصخرية لجبل (العلم) و (بو هاشم). لقد آن وقت الهجوم على هذه المرتفعات وتمزيقها حسب الخطة المدروسة بدءاً بالهجوم على (جبل العلم). و (جبل العلم) يشكل في نفس الوقت هدفاً عسكرياً وسياسياً ذا أهمية قصوى، وذلك لالتجاء الخلايا النائرة به، ولصبغته الدينية التي يكسبه إياها وجود مقبرة الولي الصالح مولاي عبد السلام به.

لم يسبق قط لقواتنا أن وضعت أرجلها على هذا الجبل المقدس وأن الإقدام على هذا العمل، يجب أن يبلغ درجة عالية من

المهارة السياسية لتجنب خدش الشعور الديني للقبائل الخاضعة، وحتى شعور جنودنا من الأهالي. ومن أجل ذلك، استشير مسبقاً حول هذا الموضوع الصدر الأعظم ابن عزوز، المستشار العالم الذي عقد اجتماعاً مع شرفاء تطوان، واقترح على أثره على المقيم القائد العام، أن يتجنب دخول القوات الأوروبية إلى فناء الحرم المحيط بمقبرة مولاي عبد السلام، وأن يبعث عدداً من الشرفاء صحبة الوحدات العسكرية ليتقدموها في اللحظة الأخيرة فيلقوا على شرفاء الولي الصالح الرسالة الآتية من الصدر الأعظم:

(لا يمكن اعتبار ماسيأتي من هذه الرسالة أصلاً، لأنها في الأصل مكتوب بالعربية وبأسلوب دار المخزن بلا شك. لذلك سترجمها عن الإسبانية لنأخذ فكرة عامة عنها فقط).

«الحمد لله وحده ولا يردوم إلا ملكه

سلام الله على جميع الشرفاء القاطنين بجبل العلم أبناء مولاي عبد السلام بن مشيش.

ليكن في علمكم أننا قد عينا الأجل الأجل، الخادم الأمين لمولانا، الباشا سيدي الحاج ادريس بن عبد السلام، والشرفاء: سيدي محمد المرون، وسيدي عبد السلام ولد سيدي الحسن، ومن يصحبهما ليقوموا بحمل (هدية) المخزن أعزه الله الذي تفضل بتقديمها لسيدنا مولاي عبد السلام نفعا الله ببركاته، وباسم مولانا الخليفة واسم المقيم العام لإسبانيا وباسمي الخاص، نمنحكم الأمان جميعاً، تحجباً لإزعاجكم وتكدير هذا المكان المقدس إن أنتم أصحتم

السمع لنصائحنا القائمة على تجنب دماركم، أن تدخلوا في طاعة المخزن كباقي القبائل الأخرى المجتمعة هنا. وفي حالة عدم انصياعكم، فإن اللعنة جميعها ستنصب عليكم وعلى أبنائكم، ولن يكون أحد مذنباً غيركم، ونحن نمنحكم مهلة ثلاثة أيام لتروا ما يناسبكم، ولا تنسو أننا نقسم بمولاي عبد السلام، أنكم لن تلقوا إلا الخير والرخاء اللذين نتمناها لكم. فإذا لم تسمعوا، فأنتم وحدكم المذنبون، إذ أن المخزن أعزه الله، كان دائماً يفكر في تجنب إراقة الدماء، ومجهوداته في هذا السبيل يستحيل تعدادها.

ألهمكم الله السداد، وألهمنا جميعاً، والسلام.

محمد بن عزوز حفظه الله

دفاع عن آخر شبر من أرض الإسلام:

«أما داخل التنظيمات العسكرية، فقد علم أن لثوار الأكثر تعصباً، قد اجتمعوا في الصخور الجبلية الوعرة، المغطاة بغابات كثيفة تجعل مهمة الدفاع عنها سهلة، وهم: الحارطي، والسيتو، وسيدي فضول، وعبد السلام الحريشي، والشاعر، والبغدادي، على استعداد للقيام بمقاومة يائسة حسبما فهم من الجواب الوارد على رسالة من مفتش المراقبات يدعوهم فيها إلى الاستسلام:

«نحن نعلم أننا قد خسرنا الحرب، ولكن، مادامت هناك قطعة واحدة من أرض الإسلام، ففيها سنقاتل».

.....

(فقرة من الأمر بالعمليات الحربية رقم 11).

«وضعية العدو - أخبار مؤكدة تشير إلى أن العدو قد انقسم إلى ثلاث فئات موثقة العهد: واحدة عند (حافة عايشة) (الجانب الجنوبي لباب عايشة)؛ وأخرى بهضبة (السَّطْح) (مابين باب السطح وباب العروسة)؛ وثالثة في (ظَهْرُ الحَيْط) (المعسكر القديم للريسوني فوق السلالين). ويوجد حرس قوي بمداشر (أَضْيَان)، و(لحسن)، و(تَلَامِيْن)».

.

«وبتاريخ 16 يونيه - وكان يوافق عيد التجسيد المسيحي المقدس Corpus - بدأ الهجوم على (جبل العلم).

كانت المقاومة عظيمة جداً، وعلى الأخص ضد فرقة Alvarez coque وطليعته المشكلة من (حركة (Lopez Bravo).

ومن مركز قيادة الموقع المقام في (Timisar) فوق (أربعاء بني حسان) كنا نشاهد المعركة القوية، والزحف العسير لطليعه فرقة الكولونيل Canis التي يقودها الكولونيل (Varela)، كان بجانبنا القائد السيد أحمد رُمان الفتوح الذي استسلم قبل ذلك التاريخ بيومين، والذي كان يتابع بكامل الانتباه مسيرة تلك الفرقة، جاهلاً المناورة الممثلة في اختفاء الفرقتين الأخريين وراء الجبل، فكان لا يفتأ يكرر من حين لآخر «لن تصلوا إلى الأعلى». وعند الساعات الأولى من المساء حينما وقع اتصال الفرق الثلاث ببعضها، وظهرت أعلام قوات جنودنا الأهالي الآتين من الشمال ومن الغرب، التفت إلى الفتوح وسألته: «والآن هل تعتقد أننا قد وصلنا؟» فكان جوابه: «بهذه الطريقة طبعاً؛ لأنكم تصعدون من أمكنة عديدة في آن

واحد». الأمر الذي يدل على اعتباره لهذا العمل حيلة كريمة في الحرب، نظراً لعدم تمرسه على المناورة.

وفي يوم واحد، أصبح (جبل العلم) الشهير محتلاً، وكان أثر الهزيمة حاسماً بحيث إن العدو لم يعد يجرؤ على المقاومة في (بوهاشم) الذي احتلت قمته بكامل السهولة يوم 17، في ضربة جريئة من طرف قوات (المحلة) من فرقة Balmes بقيادة الليوتنان كولونيل Villalba.

وفي يوم 21 ماي، صعد المقيم العام صحة المفتش العام للمراقبات والصدر الأعظم وأعيان وشرفاء تطوان إلى (جبل العلم) لتقديم قربان باسم المخزن لضريح الولي مولاي عبد السلام حيث توافد العدد العديد من أهالي جميع القبائل الخاضعة في مهرجان بهي عجيب بطوائفهم وأعلامهم للحج، وتقديم القرابين لهذا الضريح الذي انقطعوا عن زيارته طيلة المدة التي بقي فيها محتلاً من طرف الثوار».

.

«وفي يوم 24 يونيه، أصبحت بقايا التمرد محاصرة في (الأخاس) وهي آخر قبيلة ثبتت على الثورة، بالإضافة إلى جزء آخر من قبيلة (غزاوة). لقد بقيت هذه القبيلة طيلة مدة الحماية مقسمة بين المنطقة السلطانية والمنطقة الخليفة الذي ينتمي للمنطقة الاسبانية».

.

«وللقيام بعمل في (الأخاس)، شكلت سبع فرق بلغ مجموع جندها 20750 نفرأً على هيئة قوس يستند طرفاه على حدود المنطقة الفرنسية عند سوق (أحد غدير الكروش) وسوق (ثلاثاء بني أحمد) بحيث أصبح الثوار محاصرين عند مرتفعات (الخزانة) و(تنغاية) و(تارية)، وكانت جبهة انتشار هذا القوس تبلغ حوالي 100 كيلومتر».

قتال ملحمي:

«في اليوم 29 من يونيو، استولت قوات Saez de Buruaga و Canis على (جبل تيسوكة) و(باب تازة) متحملة من العدو قتالاً عنيفاً تسبب في سقوط 67 نفرأً ما بين قتيل وجريح من قواتنا، إلا أنه ترك في الميدان 50 قتيلاً و100 أسيراً، و1000 رأس من الماشية».

«أما بقية الثوار، فقد أصبحوا يدافعون باستماتة ويأس في (جبل الخزانة) و(تنغاية) و(تارية)، موفين بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم في الدفاع عن آخر شبر من أرض الاسلام. إنها معركة ملحمة يحاول خلالها حفنة من الأبطال، والمقاتلين المتعصبين الذين أعماهم خطؤهم في رفض قبول الحماية التي أصبح معترفاً بها من طرف جميع القبائل، يحاولون مقاومة هجوم 20.000 رجل يتقدمون بثبات، دون مهادنة ولا استراحة مكهرين بانتصاراتهم المتوالية، وراغبين في إنهاء تلك المقاومة الدموية التي لا جدوى من ورائها، في أقرب وقت».

السليطن يطلب اللجوء:

«وأثناء ذلك، فإن الجيوش الفرنسية طبقاً لخطّة التعاون المتفق عليها في محادثات تطوان بتاريخ 15 ماي بين الكولونيل Gendre رئيس الأركان العامة الفرنسي، قامت باحتلال قمة (غزاوة) ابتداء من (أسردون) إلى (إكلادين) حيث التقت بفرقتي Mola و Asensio.

وفي يوم 7 يولييه أبلغ الجنرال بيتان الذي كان يقود القوات الفرنسية بـ(غزاوة) أن (السليطن) اخمليش يلتزم قبوله بالمنطقة الفرنسية، وأنه قبل الترخيص له في ذلك، ووفاء منه لفروض التعاون، يسأل هل يمكنه قبول استسلام الزعيم الثائر الذي لم يجرؤ على أن يسلم نفسه لقواتنا خوفاً منه على نفسه من جزاء خيائته في (تغزوت).

فلم يكن من القائد الأعلى إلا أن يبعث بالبرقية الآتية يستشير فيها الحكومة:

«توصلت بهذه البرقية من الجنرال Petain الذي يقيم في (أسردون):

«عند مروري بـ(أسردون) التقيت بأخ (السليطن) اخمليش الذي أبلغني رغبة (السليطن) في اللجوء إلى المنطقة الفرنسية، وذلك تفادياً لمعركة يائسة. أظن أن موافقتنا على قبوله، تتمشى مع تفكير القيادة الاسبانية وذلك للحيلولة دون معركة غالية التكاليف، بشرط أن يقوم بتسليم جميع الأسلحة. ومع ذلك فإن اخمليش،

لا يقبل الانتقال إلى خطوطنا وتسليم سلاحه، إلا بعد أن يكون متيقناً من أنه لن يرد فيما بعد للسلطات الاسبانية. أظن أن اتفاقاً حول هذه الشروط شيء مرغوب فيه، ومع ذلك، فإنني لا أريد أن أعقد مباحثة مع أخمليش حول هذه الأسس دون موافقة «القيادة الاسبانية» وضعية القوات الاسبانية اليوم – نظراً لقيامنا بزحف في هذا الصباح – هي: الاحتلال النهائي لـ (جبل تنغاية) وسوق (خيس الحرايق) ومدشر (فيقي) وسوق (ثلاثاء بني أحمد)، في حين أن الثوار الذين يقودهم (السليطن) آخر زعيم نائر، أصبحوا محاصرين في اتجاه المنطقة الفرنسية، مسيطراً عليهم بصفة كاملة، وتحت شروط القضاء عليهم في معركة واحدة، ومن جهة أخرى فإن استسلام (السليطن)، سيؤدي بكامل التأكيد إلى نهاية الثورة، ومع الوثوق التام في اعتبار هذه الحرب منتهية على أي الوجوه، يمكن القيام بما تأمر به سيادتكم».

بعد إجابة الحكومة على هذه البرقية، تفيد أنه من الأنسب قبول تسليم (السليطن) نفسه في المنطقة الفرنسية، بعث القائد الأعلى بتاريخ 7 يوليه البرقية الآتية إلى القيادة الفرنسية:

«جد شكور لسيادتكم على الاقتراح الرقيق الذي تفضلتم بيعته من (اسردون) وفاء منكم لاتفاقنا على التعاون واعتباراً مني دائماً بأن جيوشنا أمام العدو، تكون جيشاً واحداً تقوده نفس المصالح والتوجيهات، واستلهاماً مني للعواطف الانسانية بالرغم من وثوقي – نظراً لوضعية قواتنا – بأن عملية واحدة تكفي وحدها لإبادة الخلية التي يترأسها (السليطن)، فإنني لا أعارض مصلحة

اجتياز (السليطن) إلى الخطوط الفرنسية. ولكن، وحتى لا تحبط النتيجة المعنوية والمادية التي يجب علينا أن نتظرها من جراء الهزيمة التامة للثورة أرجو من سيادتكم أن يكون هذا الاجتياز هو الوحيد، ليس فقط بواسطة تسليم جميع الأسلحة التي يمكن أن تكون في حوزة الخلية التي يرأسها الثائر المذكور، ولكن زيادة على ذلك، يجب أن يفرض على (السليطن) كشرط أساسي، الابتعاد عن حدودنا».

استسلام السليطن:

«وباستسلام (السليطن) يوم 8 يولييه 1927، يمكن اعتبار الحرب منتهية بصفة عملية، ولكن بقي علينا أن نقوم بأخر عملية لاحتلال آخر ركن من المنطقة، فأخذنا نهيء للقيام بها يوم 9.

(الملي يطلب مهلة للاستسلام)

«وفي ليلة 8 يولييه بعث الملي قائد (العلم الفوقي) (الأخاس العليا) رسولاً إلى مخيم المعسكر العام في (باب تازة) يطلب مهلة 24 ساعة من أجل إقناع رجاله بالاستسلام، وتقديم أسلحتهم دون محاولة القيام بمقاومة لا تجدي. ورغبة من القيادة في حقن الدماء، وافقت على منح هذا الأجل المطلوب تنازلاً، قصد إنهاء العملية الأخيرة لهذه الحرب في يوم 9 من يولييه بالضبط، وهو يوم الذكرى السنوية لاندلاع هذه الحرب التي بدأت فيما قبل ذلك بثمان عشرة سنة عام 1909 م.

وفي الساعات المتأخرة من ليلة 8 يولييه، وبعد انصراف مبعوث الملي، ومن مخيم (باب تازة) آخر معسكر عام للقائد الأعلى، أخذ المؤلف يتأمل بعميق التأثير نيران مُحَيَّمَات جميع الوحدات التي حاصرت في دائرة ضيقة وحسبت في مجال مصغر بقية الثورة التي أصبحت مختزلة، والتي تسببت خلال 18 سنة كاملة في الكثير من الهُوم وتطلبت مجهودات وتضحيات عظمى لاسبانيا. وبفرحة الوثوق المطلق في النصر النهائي الذي أحرزت عليه جيوشنا في المغرب، تذكرت بألم عميق في تلك الليلة الافريقية الهادئة، أسماء الرفقاء، ومجموعة الجنود الشجعان الذين ضحوا بحياتهم وهم في ريعان شبابهم من أجل الوطن والحضارة، دون أن يفوزوا بالرضى العظيم في رؤية بزوغ فجر النصر. ويتأثر بالغ العمق من جراء تذكر هذه التضحيات والمعارك، وآلام هذه الحرب القاسية الطويلة التي انتهت في تلك الليلة بالمهلة المخولة للقائد الملي من أجل التسليم، دخلت خيمتي الحربية، وقد جفا النوم جفوني في حين أنه لم يتنكر لعيني طيلة ليال سابقة في معارك أقسى وأصعب».

آخر معركة:

«وفي يوم 10 يولييه من سنة 1927، جرت آخر عملية في هذه الحرب باحتلال (جبل تارية) وآخر ركن من (غزاوة) فقد قامت فرقة Mola بالزحف من سوق (ثلاثاء بني أحمد) عبر المنحدر الجنوبي من (جبل تارية) نحو (دُكَّالَة) وفرقة Capaz من سوق (خمس الولجة) عبر (زاوية الزياتي) نحو (جبل تارية)، و Martinez Monje

من (باب تازة) عبر غابة (كورْت) نحو (زاوية الزياتي)، و Asensio
عبر (غزاوة) (خمس الحرايق)؛ وفرقة Canis تتقدمها (حركة Lopez
Bravo) عبر قمة (تنغاية) نحو (جبل تارية) حيث التقت جميع
الوحدات، وكما سبق بيانه، فإن قبيلة (الأخماس) لم تقاوم، مسلمة
أسلحتها لضباط المراقبات الخليفة الذين كانوا على رأس وحدة من
أجل هذه الغاية.

لقد وضعت كلمة (النهاية) في آخر فصل من الكابوس
المغربي. وقد كانت اسبانيا كلها تشك في التأكيد اليقيني من القائد
الأعلى، حتى إن الحكومة نفسها خوفاً منها دون شك في إمكانية
ردود فعل، كانت القيادة في المغرب على علم يقيني بأنها لا يمكن
أن تحدث، لم تعلن عن انتهاء الحرب إلا في فاتح أكتوبر 1927.

ومن بين 66 قبيلة التي تشكل منطقتنا، احتلت بصفة كاملة
أو جزئية عند نهاية سنة 1925، 25 قبيلة لا غير، وخلال سنتين من
المعارك والهجمات المتوالية في نشاط ودون مهادنة أو استراحة،
أخضعت الواحدة والأربعون قبيلة التي كانت متمردة عند بداية
1926 كما احتل باقي مجموع المنطقة. إلا أنه قد وقعت السيطرة على
شيء أهم، إذ أن الاحتلال، ليس هو الحكم والهيمنة، والمغربي
لا يعتبر محكوماً مادام يملك بندقية، لأن فكرة التمرد كامنة في
روحه على الدوام. لقد نزع السلاح من جميع القبائل. وقام بهذه
المهمة قيادات أهلية بمساعدة وتوجيه مراقباتنا العسكرية».

«إن القواد من أنصارنا اقتناعاً منهم بضرورة نزع السلاح
كالقائد عبد القادر، والقائد عمروشن، والقائد محمد علال محمد

من (بني توزين)، وابن علي من (أنجرة)، وادريس الريفى،
والملاي، وآخرين، كانوا هم المساعدون الأكثر فعالية في عملية نزع
السلاح نظراً لنفوذهم وسلطتهم على أعيان قبائلهم».

.

فصول من حوادث نزع السلاح:

«مرت فصول في عملية نزع السلاح، تدل على مدى ما يمكن
أن يصل إليه حب المغربي وإفته للبندقية ورغبته في الاحتفاظ بها.
ففي عمليات (بني يدر) خلال شهر نوفمبر 1926، عندما سقط في
وسط المعركة القائد اخريرو، تقدم إلينا أهالي ربع (بني شراح)
للاستسلام وبأيديهم بنادقهم التي لا يزال عليها أثر الدخان. وعند
إبلاغهم أنه عليهم أن يسلموا أسلحتهم هناك في نفس الميدان،
حدثت في صفوفهم حركة تردد ومقاومة، ولكنهم وقد أصبحوا
محاطين من كل جهة بقواتنا، لم يجدوا بداً من تسليمها. وقد أحدث
ذلك في نفوسنا نحن الذين كنا نشاهد ذلك المنظر، تأثيراً حقيقياً
عندما كنا نشاهد أوجه أولئك الرجال الأشداء الذين كانوا قبل
ذلك بساعات قلائل يضاربون كالأسود، وقد بدت عليها آثار
الحزن العميق.

وعندما قامت فرقة «كباس» بنزع سلاح ربع (بني دركول) في
(الأخماس العليا) أواخر يونيو 1927 قبل انتهاء الحرب بأيام قليلة،
تقدم جبلي قوي وهو يذرف الدمع عندما كان يسلم بندقية «الموزر»

الجديدة، مصرحاً أنه لم تمر على اقتنائه إياها بخسمائة بسيطة أكثر من ثمانية أيام».

.

إحصائية:

«إن الإحصائية النهائية لنزع السلاح لغاية شهر ماي 1928 تلخص في الأرقام الآتية:

- من 1921 لغاية شتنبر 1925 : 7.719 بندقية.
- من شتنبر 1925 لغاية يوليه 1927 حيث انتهت الحرب ونزع السلاح بالجملة : 47.412.
- البنادق المسحوبة من طرف المراقبات ابتداء من نهاية الحرب سنة 1927 لغاية مارس 1928 : 2.785.
- البنادق المسحوبة في المنطقة الفرنسية من الهاربين من منطقتنا : 3.700.
- مجموع الأسلحة المسحوبة : 61.616.

بطل الجهاد أحمد اخريرو

لقد تزعم حركة المقاومة المسلحة، والجهاد الوطني ضد دول العدوان والاحتلال كثير من الرجال الشجعان، والمحاربين البواسل، وكانوا إما من سراة ووجهاء القبائل ذوي الشخصيات البارزة، والحيثيات الكبيرة، وإما من بسطاء القوم وعامتهم، وهكذا خرجوا من صفوف الشعب، وارتقوا أريكة القيادة بشجاعتهم، وجهادهم، وبسالتهم، حتى صاروا أبطالاً جديرين بكل تقدير وإعجاب حتى من الأعداء، ودخلوا باستشهادهم التاريخ من بابه الكبرى، فكانوا من العظماء الخالدين على الإطلاق، وما أكثر هؤلاء وأعظمهم في تاريخ المقاومة الوطنية المسلحة، وحركة الجهاد المقدس في المغرب ضد الاحتلال الأجنبي الفرنسي والاسباني منفرداً ومتحالفاً، ومن أشهر أولئك الأبطال الشهيد أحمد بن محمد الحزمري المشهور باخريرو، فقد خاض معارك الثورة الريفية في صف الأمير محمد بن عبدالكريم، فأبلى فيها البلاء الحسن حتى اشتهر اسمه، وذاع ذكره في صحف العدو والعالم أجمع، وكتب عنه الكتاب من الأعداء والمحايدين، وبهذا نال السمعة والاحترام على قدر جهاده، وبطولته، واستحق أن

نخصص له حيزاً من هذا الكتاب مفضلين ترك الحديث عنه لأحد كبار المسؤولين الاسبانيين في تطوان زمن السيطرة الأجنبية، وهو طوماس غارسيافيكييراس، الذي خصص له محاضرة ألقاها بمناسبة دورة تكوينية للمراقبين سنة 1951 - 1952 وفيما يلي خلاصة المحاضرة معربة عن الاسبانية :

أحد رؤساء جباله :
أحمد بن محمد الحزمري (اخريرو)
محاضرة أُلقيت بمناسبة دورة تكوينية للمراقبين
سنة 51 - 1952

يظهر أنه ليس من الضروري الإلحاح على حقيقة معروفة جداً هي : الجهل الأكبر بعملنا في المغرب. وفي بعض المناسبات، يتجاوز هذا الجهل الحد الذي يغتفر فيه لصاحبه هذا النوع من المعرفة حتى يصل إلى أولئك الذين كان يجب عليهم أن يملكوا حداً أدنى على الأقل من معرفة أساسية بالحقيقة المغربية.

وقد أمكنني الوقوف على هذا بكل أسف، في مظهر جد محدود من هذه الحقيقة .

إن الاهتمام الذي تلقاه معرفة التاريخ المعاصر لهذه الامبراطورية أمر بديهي من أجل عملنا الحاضر في المغرب، لأنه إذا كان في التاريخ عبرة، فإنه يكون أكثر عبرة حينما يعرض علينا أفعال غيرنا، وردود أفعالنا نحن الذين علينا أن نسهم في تطوره . وهذا بصرف النظر عن بعض المظاهر التي لا تقل أهمية كالرغبة

الطبيعية في المعرفة ولنص إيضاحها، وتقوية إيماننا بمعرفة سائر الفضائل البطولية لعملية التهذئة، وعثرات السياسة الداخلية والخارجية التي هي غنية بأحداث مغربية، ورؤية الكيفية التي اتخذتها هذه الحقيقة الأخوية الإسبانية المغربية بفضل نكران الذات الذي يتجذر مع أفضل ما في التاريخ الإيماري لإسبانيا، القائم على المفاهمة والكرم والمحبة.

إن التاريخ المعاصر ابتداء من مطلع قرننا هذا، إلى نهاية (التهذئة) - وهي فترة تستغرق سبعاً وعشرين سنة - لا يمكن كتابته إلا إذا اتخذنا أبطاله الرئيسيين أساساً لذلك: ففي الأقاليم الشرقية: الروثي بومارة، امزيان، عبد القادر، وعبد الكريم. أما في الأقاليم الغربية، فمولاي أحد الريسوني. وهذه الحقيقة الواضحة التي هي في متناول الجميع، لم تلق ما تستحقه من الفهم.

وقد أدركت المراقبات أيام عزها وحماستها سنة 1927 هذه الحقيقة، ولكن اقتصر دورها على التلميح فقط إلى هذه الحقيقة ربما لأنه كان هناك اهتمام أضيق حدوداً بمعرفة الأبطال، فالواقع هو أن العمل المتواصل من سنة 1927 إلى سنة 1930 بهذا الصدد، أدى إلى ظهور الكثير من (المذكرات) حول الزعماء الرئيسيين من مختلف القبائل بمنطقتنا، بعضهم أكثر أهمية، وبعضهم لا أهمية له. ثم وقف هذا العمل، وكانت الخسارة في عدم إتمامه وتوسيعه، وإلقاء الظلال عليه، والتمييز بين أولئك الأبطال الذين هم من الدرجة الأولى، وأولئك الذين لم يكونوا سوى توابع في فلك هؤلاء، ذلك

الفلك الذي يؤلف في الحقيقة عصب الحياة في هذا التاريخ الذي نبحث عنه .

لقد حاولت - وأحاول - كتابة تاريخ ناحية (جبالة) الغربية، ومنطقتها الساحلية على المحيط الأطلسي من خلال الشخصية الفذة لمولاي أحمد الريسوني، في حدود ضيقة جداً أعلم أكثر من غيري أنها ناتجة عن الكثير من الأسباب، بعضها خاص بي، والبعض الآخر راجع إلى نقص في الوثائق والوقت... الخ. إن المربع الواقع بين العرائش، طنجة، سبتة، وشفشاون، يكون في خطوطه العامة حدود المنطقة المدروسة. وفي وسطه يكون مولاي عبد السلام مركز الإشعاع الديني، وتكون طنجة مركز المناورات السياسية، وكمركز لأي حركة من أجل الحركة نفسها أو كرد فعل، يوجد: الريسوني.

وكم من الجهل والكذب، بل ومن الحماقات تلصق بهذه المحاولة! ففي نظر البعض: أن هذه المحاولة ما هي إلا تعظيم لشخصية أحد قطاع الطرق (؟)، وفي نظر الآخرين من الخذرين الذين لا ينتظر منهم أي شيء: إن الكتابة عن شخصيات معاصرة يعد خطراً، ويمكن أن يحدث ردود فعل (؟) أما الكثرة في النهاية، فهم يرون أن هذه الدراسات، هي بمثابة بكرة (كُبة) لا تنتهب، ومن خلالها ألحقت - حسب رأيهم - بالتاريخ جميع الرياسنة الماضية، والذين يمكن أن يأتوا، وعلى أساس هذه الخلفية من الانتقادات الطريفة، وتحت وطأة المحدودية التي أعرفها، والأخطاء التي يمكن أن تلقى على عاتقي، كم أرى بوضوح، أن التاريخ

الحي والإنساني لمنطقتنا، خلال تلك الحقبة التي تستغرق 27 سنة الماضية، لا يمكن كتابته إلا بهذه الطريقة!

وكبرهان على هذه الحقيقة، يبرز أمامي موضوع (اخريرو)، هذا الموضوع الذي عين لي كأحد المواضيع التي علي أن أبسطها في سلسلة هذه المحاضرات بمناسبة تكوين المراقبين أثناء السنة الحالية، وخلال العرض سندركون بكامل الوضوح صدق نظريتي، سندرس شخصية لها أوجهها الخاصة، وأهميتها التي لا تقبل النقاش، وبإلحاح كبير ستسمعون ترديد اسم: الشريف مولاي أحمد الريسوني، وهو - تأييداً لنظريتي - الذي يعد نجماً في الدرجة الأولى، أما (اخريرو) فهو كالكثير من الآخرين، ليس سوى أحد توابعه.

نشأة (اخريرو):

ولد (اخريرو) بمدشر (دار الغازي) جماعة (الواديين)، قبيلة (بني حزمارة) حوالي سنة 1868. وكان ينتمي إلى عائلة فقيرة. وكان منذ طفولته راعياً لدى أسرة (الحريطي) حيث نشأ، وقد عاصر (اخريرو) منذ نعومة أظفاره اضطراب المغرب وانحلاله، كظهور (الروثي) بوحارة وانعكاس ذلك على تطوان بهجوم القبائل الجبلية عليها، وسقوط السلطان مولاي عبد العزيز 1908 واستبداله بمولاي عبد الحفيظ، وبالاحتلال الفرنسي للشاوية، وتمرد فاس... الخ، الذي ترك في المغرب كله شعوراً من الكراهية للأجانب، وعداء نحو المسيحيين.

ولم يكن يتجاوز الأربع عشرة سنة عندما احتل الجنرال (ألفو) Alfau مدينة تطوان سلماً. وأن استقرار الجيوش الاسبانية بالمدينة، وضع حداً لهيجان القبائل المجاورة، ومن بينها قبيلة (بني حزمار). لقد شارك الحزمريون في معارك السنة على طول المواصلات: تطوان - اللوزيين. وكانوا ضمن (الحركة) التي نظمها بدار ابن قريش شريف (تَاكْزَارْتْ) من (بني عروس) سيدي الحسن⁽¹⁾ الذي نصبته قبائل جباله سلطاناً عليها من أجل الحرب المقدسة.

وبعد ذلك، أي في سنة 1915 حينما جرى الاتفاق مع الريسوني الذي كان فعلاً الشخصية ذات المكانة في جباله، بقي كأحد أفراد (الحركة) التي كان الشريف يؤلفها في دار ابن قريش.

ومن المنطق الافتراض بأنه حتى هذا التاريخ، أي عندما كانت سنه السادسة عشرة، كان قد أخذ يحكم استعمال الأسلحة، مع عدم إغفال أنه كانت قد نقشت في ذهنه مشاهد الحروب التي رآها في السنوات الأولى من عمره، تلك الحروب التي كانت مرتبطة بالجهاد المقدس ضد المسيحيين.

وعندما توفي المقيم العام (Gomez Jordana) (نوفمبر 1918) وخلفه بعد ذلك بأشهر قلائل الجنرال (Berenguer)، قطعت العلاقات مع الريسوني الذي قام على رأس ثورة جباله. ومن بين المقاومات الأولى التي كان على (المُخَزَن) أن يتغلب عليها، كانت مقاومة (ابن قريش) على طريق شفشاون، والتي لها أهمية قصوى في

(1) اسمه الحقيقي: سيدي محمد بن الحسن العلمي العروسي.

توسيع دائرة أمن تطوان، وفي سنة 1919 احتلت (ابن قريش) فذهب الشريف الريسوني إلى (تزروت).

تبعه أوفياؤه، ومن جملتهم: الطالب محمد الحريطي، الموالى المخلص للريسوني، ومع الحريطي، ذهب راعيه (اخريرو) الذي كان عمره إذ ذاك عشرين سنة، والذي لاشك أنه كان قد مارس استعمال الأسلحة، ويكل احتمال صحبة أحمد الحريطي الأخ الشقيق للطالب محمد.

وقد اجتمع حول الريسوني الذي أطلق عليه بعض الكتاب الاسبان حينئذ (صقر الزنات) و(سلطان الجبل) ثوار يارزون مثل: الطويلب، كوريطو، والشاوي... الخ. يصحب كل واحد منهم الثوار الرئيسيون من قبائلهم. أما قيادة هؤلاء المجاهدين، فقد عهد بها الريسوني لشخصية ذات صيت واسع: احميدو السكان الذي لقيه مصرعه سنة 1922 وهو يجاهد بشجاعة ضد الفرق التي كانت في طريقها لاحتلال (تزروت) أما (الحريطي) ومعه اخريرو فكانا يعيشان في ذلك الوقت بمدشر السُكَّان (بني عروس) وهو مدشر رئيسه المباشر.

لم تُخلد هذه الجماعة من الثوار إلى السكينة، ولئن كانت مهمتها الرئيسية هي حراسة الهجومات المرتقبة للمخزن، ومقاومتها، وإعاقة حركة المراقبين السياسية في استمالة القبائل، فإنها لم تستغن عن الالتجاء إلى وسيلة فعالة بشكل فائق هي: الاعتداءات والغارات التي كانت تعود عليها عادة بربح في الأسلحة والذخائر والأسرى الذين يقع تبادلهم بأخرين، وبالماشية التي

تستعمل للتعبئة، وبالأخص إذا مانحت تلك الغارات ضد مصالح المخزن، والتي كانت بالنسبة للقبائل المترددة سياسياً بمثابة وسيلة فعالة جداً في بقائها مدعورة أمام الخوف من ذلك المشهد المرعب المتمثل في إنهاء البقية من أيامها مثقلة بالسلاسل في أحد السجون المحزنة القذرة.

في هذا الإطار الأخير من النشاطات والاعتداءات والغارات، وبالأخص الاعتداءات نظراً لقلّة التجربة، وللمبالغة في الثقة من جانب قوات شبه الجزيرة الأيبيرية... التي كان من السهل مراقبتها لمعرفة نقط الضعف فيها، وبالأخص من طرف أناس كانوا ينتظرون دائماً وبكل دقة المناسبة المؤاتية، في هذا الإطار، أخذت تتميز جماعة مركبة من ثمانية أو عشرة شبان من نفس السن، من بينهم (اخريرو). وكان أن عهد إليه بعدة هجومات صغيرة لم يبق لها نظراً لتفاهتها أي ذكر، إلا أنه سرعان ما يؤاثره الحظ، فتسند إليه أعمال أكسبته شهرة واسعة.

النجاحات الأولية

اختطاف السلاوي وابنة الطريس (نوفمبر 1921):

لقد اختطفت الجماعة التي ينتسب إليها اخريرو سنة 1920 ضابطاً من القناصة ينتمي إلى حامية (إيزرْدُوِي) حملوه إلى (الحصن) وهذه الضربة، أكسبت هذه الجماعة سمعة بين الأهالي، استمرت بارزة في أعمال أخرى من القرصنة، والآن وقد أصبح أكثر جرأة، فقد هيا للقيام بضربة ذات صفة خارقة. في ليلة الخميس 11 نوفمبر

1921، ومن إحدى عرصات الضاحية المعروفة بزيانة قرب باب السعيدة من تطوان حيث كان يقطن الوجيه السيد علي السلاوي الذي كان مديراً عاماً للأحباس أخذ هذا الأخير بصحبة إحدى بنات باشا تطوان المرحوم الحاج أحمد الطريس التي كانت متزوجة بحفيد السلاوي هذا، كان السيد السلاوي مُستدعى لأحد الأعراس. وحيث إن ضعف حالته الصحية كان يمنعه من تلبية الدعوة، بعث نيابة عنه حفيده، فاقتحمت جماعة (اخريرو) العرصة محجة بظلام الليل. وبعد تهديد الخدم بالبنادق، أخذوا السلاوي من فراشه حيث كان مريضاً، وابنة الطريس، وحينما رجع الحفيد من حفلة العرس، أخبر بما وقع.

يمكن معرفة مقدار الشعور الذي خلفته جرأة هؤلاء الثوار بتطوان، وكذلك بعد الصيت الذي أدركه اخريرو بهذه الضربة، لقد دبر الريسوني نقل هؤلاء الأسرى إلى (الحصن). ومن هناك وقع افتدائهم في أواخر ماي وأوائل يونيو من سنة 1922؛ لأن صحافة ذلك العهد تخبرنا باحتفال هام سلمت خلاله إلى السيد السلاوي شهادة جامعية تتعلق بالتاريخ في مقر الكاتب العام السيد (Luciano Lopez Ferrer) وخلال حفلة التسليم هذه، أشير إلى الشدائد التي تعرض لها في الأسر.

وإلى هذا التاريخ وهذا العمل يرجع ظهور بوادر الخلاف بين الشريف الريسوني واخريرو، لأن هذا الأخير لم يكن مسروراً من الحصة التي أعطيت له من مبلغ الفدية، وأخذ يشعر بعدم الارتياح

بقربه من الشريف. لقد وجد نفسه مهاناً، وما كان ليمضي كبير
وقت ليظهر استيائه، وقد بقيت في نواحي الجبل ذكرى اختطاف
السلوي وابنة الطريس في هذه الأغنية:

ألاَّ يَلَّي
بالنوار الغرابي
أعشوشة طرسية
قولهم بلغوا السلام ليها
تدلي الزرابي

ألاَّ يَلَّي
بالا لا يَلَّي بالمولوعة
طاح الشتا طاح الما
طاح الشتا بالليقة
بلغوا السلام ليها
تدلي لي لرويقة

ألاَّ يَلَّي
بالا يَلَّي بالمولوعة
لا مشي ما مشي بالسارح
بلغوا السلام ليها
تدلي لي السارح

ألا لَّا يَلَّالِي
ألا لَّا يَلَّالِي بالمولوعة
يا عظيم التماره
مسين آبالسلاوى
عباوه على الحمارة

ألا لَّا يَلَّالِي
ألا لَّا يَلَّالِي بالمولوعة
يا عقاد الدعية
أعشوشة طرسية
كتفلي نُجَبِّله

الاتفاق مع الريسوني (1922-1923) :

في شهر ماي من سنة 1922، استولى المقيم العام القائد الأعلى الجنرال (Berenguer) على (تزرورت) وأرغم الشريف الريسوني على الاعتصام بادغال (بوهاشم). وخلال ذلك فقد الشريف واحداً من أعظم مساعديه: احميدو المعروف أكثر باسم: احميدود السَّكَّان. لقد خضعت معظم القبائل. وقد ظهر في كل مرة، أن إمكانية استمالة القبائل من طرف الزعيم الثائر، أقل احتمالاً وأكثر بعداً. فكان الريسوني مضطراً - وقد أقبل فصل الشتاء - أن يتخذ قراراً بإزاء المخزن.

في هذا الظرف العصيب بالذات، جاءت لمساعدته التقلبات والانقسامات الطائفية والسياسية التي وقعت في إسبانيا. لقد حوكم الجنرال بيرنغوير (Berenguer) نتيجة سلوكه المؤدي إلى انهيار القيادة العامة بمليلية، وعوض بـ بورغوتي (Burguete). الحكومة الإسبانية تنتقل من الاتجاه الذي كان سائداً إلى اتجاه آخر معاكس، إذ تتخذ كقاعدة للعمل السياسي، الوصول بسرعة إلى اتفاق مع الشريف الريسوني، لأنها ترى أنها بتهدة الناحية الغربية، تقضي على الثورة هناك، ولا يبقى أمامها إلا ثورة ابن عبد الكريم في الناحية الشرقية، لقد كان هذا المسلك كما سئى عظيم الخطأ، وقد ظهرت أضراره بالنسبة لإسبانيا بكل وضوح.

وقعت اتصالات إذن بالريسوني، ومن أجل هذه الغاية أصدقاء قدماء، وآخرون جدد: الترجمان (Clemente Cerdeira) الذي كان محل ثقة الريسوني، الكولونيل (Castro Girona) الذي أكسبته شهرة سياسية رئاسته لفرقة (محلة) تطوان، واحتلال مدينة شفشاون، ومولاي الصادق الريسوني ابن عم الشريف...

لقد كانت المباحثات طويلة وشاقة: «الشريف لا يريد أي شيء لنفسه»؛ ولكن عملياً يجب ألا يتحرك أي شيء في المنطقة إلا حسب رغبته ومشئته. وتكرر التدخلات بأزمات شؤم، وبأوقات انبساط وانفتاح. مولاي أحمد الريسوني يضمن لنا السلام في (جباله). الكثير من الناس يحترزون. الجيش ضد هذا التبدل الحاصل في الاتجاه الذي لا يبرره أي شيء، والذي هو ضار. القبائل الموالية لنا تقوم بردة فعل كانت منتظرة، لأنها ترى أنها بعد

أن قامت بحملة قوية للتغلب على اليربوسني، سنسلمها مقيدة بالأغلال، إلى ذلك الذي قاومته، والذي تعرف حق المعرفة أنه لن ينسى الوقائع مهما قل شأنها، ولن يتخلل عن الصغيرة والكبيرة في عملية تصفية الحساب.

كان الجو المحيط باليربوسني عامراً بالمؤامرات والضغوط والدسائس من أجل توزيع المناصب. وفي هذا الإطار يبرز (اخريرو). لقد بقي الانتصاف من الإهانة التي لحقها به اليربوسني في نظره عند توزيعه لقضية السلاوي، أمراً مؤجلاً، وهو يقدر الآن أن الفرصة مواتية لمرضاته. وذلك بمنحه قيادة بني حزمارة. ولكن، في مواجهته يرتفع مضاد قوي هو: الحريطي الذي لا ينسى اليربوسني خدماته نحوه، ولا عراقته في هذه القبيلة.

وفي تزروت حيث عاد الشريف، كانت جميع الأشياء التي لا تهمه مباشرة تسير ببطء. ومن جهة ثانية، فإنه كان يعلم حق العلم الأهمية التي كان يمثلها بالنسبة لعجبه اختيار من صبروا على أولئك الذين يريدون التعامل معه، أو على الأقل الذين لا يريدون سوى تقديم الطاعة له. وكم من واحد رجع إلى قبيلته بعد أن انتظر أياماً وأياماً، جالساً تحت ظل جدار مقام الشريف، دون أن يتوصل - وفي أحسن الأحوال - إلا إلى تقبيل (الركاب) عند مرور بغلته، وأن جميع الاحتياطي من المال الذي جمعه بجده واجتهاده من أجل أن تفتح له الأبواب، قد امتصته فجوات ذلك الحائط البشري الذي يكونه: قائد المشور، والكتاب، والمخازنية وعبيد وخدام الشريف. كم صحائف من أعماق السياسة المغربية يمكن

كتابتها حكاية عن هذه الجدران التي اتكأ إليها في خَدْرِ عدد لا يحصى من الجلابيب البنية الجبلية!

لقد أخذ الشريف يفقد صبره وتوازنه. المباحثات مع المسيحيين تسير ببطء، (Ceradeira) ومولاي الصادق ذاهبان راجعان من تطوان إلى تزرورت. والتليفون الذي ركب للرئيسوني في محل إقامته، والذي لا يستغل إلا نادراً - يكفي أن يستعمله المنهبي قائد مشورة والحاج امبارك خادمه! - يشتغل الآن بصفة متواصلة. الناس في تطوان على الأقل لا يؤمنون بعروض الرئيسوني الغامضة. إنه يضمن السلام في جباله، ولكن كيف يمكنه ذلك وقد أصبح عليلاً، وفقد زيادة على ذلك نشاطه أيام عزه حيث كان ينزل بكل قواه كالصاعقة وفجأة على أي موقع تظهر به بوادر ضعف أو خيانة.

لقد أصبح الرئيسوني اليوم غيره بالأمس، وفي مجال السياسة، تكاثرت أطماعه وشكوكه وضعفاته؛ ولكنه أضاع قوته بالمرّة، ومغرب سنة 1923، لم يعد يمثل حتى ظل المغرب الذي كان خلال عشر سنوات خلت.

الاعتداء على تطوان:

نعود إلى القول: أن الرئيسوني قد داخله الملل. يجب العمل على إقناع (رجال تطوان) على هؤلاء أن يتبينوا أنه لا يمكن أن يكون سلام في جباله إلا إذا أراداه الرئيسوني. وعليهم أن يفهموا أن

الاتفاق مع مولاي احمد الريسوني أمر ضروري لا غنى عنه»،
ومستعجل. ومن المؤكد أن احتمائه بمظهر الرجل الذي لا يريد
شيئاً لنفسه، جعله يطالب ويشترط أكثر، ولكن، ألا يستحق هذا
كله، ضمان السلام الفردوسي الذي يعرضه في نواحي جباله؟

كيف السبيل إلى إقناع مسيحي تطوان؟ كيف يمكن تكسير
إيقاعهم؟ يرى الريسوني بوضوح، أن ذلك ممكن بتهيج
الاعتداءات وتهيب الضربات القاصمة. يجب إنزال إحدى
العصابات إلى الميدان وتشجيعها على العمل. ولكن، كيف يمكنه
– وهو الذي يوجد على علاقة حسنة مع الإسبانيين (وفي نفس
الوقت لا يجب سماع الكلام على المخزن) كيف يمكنه القيام بذلك
دون أي توريظ؟ تأكيداً، أنه لا تعوزه – وهو المعروف بكبده ومكره
وحسه السياسي – وسيلة (الرمي بالحجر، ثم إخفاء اليد).
وسيعهد بذلك إلى شخص يثق به، فيقع اختياره على العربي
ابن حليلة. يخبر هذا الأخير بذلك الحارطي الذي يذهب إلى
الشريف لأخذ التعليمات النهائية. يتظاهر الشريف بأنه يجهل
الموضوع، ثم يعود ليحذر ابن حليلة بأن الأمر يجب أن ينفذ دون
أن يظهر وجه الشريف. حينئذ يكلف ابن حليلة اخبرو للقيام
بهذه المهمة. ورغم وجود هذا الأخير بتزروت، فإنه لا يزال ينتظر
قيادة (بني حزمار)، وهكذا ينزل صحة جماعته إلى الميدان.

إن الحوادث – هي مروية على هذا الشكل – تجري داخل
تركيب منطقي، غير أنها لم تقع بهذه البساطة، ذلك أنه بات من
المؤكد أن اخبرو في ذلك العهد، كان قد أجرى اتصالاً مع

ابن عبد الكريم الخطابي . وأن التواريخ ليست مضبوطة ؛ ولكنه من تمام المنطق الافتراض بأن عبد الكريم ، كان يؤيد ذلك الذي اكتسب شهرة واسعة كرئيس عصابة ، أو بالأخص لاستيائه من الشريف . وأن هذا الاستياء ، هو الذي جعل اخبرو يقترب من الزعيم الريفي . وفي إحدى المخابرات لشهر نوفمبر سنة 1923 ، يشار إلى أن اخبرو في ذلك التاريخ «ذهب مرتين إلى اجدير» . يمكن تحديد تاريخ المرة الأولى في أوائل سنة 1923 ، والمرة الثانية مع كامل الاحتمال بعد الهجوم على تطوان (غشت) .

ورغم ذلك ، فكل هذا غير واضح ، لأنه إذا كان اخبرو مع الريسوني مهما كان سخطه ، وأن الشريف يقذف به إلى الميدان في شهر غشت سنة 1923 للضغط لصالحه ، كيف يمكن فهم سكوت الريسوني أو عدم معرفته باتصالات اخبرو مع ابن عبد الكريم ، وهو الذي لا تفوته دقائق الأخبار؟ وإذا كان على علم بها ، كيف يسمح بإجرائها؟ إن التفسير الوحيد الذي يمكن إعطاؤه لهذا الموقف ، هو لسان الحال الذي يقول : (دعه يعمل) الذي أصبح ميزة المرحلة الأخيرة من حياة الشريف ، وخطؤه الناتج عن الاحتقار الذي كان يحس به نحو الأفراد ، والثقة التي لا يزال يحتفظ بها في تخيلته عن سلطته التي لم يعد لها وجود ، واعتقاده بأنه لاخطورة للقبائل ، ولا لابن عبد الكريم ، الذي لم يحاول قط أن يجري معه أي اتصال .

وإذا كان وصف الحالة بهذا المبلغ من التعقيد غير كاف ، نشير أيضاً إلى مظهر آخر بقي دائماً يطفو فوق الأحداث : فقد

انقسم الإسبانيون في مسألة إمكانية الوصول إلى اتفاق مع الريسوني أو عدمه. وهذا الانقسام، أحدث شكوكاً وترددات في القيادة. ومع وجوب قبول حسن نية الفئتين من الناحية المنطقية، هل يجوز التفكير بأن المواليين لحسن السياسة مع الريسوني، الذين كانوا يؤمنون بها، ومنتظرون منها نتائج حسنة لصالح إسبانيا، قد نظروا بارتياح، إلى خروج اخريرو؟ إنه موضوع جد دقيق بالنسبة لمن تعوزه عناصر الفطنة، ومع ذلك تبقى دائماً علامة استفهام في التاريخ، تدغدغنا معها - نكرر القول - فكرة أن الذين استوحوا هذا الموقف كانوا على حسن نية.

ودخولاً في موضوع الاعتداء على تطوان في حد ذاته، نقول باختصار: إنه حوالي التاسعة والنصف من ليلة الأربعاء 22 غشت 1923، وعندما كان النشاط على أشده في شارع الفونس XIII (شارع الجنرال فرانكو الآن) (محمد الخامس فيما بعد) وساحة إسبانيا (الفدان أو ساحة الحسن الثاني) وفي شارع محمد الطريس أيضاً، الموازي لشارع ألفونس XIII، سمعت عيارات نارية موجهة نحو الشارعين آتية من الظلمة التي كانت تخيمة على ما يسمى اليوم ساحة مولاي المهدي أو ساحة الكنيسة، كان مصلى العبيدين هناك، وفي تلك الأثناء، كانت الأعمال قد ابتدأت لإقامة الكنيسة الحالية، كانت البلبلة عظيمة، يضاعف منها صرخات الجرحى. ومن جميع نواحي المدينة، تمكنت العصابة من التسلل، كما دخلت ساخرة من مراكز الخفر القائمة بمعسكر الجنرال (Marina). (مارينا) حضرت وبكل سرعة، قوات من (المحلة) لتقوية هذه الأماكن.

ولفهم الموقف أكثر يجب التذكير بأنه ابتداء من شارع سيدي المنظري حالياً إلى ساحة الكنيسة اليوم، ثم لغاية معسكر الجنرال (مارينا) كانت البنايات قليلة ومنعزلة ولم يكن هذا الجزء المنبسط من المتسع القائم اليوم، قد وجد بعد.

كان المقيم العام (سيلفيل) (Silvela) موجوداً آنئذٍ بمدينة مليلية. وقد كلف بشؤون الإقامة العامة السكرتير العام (Don Diego Saavedra Y Magdalena)، وقد بعث المقيم العام برقية إلى وزير الحربية مشيراً إلى الحواث هكذا:

«أبلغني السكرتير العام، وكولونيل القيادة العليا النائب الثاني لمكتبي الحربي، أنه على الساعة التاسعة والنصف من ليلة أمس، سمعت في تطوان طلقات متواصلة متجهة نحو جزء من متسع المدينة، محدثة بطبيعة الحال ذعراً. وفي الحين خرجت قوات من (المحلة)، وانتهى الحادث بعد عشر دقائق ولكن بعد وقوع خسائر في الأرواح لم تحدد لغاية هذه اللحظة، وقد طلبت إيضاحاً لها. والسبب يعزى إلى الرغبة في إحداث وقع في النفوس، وبالأخص في اليوم الفارط نفسه. (يشير ومن غير أن يكون لذلك معنى إلى عمليات (Tifarauin) التي كانت قائمة في جهة مليلية، والتي كانت الباعث على سفر المقيم العام. وقد أنهى الحصار في نفس ذلك اليوم 22 غشت 1923 «المؤلف») وأما الطلقات المتعددة، وكذا الخسائر البشرية، فإن كثرتها تعزى طبيعياً إلى الجلبة التي جعلت الكل يطلق النار في الظلام من غير أن يعرف لماذا ولا إلى من. لا أعطي أهمية للموضوع: لأنه ليس سوى ذعر مفتعل. إلا أنني

بالرغم من ذلك، أمرت بتتبع المسؤولين، وافتح تحقيق، وتعزيز مصلحة الحراسة الليلية».

إن البرقية التي اعتبرت الحادثة مجرد «ذعر مفتعل» والتلميح الخيالي إلى تتبع المسؤولين، كل ذلك ليس إلا مقطوعة شعرية، ونحن نؤكد على هذا الآن. وإن الصحافة (صدى تطوان) (Eco de Tetuan) شاركت هي بدورها في هذا التوجيه المزور لإخفاء الحقيقة، على الرغم من أنها كانت تدعي خدمتها، كتبت تقول: «خدمة للحقيقة، يجب علينا أن نؤكد تحت كل الضمانات، أن الثوار لم يدخلوا إلى المدينة. والذي حدث أن حلفاء (اخريرو) كانوا فعلاً في المدينة، وأنهم جرحوا بعضاً ممن كانوا يتمشون بالقرب من الأماكن التي اختبأوا فيها.

«لم يدخل الثوار إذن إلى المدينة لأن مصلحة الخفر ساندتهم كما يعتقد الكثيرون ويعلقون». لقد انتشر الفرع في تطوان، وأخذت القطارات تخرج «جد ممتلئة بالأسر، متوجهة إلى سبتة كإجراء احتياطي إزاء الأحداث الماضية» (Eco de Tetuan 24 غشت). وكان إقبار الضحايا عبارة عن مظاهرة عاطفية من الحداد شاركت فيها كل المدينة.

وقد عقدت الغرفة التجارية في يوم 23 اجتماعاً للاتفاق على توجيه احتجاج شديد اللهجة إلى الحكومة، وقد أقفلت التجارة أبوابها، وبعد تدخلات عدة، وأحياناً عنيفة، توصل إلى النتائج الآتية: «إن القوى الحية في مدينة تطوان في اجتماعها بالغرفة التجارية، وبحضور جميع الهيئات ذات الصبغة الشعبية، وبالاتفاق

العام حول الاعتراف بالخطورة التي اكتسبتها الأحداث الجارية ليلة البارحة، اتفقوا على أن يوجهوا إلى مجادة المقيم العام المنتدب، راجين منه أن ينقل إلى حكومة صاحب الجلالة (دون الفونسو الثالث عشر) أقوى وأشد احتجاجهم إزاء الحدث الذي لم يسبق له مثيل، الذي شاهده عاصمة الحماية بعد عشر سنوات من الاحتلال، مثلاً في أن تصبح جماعة من الأشرار صاحبة الموقف زهاء مدة معينة، محدثة ليس فقط الدعر الطبيعي الذي له ما يبرره، بل ضحايا واعتداءات على المتاجر الواقعة في أكثر أحياء المدينة اكتظاظاً.

«إن تطوان بواسطة قواها الحية، والعناصر الممثلة لجميع الطبقات الاجتماعية دون أي تمييز تعتبر المسؤول عن كل ما وقع، سياسة التردد والحيرة، والنقص في حسن التوجيه، وضعف الطاقة التي أخذت تظهرها الحكومات الإسبانية، لجهلها الحقيقي بالمشاكل المغربية، الأمر الذي يشجع العدو على التغلغل حتى عاصمة المحمية ويتسبب في قتل المدنيين العزل والنساء، دون خوف ولا وجل.

«إن عناصر مختلف الأجناس التي تؤلف الطبقات التجارية لهذه المدينة التي يعيشون في كنف قوانينها، يعتبرون أنفسهم في خطر إذا لم تتخذ الحكومة الإسبانية الإجراءات الضرورية لحماية أموالهم وعقاراتهم المهددة بأعمال كالتى وقعت، والتي يمكن أن تتكرر بمقدار أكبر، إذا ما تأخرت إجراءات الردع القوية. وأمام هذا المنظر فهم يميلون إلى مطالبة الحكومة بأن تمهد لجميع القاطنين سبيل العودة الجماعية إلى الوطن.

«وحيث أن الجيرة قد أدركوا بالأمس تمام الإدراك، أن القوات التي تؤلف الحامية غير كافية للقيام بجميع الخدمات، ويلاحظون أنه حيث لم يشرع في الزيادة التي تكفل الأمن والهدوء، يجب على الحكومة أن تأمر باتخاذ الإجراءات الضرورية لتأليف (الحرس المحلي) (Somaten) لمدينة تطوان، مسلحاً بما فيه الكفاية، وفقاً لما سبق أن عبرت عنه العناصر الوطنية المقيمة بعاصمة المحمية.

«وقد اتفق المجلس بالإجماع على أن ينتقل وقد يكون له شرف تمثيل جميع العناصر المتساكنة هنا، إلى (مدريد) ليضع أمام الحكومة والرأي العام الوطني مبلغ الحالة النفسية، وما تراه مدينة تطوان مناسباً حسب تجربتها لمصلحة البلاد - تطوان 23 غشت 1923».

إن تقارير مصالح المراقبة لتلك الأيام، وعلى الأقل التي استطعنا مراجعتها، لا تزودنا بإفادة مضبوطة عن تدخل العصابة. وفي أحد التقارير بتاريخ 25، توجد بعض التفاصيل المنفردة التي نشتها:

«أصبح ثابتاً أن المسؤولين عن العيارات المصوبة إلى تطوان، هم (اخريرو) وشقيقه، وعلي السلميقي (Salmiti)؛ وعلى الفروج (من الواديين) و (Dudo d'ha)⁽¹⁾. وهناك من يؤكد أنه رافقهم ولد الحاج الصوفي، وخمسة آخرون من بني عروس، وصديقان للسي العربي ابن حليلة من بني يدر فقط. وقد شوهدوا حوالي الثانية عشرة من صبيحة يوم الأربعاء، خارجين من بيت (الفروج)

(1) لعله: ولد هية، المترجم.

بالواديين، مارين تحت مدشر (دار الزكيك) بسلاحهم مضوء تحت جلابيهم، والأمر الذي جعل الشك يتسرب إلى الناس و (مقدم) الواديين ابن عزوز يعلم القائد الركاب في تطوان، بأن (اخريرو) ينوي القيام بشيء ضد المخزن. وصباح هذا اليوم، بعث باثنين من أهل الواديين لم يعرف إسماهما، إلى تطوان. ولم يعرف سبب ذلك. وقد رجعا مبكرين، وعندما أظلم الليل، حضرا إلى (كوشة ازفان) [أفران الجير الموجود خارج الأسوار، قرب طريق محطة القطار].

«ولا نعدم من يؤكد بأن التسلل، قد وقع من نفس هذه الجهة، على يسار المركز الموجود عند مدخل الطريق المؤدية إلى المعسكر، مطلقين عياراتهم، وهارين على الأثر إلى الجبل، حيث باتوا ليلتهم، من غير معرفة أكيدة أين كان هذا المبيت».

إن موضوع هذا الاعتداء على تطوان من وجهة نظر التعاليم السياسية، من الأهمية بحيث كان وحده كفيلاً بتقديم درس عامر بالعبرة، وحيث أن مداه البعيد إلى اليوم، يحول دون ذلك، فسنحاول مع ذلك تقديم بعض الملاحظات السريعة حول هاتين النقطتين: لمن أراد (اخريرو) أن يخدم بهذا العمل؟ وما هي الظروف السياسية التي جعلته ممكناً؟

مقابلة سيدي موسى (أكتوبر 1923) :

بتاريخ 12 أكتوبر، تقابل في (سيدي موسى) (قرب تزروت) قبيلة بني عروس، كل من المقيم العام (Aizpuru)، والشريف

مولاي أحمد الريسوني بعد سلسلة طويلة من المباحثات المملة، التي ازدادت معها شروط الشريف (كن أنت الحمل، وسأكون أسداً...). كانت نتيجتها عقيمة. وجاءت ثورة (واد لاو) وجميع نواحي جباله خلال سنة 1924 لتظهر عقمها بجلاء. إلا أنها على العكس كانت تعني ميلاً خالصاً نحو الذين يؤيدون النظرية التي ترى أن الصداقة مع الشريف، تؤدي إلى هدوء متصل بجباله، وتترك نتيجة لذلك حرية العمل للالتفات إلى العضلة الخطيرة للحركة بالريف.

هناك وثيقتان من هذا العهد، هما تقريران ليومي 24 و 25 أكتوبر سنة 1923 للمفتشية العامة للمراقبات والجيش الخلفية (كان المفتش إذ ذاك الجنرال Castro Girona)، وهما يعرضان تلقائياً كل ما يمكن عرضه لمعرفة الوضع في تلك الأوقات، في التقرير الأول، نقرأ:

«إن حالة القلق التي لوحظت خلال هذه الأيام بعد مقابلة مجادة المقيم العام مع الشريف الريسوني، تخضع من غير شك لأوامر الريسوني، الذي يريد الإبقاء على حالة كبيرة من الاضطراب في جميع القبائل، ليفهمنا قلة فعالية القيادة التي تمارسها السلطات الأهلية، والأداة التي يستعملها لهذا الغرض هي (اخريرو)⁽¹⁾ الذي انضم إليه زيادة على رجال عصابته بعض «من كان يتزعمهم

(1) في يوم 23 أكتوبر، اعتدى (اخريرو) وعصابته فيما بين الربوة والمنحش على فطار يحمل عمالاً وفي عربتين منه يحمل بعض القوات. وقد كان الثوار كامنين لهم في خنادق ومقاصب، وقد أحدث الاعتداء سبعة من الموق، واثنى عشر جرحاً.

الثوار: ابن حليمة والفحيلو والخرطيطي وغيرهم. إن هؤلاء الأهالي الذين يكونون نواة تضم أكثر من مائتي رجل، انقسموا إلى عدة جماعات، تنشر الرعب بارتكاب أعمال سيئة موجهة بكل حماس نحو الطريق الذاهبة إلى شفشاون لأهميتها وللانعكاسات التي يمكن أن تحدثها بين صفوفنا.

«وقد أصبح من المؤكد أن المدعو (اخريرو) يتصرف في أموال، ويملك أسلحة، ورغم ما يقال من أنه يستسلم ذلك كله من الريف، فإنه لا يمكن الوثوق من هذا، ويمكن الظن بأن جميع ما يستلمه آت من هذه المنطقة.

«وفي هذه المناسبة، لم يقبل الريسوني أن يتدخل الرؤساء التابعون له، ولم يسمح بالتدخل إلا لأخريرو وحده ليفهمنا دائماً أنه متمرد عليه. ولكن هذا جد هام ويشير الانتباه بصفة غير عادية، لأن الكل يعلم أن أصحاب اخريرو كانوا حاضرين في مقابلة (سيدي موسى) أثناء المفاوضة، بينما كان اخريرو في (الحصن) ينتظر، وأنه بعد أيام من المقابلة، وفي ليلة الأربعاء 17، حضر بنفسه إلى (تزرورت) وتحادث لمدة ساعتين مع الشريف، ثم توجه في نفس الليلة إلى (الحصن) حيث أخذ معه بعضاً من الرجال والمتاع وخرج توأ من هذه المنطقة. وفي الليلة التالية: الخميس 18، أحرق معابر (تَرَايْكُتْ) وقطع الأسلاك التليفونية، وأخذ مؤونة مدشر (أَمْطِيلْ).

«وعندما كان اخريرو بمدشر (الحصن)، خطب المنبهي بواسطة للشريف سيدي المكي هاتفياً ليقول هذا للشريف أن يغتنم فرصة إقامة اخريرو بـ (الحصن) للقبض عليه، فأجابنا بأنه كان يعمل لتنفيذ ذلك بالسياسة، وأنه لا يريد القبض عليه في ذلك

المدشر لقداسته، وقد عرض عليه أن نذهب نحن بقواتنا لتنفيذ ذلك، فأجاب بأنه سيدبر الأمر بنفسه، والحالة أنه تركهم يذهبون. وبعد ليلة من مقابلة الشريف أحرقوا معابر (ترانكت) وقطعوا الخط التليفوني. وبعد يومين، ارتكبوا نفس العمل بالمعابر والخطوط الهاتفية الواقعة وراء (سوق أربعاء بني حسان).

«وبعد إحاطة الريسوني علماً بهذه الأعمال بواسطة المنهبي أجاب قائلاً: إن مسؤولية ذلك تقع على عاتق القواد الذين يعملون بجانبنا. وكان من الواجب استبدالهم بعد أن أصبحوا غير صالحين وإن لهذه الإجابة مغزى.

«لقد جرت خلال هذه الأيام أحداث تبرر هذه الحالة من القلق، والتي تعزى إلى تعليمات الريسوني».

* * *

«ومن غير شك، فإن تنظيم الشريف لهذه الأمور، لا يزداد مع مرور الأيام إلا وضوحاً. والدليل على ذلك نزول الثوار التابعين لعصابات الرؤساء المنضوين تحت لوائه إلى الميدان، ومبيت اخريرو بيت القائد حفظ عند توجهه إلى (الحصن)، هذا القائد الذي هو من أتباع الشريف جسماً وروحاً كما هو معروف. ولقد توصل القائد ابن سعيد برسالة من اخريرو يهينه فيها ويهدده بسبب تأييده لنا. وفيما يقول بأنه سيقرب الوقت الذي سيلتقي وإياه وجهاً لوجه، وأنه بعد ذهاب المسيحيين من البلاد، إذ ذاك سيصبح في قبضته وإذ ذاك سيثار منه لسلوكه الحالي.

«ومع جميع الاحتياطات المتخذة فإنه من الصعب تفادي وقوع أي حادث مفاجئ، لأنه نظراً لوجود الكثرة من الثوار في جميع القبائل، ونظراً لتجمعهم في عصابات صغيرة كما يفعلون، فإنهم يستطيعون الهرب من كل مكان. وفوق ذلك، فهم يتركزون على طول خط: تطوان - شفشاون الذي يعرفون أنه أكثر الخطوط التي يمكنهم منه أن يلحقوا بنا ضرراً، ويتسللوا بكل سهولة، حيث يتأخون قبيلة (بني عروس) التي بوجودهم فيها يكونون بمنجى من كل خطر، ولغاية (بني بدر) الوعة والغير مأهولة، بدون حماية، وفي كنف أناس قساء، يصبحون باللجوء إليها في نقطة أقل استحالة للقبض عليهم.

«وزيادة على ذلك يجب ألا نغفل عامل معنويات الموالين لنا، الذين مهما تصرفوا لحد الآن بكل انقياد ويعملون أكثر، فإنهم لا بد سيملون، الأمر الذي يستوجب منا ألا نطالبهم بأكثر، حتى لا نعدهم مسبقاً للاستجابة لأي ضربة جادة تها لنا. ولإجتثاث الشر من الجذور، ينبغي التوجه إلى مصدره: الإقلاع عن سياسة الغموض والحل الوسط، إقرار اتباع مخطط معين دفعة واحدة، أو إعطاء الشريف كل ما يبدو أنه يطالب به، أو تهيم ضربة مع كامل الاحتياط، بحيث يقبض في يوم معين على سائر الزعماء الذين خرج أصحابهم ثائرين. وإذا لم يقطع الشر في حالة الصحة، فسيكون من الصعب إنهاء هذه الحالة التي إن طال أمدها فستصبح خطيرة جداً، لأنه نظراً لظهور ضعفنا الواضح، فسنفقد باستمرار أنصارنا، وسنصل في أقرب وقت إلى وضعية عصية جداً. وفيما

يُخص قبيلتي (بني حزمارة) و(بني حسان)، فإنه لا زال في إمكاننا عمل ما نريد عمله بكل قوة وفي أي اتجاه: لأن أهالي هاتين القبيلتين يستجيبون على العموم لأي خطة جماعية تتخذ في هذه المنطقة.

«وفي نظرنا، أن لعب الريسوني يظهر بجلاء في كل هذا. وهو يرمي من ورائه أن يظهرنا بكل بساطة، بمظهر العاجزين عن إبقاء المنطقة هادئة، وأنه ضروري، ليلبغ بهذه الطريقة، ما لم يستطع بلوغه لحد الآن.

«يمكن الوثوق من أن هروب اخريرو عند هجومه على تطوان، كان بأمر من الشريف. فقد كلف ابن حليلة أن يبحث عن شخص يلقي به إلى الميدان. فما كان من ابن حليلة إلا أن أخبر بذلك الحارطي الذي ذهب لاستشارة الريسوني. عندئذ اختير اخريرو الذي قبل الأمر في الحين.

«إن الوضع من غير شك، جد دقيق، حيث أن تيه الأهالي يزداد يوماً بعد يوم. وهم باطلاعهم على ما يجري، لا يفسرون صداقتنا مع الشريف إلا بضعفنا. وهذا ما يحيط من قوة معنوياتنا؛ لأنه زيادة على الضيق الذي يحس به الجميع، فإن الاعتقاد بأن الشريف يستطيع العمل أكثر منا، قد أخذ ينتشر، وعليه فإنه لا أحد يتجرأ على مجابهته.

«إن جميع الأعمال التي تحاول كسب ثقة «الانديجان» تصطدم بواقع الأحداث. وباستطالة هذه الحالة فسنجد أنفسنا — وهذا لن

يتأخر كثيراً بفضل مثيري الفتن - أننا نفقد كل يوم مساعدة
«الانديجان» الموالي، التي هي أمر ضروري».

.....

أما تقرير يوم 25، فإنه يقول:

«إن الحالة في هذه المنطقة تزداد كل يوم سوءاً. وإن التردد
الذي ميز عملنا في هذه الحقبة المتأخرة، قد بلغ حد القلق العام
بالنسبة للموالين لنا حقيقة، أو لغيرهم من الذين هم موالون لنا
بدافع الحاجة على السواء. وفي الوقت الراهن، بعد مرور أكثر من
سنة من الانتظار، فإن الأمل الذي كان يحلم به الكل في أن تحل
المشاكل حسب رغبته، انقلب إلى هلع حقيقي، نظراً لعدم
الوصول إلى البت النهائي، لا من طرف هؤلاء ولا أولئك. إن إدارة
القبائل من طرف قواد (إلا في حالات نادرة) ضعاف، وفاقدين
للاعتبار إذا لم يكونوا خونة مختفين، وللصراع السياسي القائم بينهم
من وراء ظهورنا؛ إن ذلك كله أحدث بلبلة جعلت كل واحد
لا يرى اليوم غير ضعفنا. وقد نتج عن ذلك هروب آخريرو للمرة
الأولى عند هجومه على تطوان، وعلى (بوخلاد) للمرة الثانية.
والثورة التي ربما لم تكن في مبدأ الأمر بوحى من الشريف وإن كانت
جميع القرائن تدل على أنها كذلك، إلا أنها من غير شك، كانت
بموافقة الرؤساء المشهورين: ابن حمان، وابن حليمة، وولد
احمدو، والطويلب. بعد هذا ذهب الثائر إلى (غمارة)، ومن هناك
إلى الريف، حيث توجه بنفسه حسب رأي جماعة، وحسب ما يراه
آخرون، بعث باثنين من خالصائه، والمؤكد أن ابن عبد الكريم

استقبلهم بحفاوة، وأعطاهم مالا ونصائح ورسائل إلى الريسوني، تلك الرسائل التي سلمت إليه عندما كان اخريرو في (تزروت) أثناء المقابلة التي جرت بين الشريف والمقيم العام، لقد أجب على هذه الرسائل، وإذا كانت هذه الإجابات غير معروفة، فإنه من السهل الاستدلال عليها. ذلك أنه بعد أيام قلائل، نزل الثائر إلى الميدان، وفي هذه المرة بعصابة وافرة العدد بلغت حد التعبئة الحقيقية، يعطي المال والعتاد إلى جميع من التحق به. ويانكبا به الآن على أعمال التخريب مع اجتنابه الاصطدام بالأهالي بواسطة رجاله المقسمين إلى جماعات صغيرة ترتاد جميع القبائل، حيث نجدهم في (بني حزمار) و(بني حسان) و(بني بدر) و(وادرأس) و(الحوز)، زيادة على (بني عروس) و(بني ليت) حيث فقط ارتكازهم؛ بانكبا به على هذا العمل، فإنه يعمل على رفع معنويات الأهالي. وهذا عمل جدير بالاعتبار، ويمكن أن يصبح في أقرب الآجال شيئا مريعا، وبمجرد نزول فرقة من فرقة على أية قرية، في أية قبيلة كانت، فإنه لا يعترض سبيلها، وتزود بالمؤونة، ويخفى أفرادها إما بدافع التعاطف، أو - وهؤلاء هم الكثرة - بدافع الخوف. وهذه الكيفية يستحيل تتبعهم. وفي كل مرة وقعت هذه المحاولة، كانوا يجدون من يخبرهم حتى يتمكنوا من الهرب. ومن جهة أخرى، فزيادة على المساعدات التي يتلقونها من غير شك من (بني عروس) و(غمارة) و(الريف)، فإن أكثر من قائد ميدان، يساعدهم. ومن بينهم يمكن ذكر كل من قائد بني حزمار، وحفوظ وقائد بني حسان، وربما حتى القائد اليزيد. وأخيراً، فإن في تطوان نفسها، يوجد لأخريرو شركاء وأنصار، ذوو خطر ونفوذ حسبا تدل عليه بعض الأخبار.

إن الصدر الأعظم، كانت له فلاحه في هذه السنة مناصفة معه بالواديين.

«وباختصار، فإن معنوياتنا إزاء الأهالي جد منحطة، ومعنويات الثوار في تصاعد مرعب. وأنه إذا لم يقطع الشر من جذوره بسرعة، فإنه يمكن التأكد دون الخوف من اتهامنا بأننا مثيرو الرعب، بأننا نسير في اتجاه فاجعة حقيقية في خلال مدة قصيرة.

«إن الأخبار الأخيرة التي تصل بطرق متعددة معتمدة، والتي حظيت بثقة من قبل جعلتها مبنية على أساس، هي أنه داخل أيام قلائل، ربما داخل ستة أو ثمانية أيام، ستحشد العصاية لتستقر بالقوة في نقطة على خط شفشاون - تطوان، التي يمكن أن تكون بكامل التأكيد: (أَمْطِيلُ)، وذلك لقطع الاتصال وإعطاء دفعة قوية لخط وادٍ لآو- شفشاون. وستثار اضطرابات واعتداءات داخل المنطقة. وإذا نفذ هذا الأمر ووجدنا على الحالة التي توجد عليها اليوم، فإن المآزق سيكون جد خطير. ويشترط لئلا في حدوثه اتخاذ قرار سريع، محسوب بدقة، عام، وموجه ليس ضد القرى كجماعات، ولكن ضد أشخاص يمكنهم بطبيعة الحال، نظراً لمناصبهم، شهرتهم، أو تأثيرهم، أن يجعلوا العامة يتخذون أي موقف معين».

.

«إنه لا بدأخلنا شك في أن مفتاح هذا كله، والمسؤول عنه، هو الشريف الريسوني، الذي ليس في الإمكان متابعته على هذه الوضعية لأكثر من الآن، والذي يلزم تنبيهه بكل سرعة، إلى

مسلكه، من أجل الوصول إلى حل واضح ونهائي، يكون النهاية للحالة الخطيرة التي تجتازها.

«الحقيقة، أن مظهر القضية في هذه الظروف، يبرهن عن خطورة عظمى، خصوصاً، بعد موت صاحب السمو الخليفة، إلا أن هذه الخطورة نفسها، هي التي تستوجب علينا - دون إضاعة للوقت - التصدي للقضية مع فرنسا، التي لا تنقطع عن التأييد ما وسعها الأمر لثوارنا.

«وحتى يمكن للسلطات العليا أن تتعرف على سريرة الريسوني بمناسبة وفاة الخليفة، يكفي أن تعلم أنه قد أعطيت الأوامر بالأمس لجميع القواد ليحضروا الجنازة، وعند إعطاء الأمر إلى قائد (بني مصور) من أجل أن يحضر، قالت مراقبة (دار الشاوي) إنه لا نفع من وراء إعطاء هذا الأمر؛ لأنه قد ضببطت مكاملة مع (تزروت) مع القائد المذكور تقول له إذا نودي عليه من تطوان لأي أمر كان، فليعتذر بأنه لا يستطيع الذهاب. ومع معرفة هذا، فقد وقع الإصرار من طرف هذه التفتيشية على إعطائه الأمر الذي أجاب عنه العياشي الزلال بأنه يأسف شديد الأسف، إذ لا يستطيع الخروج من بيته لأنه كان مريضاً.

«ومن غير الضروري القول بأن حفيد الشريف، مولاي علي، قد أعطي نفس الأمر، حيث إنه أجاب أيضاً بالرفض من أجل العرض.

«هاتان البادرتان، يجب أن تكونا في الحسبان، وفي نظرنا أنه

في اختيار الخليفة، والنظام الجديد الذي سيعطي للمخزن، يكمن الحل لعملنا المقبل في المغرب».

من هذين التقريرين يستنتج بوضوح، أن الوضعية كانت خطيرة، وأن خطورتها كانت تزداد يوماً عن يوم مع ازدياد حيرتنا، كان من اللازم إنهاء تلك الحالة. ولكن كيف؟ بالاتفاق مع الريسوني أو ضده؟ من وسط القبائل، كانت وجهة نظر المراقبين تتجه ضد الريسوني. أما القيادة فكانت تميل إلى سياسة الصداقة مع الشريف، وهذا سبب آخر جعل الحالة التي كانت خطيرة، تزداد خطورة. واختلاف وجهات النظر هذا، ترك الحكم غير معزز بكامل الشدة الضرورية. لقد نسي هؤلاء أن مسؤولية اتخاذ القرار ملقاة على عاتق القيادة، أما المنفذ فهو لا يُعلم القيادة بكامل الإخلاص، مقدماً لها عناصر اتخاذ الحكم المناسب. ومتى اتخذت القيادة الحل، فإن الطاعة يجب أن تكون عامة.

محدثات مع اخيرو (نوفمبر - ديسمبر 1923):

وصلنا إلى مفترق الطرق في حياة اخيرو، فبتعيين (الحريطي) قائداً على (بني حزم) بصفة نهائية، وقف اخيرو في كامل المواجهة ضد الشريف. وهو على اتصال بابن عبد الكريم الذي يرى بوضوح الخدمات التي يمكن أن يقدمها إليه، وهو على استعداد لأن يقدم له كامل المساعدات المطلوبة. ومع ذلك فإن اخيرو يتردد، ويدخل في مفاوضات مع مراقبة (بني حسان). وخلال الشهرين اللذين دامت هذه العلاقات، فإن سيرته تتحسن في حدود ما هو ممكن (نظراً للعناصر من الثوار الذين يكونون

عصابتها)، ويخلد إلى الهدوء، ويبين عن حسن نية. ولو أنه إذ ذاك أعطي قيادة (بني حزمار) مع قبيلة أخرى زائدة، واتخذنا منه مضاداً لثقل الشريف، لكننا قد تفادينا الكثير من الآلام! إلا أنه في حدود الإخلاص للصدقة مع الشريف، فإن هذا كان خطأ فادحاً. كيف يشك في قدرته؟ وكيف يمكن معاكسة قراره بخصوص قيادة (بني حزمار)؟ أن الشريف كان في استطاعته ترك الأمور تدور قائلاً لنا مرة أخرى أن نستغني عنه، وأن نتركه بسلام.

وكنتيجة لذلك، فإننا نسلك أقبح المسالك: أن تكون الغاية من المباحثات مع اخريرو من أجل إلهائه، في الوقت الذي يتم فيه إنجاز الاتفاق مع الريسوني. وبعد أن ييأس اخريرو، ويقتنع بأنه لن يصل إلى شيء، يرتقي في أحضان ابن عبد الكريم. وبعد أشهر قلائل، سينهزم خط (لاو) على أثر ضربات قوية، وتهتز قبائل جباله كلها.

وبخصوص المباحثات مع اخريرو، يوجد الكثير من الوثائق. وقد شارك فيها بصفة رئيسية: أحمد المدني والرايس دودوح الذي سبق له أن عمل برتبة «سرجان» في «ميليشية» سبته التطوعية، وأصبح فيما بعد ترجماناً مساعداً في (محلة) تطوان. وكان الجنرال «كاسترو خيرونا» يقدره ويستعمله في الخدمات السياسية. كما توجد في الوثائق المتعلقة بهذا الأمر علاقات مع الكومندان (Portillo) و (Lanhenhein) (بُوشْرطَة)، ومع مراقب (بني حسان)، ومع علي أكريكش الجاسوس الذي سيعدم في سنة 1925 بـ «تَامَسِينْت» من طرف عبد الكريم.

ونذكر من بين هذه الوثائق واحدة فقط هي: تقرير القبطان، مراقب (بني حسان): (Ceano Vivas) الذي يروي قصة تلك المباحثات:

«إذا استؤنفت المحادثات مع اخريرو بعد عدة أيام لمحاولة إطالة القضية في انتظار اتخاذ قرار، أو أن تغير الوقائع ذات الصبغة السياسية العامة الحالة في القبيلة في اتجاه أكثر تحديداً. وعندما كانت العصابات في حركة دائبة من أجل استئناف المفاوضات مرة أخرى، صعد (دودوج) إلى (Taranest) لمخاطبة الثائر، ومعرفة الشروط التي تمكن من الوصول إلى اتفاق. إن المحادثات الهامة، تؤكد كل ما قيل من قبل حول الموضوع. وإن الأساس للثورة هو الكراهية الموجودة بين اخريرو، والحرطيبي، والعداء الحالي الذي يكنه اخريرو للريسوني. إنه يقول بأن هذا الأخير (الريسوني) رمى به إلى الميدان بوعود. وقد خدعه الآن. وبعد أن نفذ هو مهمته التي كان من نتائجها، أن منح المخزن امتيازات جديدة إلى الشريف، فإن هذا الأخير يعطي قيادة القبيلة لعدوه.

«وتحت هذه الشروط، فإن عناد الثائر آتٍ من قيادة الحرطيبي التي لا يهضمها كلية. إن اخريرو على اتصال بعدد الكريم الذي يستقبله دائماً، وهو مكلف عنده بضم رجال يمكن أن يبلغ عددهم إلى الأربعمئة، لتصبح مهددين في هذه المنطقة، حتى لا نستطيع إنقاذ ولّو جندي واحد من هنا.

«إن معه في الوقت الراهن ما يقرب من مائتي رجل. وزيادة على ذلك، فإن له عصابة في (غمارة) وعصابات أخرى في

(الحصن) و(بني بدر) و(وادرأس) و(بني ليت) و(الحوز). وينتظر أن يتضاعف هذا العدد عندما يقتنع الجميع بضعف سلطة الشريف. وهذا جعله يشعر بالقوة، ويرى أمامه مستقبلاً زاهراً، لا يستبدله مهما يكن من أمر، بالإذعان للحرطيبي، الذي لن يتركه يعيش في هدوء؛ لأنه لعل يقين من أن عدوه لو كانت له القدرة على قتله، لما تردد.

«هذه المعنويات تزداد مع اقتناعه بأنه إذا ما استمرت الأحوال على ما هي عليه، فإنه لا الحرطيبي ولا الريسوني يستطيعان مجابهته لأنها لا يقدران على ذلك، إن المتبرمين من السياسة الريسونية — يقول — كثيرون بهذه المنطقة، وهم جميعاً أنصار له. ولتقوية هذا الرأي، يقدم برهاناً عليه: أن الحرطيبي لم يصل بعد إلى (بني حزمار)؛ لأنه لا يستطيع ذلك، ولن يأتي مادام هو ثابتاً في وضعيته الراهنة.

«وإذا وعد بالآل يحكم الحرطيبي، فإنه يعد بأن يستجيب لنا من حدود (أمسة)، وتطوان، إلى (الشنيّة) و(بوهاشم) مع رجاله الذين علينا أن نؤدي لهم مرتبات، وننظم منهم (حركة) صديقة، في حين يقطع هو علاقاته مع ابن عبد الكريم، مضيقاً بذلك الثلاثة ريالاً اسبانية يومية، التي يمنحها له كمؤونة، الزعيم الريفى.

«إن الوضع جد عصيب، وإذا لم يتدارك، فإن الاعتداءات الأكثر عنفاً، سرعان ما تستأنف أشد من ذي قبل. يجب النظر إلى هذه الحقيقة بعين الاعتبار: إن لأخريرو اليوم أتباعاً كثيرين في هذه

المنطقة . ويمكن التأكيد على أن تمرده على الريسوني، أكسبه عطف قبيلة (بني حزمار) كلها تقريباً، وأناس غيرهم من القبائل الأخرى . وفوق هذا، فإن علم الأهالي بتعيين الحريطي في منصب القائد، وتأخره مع مرور الأيام عن استلام منصبه، يفقد هذا الأخير قوة ونفوذاً، وبالتالي، الأنصار الذين يتحولون عنه إلى الجانب المضاد .

«إن الأمر يستلزم إذن حلاً عاجلاً؛ لأن حيرة الأهالي، والأضرار التي تلحقها بهم هذه الوضعية ينتج عنها وجود تدمير طبيعي يزيد من خطورة الموقف، ويعقد الأمور بصفة ملحوظة . إن الأيام التي يمكن أن تلهي اخيرو أصبحت معدودة . وعند انتهاء الأجل، فإنه ليس من السهل إدراك المبلغ الذي يمكن أن تصله الأحداث» .

(اخيرو) مع ابن عبد الكريم :

كان القبطان (Ceano) على حق عندما قال : «إنه ليس من السهولة إدراك مدى الأحداث، إذا ما قطعت المحادثات مع اخيرو» .

فقد ذهب اخيرو إلى (غمارة)، وإلى الريف قاتلاً: إنه لن يتأخر في العودة لمحاربتنا . وفعلاً مثل بين يدي ابن عبد الكريم، وأحاطه علماً بالتدمير العظيم السائد في جباله ضد الريسوني الذي منحاه القيادة، وعرض عليه خدماته . ونتيجة لذلك رجع بعد مدة وجيزة من الريف في (حركة) ريفية كان أول نشاط قامت به : حصار (أمطير) .

وأثناء هذا الحصار، قام عملاء له بحشد الناس، وتهيبج الأنفس، وتهيء الميدان، لتقوم بؤر الثورة التي أخذت تتفجر في مختلف النقاط بمنعنا من إغاثة مراكز خط (لاو) عند حصارها. وكان من النتائج المباشرة لهذا العمل، الوضعية العسكرية الحرجة التي وصلنا إليها في صيف 1924، والتي اضطرت الجنرال (Primo de Rivera) إلى اتخاذ خطة التراجع عن الخطوط.

ب-(حركة) ريفية هامة، وبالجزاء الأكبر من جباله مسلحين، وبالبقية الباقية من السكان الذين يرون قواتنا في تراجع، وقد أصبح الريسوني أعزل من أي شهرة ونفوذ، أضحي أخيريو بمساندة الثائر الريفي، زعيم التمرد في جباله وغماره من غير منازل، إلى نهاية انسحابنا، وإقامتنا خط المؤخرة الذي سمي «خط بريمودي ريفيرا».

ونحن نذكر من أحداث هذه الحقبة التي استمرت إلى أواخر سنة 1924 وبداية 1925 حادثتين اثنتين: الأولى، وقد كان لها صدى بعيد، هي اختطاف راهبين فرانسيسكانيين، وثلاثة من الأطفال الاسبانيين من ضواحي تطوان. لقد أخذوا إلى أخيريو الذي بعث بهم إلى ابن عبد الكريم. وقد وقعت الحادثة في يوم 14 أبريل سنة 1924. توفي الراهبان في الأسر. أما الأطفال، فقد رجعوا إلى تطوان في شهر يونيو من سنة 1926 بعد العمليات التي جعلت الثائر الريفي يهرب إلى المغرب الفرنسي⁽¹⁾.

(1) هكذا، المترجم.

أما الحادثة الثانية، فهي مواجهتنا لعمليات قاسية عند انسحابنا من شفشاون. ويعتقد أن النفوذ الشخصي للجنرال «كاسترو خيرون» لدى الحارطي، هو الذي جعل اخريرو لا يضغط بإفراط على مسيرة فرقة (Mola) من (Taranes) إلى (أربعاء بني حسان).

أوج وحضيض (تازروت، يناير 1925) :

بعد انسحابنا من شفشاون وقيام سائر قبائل جبال، وانحباس الشريف في (تازروت) بلا حول ولا نفوذ، رأى اخريرو أن ساعة إرضاء حقه الشخصي الدفين للريسوني قد حلت. ومن أجل ذلك، رتب خطة الهجوم على (تازروت)، ونفذها آخذاً الشريف معه أسيراً إلى (بني ورياغل) حيث قدمه إلى ابن عبد الكريم. هذه هي لحظة الأوج في شهرة اخريرو ونجاحاته.

واعتقد أنه لا فائدة من إعادة تفاصيل الخطة وتنفيذها هنا، ولا في تكرار الوقائع المتعلقة باقتياد الريسوني إلى (اجدير) حيث ذكرت بكامل التدقيق في كتابي: (Del Marruecos Feudal) (من تاريخ المغرب الاقطاعي) من صفحة 185 إلى ما بعدها، إلا أنني أقصر هنا على إضافة إحدى الجزئيات التي لم تذكر هناك، والتي لها أهمية.

فاخريرو جبلي وليس من أهل الريف، لقد انتقم من الشريف، ولكن هذا لا يمنعه من الإعجاب به في قرارة نفسه. إنه للأسف قليلاً إذ يراه مغلوباً ومقوداً إلى ابن عبد الكريم على ظهر

نعش (محفة). وربما حدثته نفسه بأن مجده هذا، لا بد فانٍ. وها هو في طريقه إلى الريف، وقد أخذ يكشف عن باطن أفكاره. كان بمعيته خالد الريسوني نجل الشريف الأكبر، ووارث سره المفضل. لقد أخذ اخريرو يعامله برفق، وعرض عليه العمل معاً، بل وطلب منه يد أخته الكبرى ليتزوجها. ولم يكن من خالد إلا أن يتحاشاه، ولكن اخريرو يلح عليه أن يطلب من ابن عبد الكريم، أن يبقى مقيماً في شفشاون تحت حضائنه ومسؤوليته، وهناك يوحدان عملهما من أجل زعزعة نفوذ ابن عبد الكريم.

إلا أن نجم اخريرو كان قد أخذ في الأفول، وهذا يظهر في مختلف المظاهر التي يمكن تلخيصها هكذا:

— ارتياب من جانب ابن عبد الكريم من أن يصل اخريرو إلى أن يكون قوة فعالة في جباله. وهذا الأرتياب، أخذ ينعكس في بعثه لمراقبين من أهل الريف يقيمون في مختلف جهات جباله، وكذلك في تعيينه لقواد من مختلف القبائل. وقد ترك لاخريرو قيادة (بني حزمار)، و (بني جسان) و (بني ليت) و (بني سعيد).

— القوات الريفية القليلة في جباله نتيجة هجوم ابن عبد الكريم على ورغة في ابريل سنة 1925.

— الجوع والقلق السائدان في القبائل المكبوحة بقوة على طول خط الدفاع الجديد، والمحاصرة من طرف (الحركات) المؤلفة على طول خطوطنا، والتي كانت تحارب بنفس طرق الثوار.

— فشل اخريرو في حصاره لـ (كدية الطاهر) (شتنبر 1925)
تلك العملية التي كانت أساسية بالنسبة لابن عبد الكريم.

— الأثر المحدود الذي تركته علمية رمي تطوان بالمدفع.

لقد كان لهذا المستوى من الحضيض الذي وصل إليه اخريرو
ارتفاع وانخفاض. وفي بعض الأحيان يتوصل من (غمارة) بقوات
تسمح له بتعزيز حركته.

هزيمة ابن عبد الكريم:

كان لانهازم ابن عبد الكريم على يد قواتنا العاملة إزاء
المخزن مفعوله القوي السريع في (غمارة) و (جباله). وكثير من
القبائل، أصبحت ترى بوضوح، أنه لا يسعها إلا الاستسلام
وجاءت حملة (Capaz) على (غمارة) لتؤكد هذا الواقع.

وفي (جباله الوسطى) لم يبق سوى النفوذ الواضح لـ اخريرو،
إلا أن شهرته هذه المرة، اتخذت مظهراً آخر، إذ أصبحت قائمة
على الهاربين من مختلف القبائل، الذين لا يستطيعون الاستسلام
إلى المخزن لسيئاتهم السابقة. ولذلك فهم يضغطون على القبائل
الأخرى لئلا تستسلم، ولكن الثورة أخذت في الانهيار. احتلت
شفشاون من جديد. وأصبحت القبائل تحب هذا الاحتلال، ولم يبق
أمام اخريرو ورجاله، إلا مقاومة التقدم أينما كان. وفي إحدى
المجابهات مع جيوش المخزن، يلقي اخريرو مصرعه.

مساعي السلام (1925-1926) :

وخلال الحقبة الممتدة على طول سنة 1925-1926 لم تنقطع الاتصالات باخريرو. وقد توسط الكثيرون في هذه المساعي: عبد القادر بن الحسن العرود، مولاي علي اخليش، الحسن (Ayana)، عبد الكريم بن الحاج علي، الكومندار (Portillo)، القبطان (Miguel)، مراقب بني حسان، و (Langenhein) . . . لم يكن اخريرو في أول الأمر ينوي الاستسلام. كانت المباحثات لا تتعدى تبادل عبارات الود، ولكن دون أية فعالية. ومن جهة أخرى، كان لا يزال يتذكر الدرس القاسي الذي أعطته مباحثات سنة 1923.

وربما فكر اخريرو في أن الاستسلام ملائم في يوليوز 1926. أما بعد هزيمة ابن عبد الكريم، فلم يبق هناك وقت للاستسلام. لقد أصبح مصيره مرتبطاً برجال عصابته، وهؤلاء يحاولون بينه وبين الاقتراب من المخزن. سيحاول إطالة المباحثات، ولكن دون جدوى.

مصرع اخريرو (3 نوفمبر 1926) :

لإنهاء مرحلة التهذئة في القبائل، أجرت القيادة بعض العمليات في (بني بدر)، وهذه صحافة العهد، تصف وقائع 3 نوفمبر 1926 التي لقي فيها اخريرو مصرعه:

«لقد قتل اخريرو على يد جيوشنا في المعركة التي جرت قبل يومين، عندما كان على رأس (حركته)، وبمساعدة الفارين من القبائل المجاورة، وثور (بني يدر)، يحاول صد تقدم الفرقة التي تؤلف الجناح الأيسر من قواتنا. لقد تقدمت هذه الفرقة حتى (Semarra) التي كانت مركزاً لنا قبل تمرد جبالة، والتي تقع على إحدى الربوات. وفي المنحدر الجنوبي، كان طابور القوات النظامية لتطوان (Regulares de Tetuan) الذي يقوده الكومندار (Pujalto) و (ايدالة) اليوتان (Sanchez Zamora) يواجه جماعة كثيرة العدد تطلق النار من غابة صغيرة تسمى غابة بني مسعود. إن ميل هذه الجماعة إلى العريضة في القتال كان فوق العادة، وكان ذلك يبدو جلياً في الضرب المتواصل المشوب بردود فعل دفاعية متكررة لا تتوقف إلا عند أمتار قليلة من خطوطنا، وعلى حين غرة، خيم الصمت، صمت عجيب، صاعق لم يجد له أصحابنا ما يبرره، إلا بعد معرفة السبب اليوم. لقد اخترقت إحدى الطلقات النارية الفخذ الأيسر لـ اخريرو حتى وصلت إلى الكلية، توفي على أثرها بعد قليل.

«وقد أخبرنا بذلك أحد الأهالي من مدشر بني (Serah) المجاور، الذي استسلم أخيراً. ويقول بأنه قدم من أثاث بيته فراشاً لنقل اخريرو، ورآه بأم رأسه، مشدداً على هذا النبأ الهائل لإعطائه صبغة الصحة والدقة.

«لقد دفن الثائر الرهيب في مولاي عبد السلام. إن الذي خرج من مهد فقير، يرقد الآن بجوار احميدود الكسان أحد رؤساء الريسوني العسكريين الأذكباء الذي قتلته جيوش تطوان النظامية

(Regulares de Tetuan) أثناء معركة (تزرورت)، وبجوار أكرم الشرفاء العلميين.

«مات اخريرو، واكتسى الجبل حلة الحداد لاختفاء آخر زعيم من زعمائه، وجميع هذه القمم الشاهقة، والوديان العميقة، وهذه الغابات الكثيفة، تعرف ظل هذا الزعيم الجريء. وها هو اليوم يستظل بالأشجار الألفية من جبل العلم، حيث يرقد جثمان أعظم أولياء المغرب.

«بقيت بعض العصابات محافظة على الاضطراب داخل القبائل التي لا تزال ناثرة على المخزن. إلا أنه لا الحريطي، ولا الكوريطو، ولا غيرهما في استطاعتهم أن يشكلوا تاريخاً حافلاً لمحارب ماهر ولا أن يصنعوا تلك الهالة من المجد والاحترام كالتى توجت هامة هذا البطل الجبلي، الديمقراطي، والشعبي، الذي يؤلف اسمه أحد الأوسمة المعلقة على صدر سائر الثورات، وباعثاً له ما يبرره لانشغال القيادة».

إن حياة اخريرو الوجيزة، وذات الجرأة على محاربة المسيحي، ومصارعة أكبر قوة عرفتها جباله. وموته البطولي وهو يجاهد بحماس في الوقت الذي كان يعرف، عقم هذه المحاولة، وقبره بمولاي عبد السلام تحت حماية أقدس أولياء الجبل، بجوار غيره من المجاهدين ورجال الدين، كل ذلك هو بالنسبة لـ (بني حزمارة) تذكارة من المجد، ذلك التذكارة الذي يتجاوز حدود هذه القبيلة.

لقد أهداه الشعب قصائد تتغنى بأجاده، وأوجزت الصبايا إعجابهن بالبطل في هذه المقطوعات الصارخة.

أَلَا لَا يَلَّي
 أَلَا لَا يَلَّي
 عَيْنُونِي يَا اخَوَاتِي
 بِالْجَنَحِينَ دُلِيمَامَةَ
 بِالْجَنَحِينَ دُلِيمَامَةَ
 خَوْفِي مِنَ الْعَارِ
 وَاشْكُون بَكَ
 اِفَاطِمَةُ⁽¹⁾

* * *

أَلَا لَا يَلَّي
 أَلَا لَا يَلَّي
 عَيْنُونِي يَا اخَوَاتِي
 الْحَشْفَةَ دَالُوَادِ
 خَوْفِي مِنَ الْعَارِ، وَلَمَنْ
 نَخْلِي اَحْمَدُ⁽²⁾

* * *

أَلَا لَا يَلَّي
 أَلَا لَا يَلَّي
 عَيْنُونِي يَا اخَوَاتِي

(1) ابنة النائر.

(2) ابنه.

يا اخويطُ المَشْمَر⁽³⁾
يا خويط المَشْمَر
حين غموت لَنُ
نخلي بني حزم

* * *

أَلَا لَا يَلَّي
أَلَا لَا يَلَّي
عينوني يا اخواتي
يا خويط الدفينة
يا خويط الدفينة
خوفي من العار
إذا قبضوني
في المدينة

* * *

أَلَا لَا يَلَّي
أَلَا لَا يَلَّي
يا طريف السكر
يا طريف السكر
عينوني يا اخواتي

(3) خيط من الصوف يربط به النساء في الجبل أطراف الأكمام، ويضعنه في صدورهن.

خوفي من العار
إذا قتلوني العسكر

* * *

أَلَا لَا يَلَّي
أَلَا لَا يَلَّي
يا السَّبْنِيَّةَ دالرَّيش
يا السَّبْنِيَّةَ دالرَّيش
عينوني يا خواتي
إذا مت، اتَّجَمَّعُوا
في ابن قَرَّيش

* * *

أَلَا لَا يَلَّي
أَلَا يِلَّي
يا الحرير دالسَّلهام
يا الحرير دالسَّلهام
عينوني يا اخواتي
إذا مت أبني حزمر
دفنوني في مولاي عبد السَّلام

* * *

لماذا دخل الأمير محمد بن عبد الكريم في حرب مع فرنسا؟

كانت فرنسا تحتل الجزائر (1830)، وتونس (1882)، وفي المغرب الذي وضع كله، ماعدا شماله، تحت «حمايتها»، باسم معاهدات آخرها معاهدة 30 مارس 1912، اشتبكت فرنسا في عمليات حربية مع حركة المقاومة المسلحة المغربية من 1907 إلى 1934، وكانت حربها مع الريف أكبر وأشدّ محنة اجتازتها لتثبيت وجودها في المغرب كدولة مستعمرة، ولم تكن فرنسا تنظر بعين الرضا والاطمئنان إلى انتصار الثورة الريفية على الاسبان الذين، لكثرة هزائمهم، وفداحة خسائرهم، انسحبوا فعلاً إلى مراكز ساحلية كمليلية، وتطوان، وسبتة، بالمغرب، لهذا بدأوا، خلال 1924، باجتياز نهر ورغة، واتخذوا في سفوح جبال الريف حصوناً عديدة، كما فتحوا طريقاً عسكرياً بين فاس وعين (عيشة) حيث أقاموا معسكراً كبيراً، وتحصنوا بتاونات، وهكذا تركزوا طول الشمال شرقاً وغرباً، ولم يكن كل هذا ليعث على الثقة والاطمئنان في الريف، وما أغرى الفرنسيين على ذلك الاندفاع أن حدود المنطقتين لم تكن واضحة وثابتة حيث كانت مصطنعة بين دولتي الاستعمار.

وبالإضافة إلى ذلك لم يطق الفرنسيون في الشمال قيام دولة مستقلة ذات جيش منظم، ومجهز، ومظفر تمكن من هزم اسبانيا في سائر المعارك التي انتهت بكوارث عسكرية كبرى، وما كتبه ليوطي لحكومته خير برهان على ذلك الموقف الفرنسي القلق.

كل هذه الأسباب والاعتبارات جعلت الفرنسيين يستعدون للحرب، فأخذوا يتحرشون بثورة الريف في تحديات متكررة سافرة.

وإذا كان هذا هو الموقف الفرنسي وقئذ فإن موقف قادة الريف كان، خلال الحرب مع اسبانيا، هو العمل بكل وسيلة في فاس، والرباط، وباريس لإقناع الفرنسيين بحسن نوايا الثورة الريفية، وبالرغبة في إيجاد صلات تقوم على المساواة بين الطرفين، ولكن كل المحاولات والمسااعي في هذا السبيل باءت بالفشل، لأن نوايا الفرنسيين كانت سيئة تبين الشر والعدوان، ولهذا كانت الحرب بين الجانبين آتية لا ريب فيها عندما تهيئها الظروف، وتضطر إليها المصلحة، وفعلاً تم هذا بمبادرة الفرنسيين كما أشرنا إليه سابقاً.

وقبل أن تجدد الثورة الريفية نفسها بين عدوين، الاسبان شمالاً، والفرنسيين جنوباً، سعى قادتها جهدهم لتلافي الوقوع بين نارين وخوض الحرب في جبهتين، فأوفدوا مبعوثيهم إلى السلطات الفرنسية في فاس والرباط لمحاولة إقناعها بموقف الريف المسلم، وبلزوم جانب الحياد في الخلاف والاصطدام مع الاسبان، ولكن النتائج كانت دائماً سلبية، ولكي تتضح نوايا ومواقف السلطات

الفرنسية نذكر ببعض الحقائق، وهي أن ليوطي كان معارضاً لكل اتفاق وتعاون مع اسبانيا خلافاً لما كان يفكر فيه ويحاوله المسؤولون في وزارة الخارجية الفرنسية في عدة برقيات وخطابات مرسلة إليه، فكان جوابه: «لا أستطيع أن أتولى هزم ابن عبد الكريم بدلاً منهم، فإني أعتقد أنهم عاجزون عن القيام به، فهل بتضامن جد بارز معهم أكون السبب في جعل الريف كله على ظهري، فأخسر بهذا ثمرة السياسة الشريفة المتبعة منذ اثني عشر عاماً (تقرير بتاريخ 22 مارس 1924). وقد اقترح احتلال الضفة الشمالية لنهر ورغة دون اطلاع الاسبان، ومن غير أن تَظْهَرَ العملية بأية صفة كتعاون فعلي ضد ابن عبد الكريم، ولكن ليوطي كان يعتقد أنه من الضرور احتلال تلك الجهة، ولم يفكر في التعاون مع الاسبان إلا وقتما تجلّ له الخطر الذي أصبح يهدد فاساً بالهجوم الريفي البالغ منتهاه في مايو 1925، وأراد أن لا يكون ذلك التعاون رسمياً ومشهوداً. وغني عن البيان أن هجوم الريف في ناحية ورغة جاء نتيجة الاحتلال الفرنسي الذي اعتبر تحدياً وخطراً، وضرب الحصار على الريف حتى تقطع عنه موارد هذه الناحية الضرورية للتموين والتغذية. وكان الحصار بطلب من الاسبان، ولم يسمح الفرنسيون إلاّ للأفراد بارتياح الأسواق وكانت لهم في هذا نوايا وأغراض سياسية قريبة وبعيدة.

ويتضح كذلك موقف الريف في مهادنة الفرنسيين من تصريحات الناطقين باسمه، ومنهم ازرقان، وزير الخارجية، الذي صرح لمبعوث فرنسي إلى اجدير بقوله: «إن محاولة الفرنسيين

الآن الاستيلاء على بني زروال سيلحق بنا وكذلك بهم خسارة، إنك لا تجهل أننا فزنا أخيراً أعظم فوز على اسبانيا كأمة أوروبية، ونحن على وشك الاستيلاء على كل منطقتهم، وسواد الريفين لا يفرقون بين الأجانب، فإذا دخل الفرنسيون لبني زروال فإن القبائل ستطلب منا بكل تأكيد معارضة تقدمهم، ولا يمكن أن ننتع من هذا، وإلا اندلعت الثورة عندنا.

«منذ وجد الريف ونحن نحرس دائماً على حسن العلائق مع الفرنسيين الذين لا تتضايق منهم، والذين نتعاطف معهم، وعلى العكس من هذا تدمرنا كثيراً من تصرفاتهم معنا، وفي بداية السنة المنصرمة هاجموا بدون مبرر ممثلينا في مريسة بواسطة القائد المذبوح، وبعد ذلك أثار تقدمهم شمال ورغة تمرداً في غمارة، وتلافياً لعودة أعمال من هذا النوع رأينا من الواجب إقامة مراكز حراسة مقابلة لتنظيماتهم العسكرية». «إننا نعرف قوة فرنسا، ونقدرها حق قدرها، ولكن يلزم أن تعرف السلطات الفرنسية جيداً أنها إن قررت في وقتنا هذا القيام بتقدم في بني زروال أو متيو أو أي مكان آخر توجد فيه فمن المحقق أنه سيؤدي إلى «البارود» (الحرب) بيننا، ولا يمكننا أن نعمل غير هذا، وكل الريفيين مصممون على الموت إن لزم الأمر للدفاع عن قضيتهم». وهذا موقف صريح ينطق بالتحذير والإنذار، ولكن الفرنسيين استمروا في تحدياتهم وتحرشاتهم حتى خاضوا مع الريف حرباً أعدوا لها كل عدتها، وتعاونوا فيها مع الاسبان للقضاء على الثورة التحريرية بعد عدة سنوات من جهادها البطولي الخالد.

بعد هذا نريد أن نقف وقفة لبحث اعترافات من انتقدوا إقدام الريفيين على الدخول كذلك في حرب مع فرنسا، فقد قالوا إنها (غلطة) عرضت الثورة الريفية إلى سوء المصير بعد الانتصار على اسبانيا، ثم أدت في النهاية إلى اختفاء كل ماحققته، وإعادة اسبانيا إلى احتلال الشمال بعد أن انسحبت منه، وكل هذا واقع وصحيح، وبكل أسف، ولكن على من تقع المسؤولية؟ وإجابة على هذا يمكن لكل واحد أن يبني حكمه على اعتبارات واقعية، وحيثيات منطقية يعسر الرد عليها، ونحن لا نريد أن نستعرض كل ما قيل جواباً على ذلك السؤال مما تضاربت فيه الآراء، وتناقضت فيه الأحكام. ولمحاولة توضيح الحقيقة العسكرية والتاريخية نذكر بما قلناه حول الموقف الفرنسي من ثورة الريف، وهو عنصر أساسي في تقدير الوضع وقتئذٍ بالنسبة لقادتها، فالباديء أظلم، كما يقال، وقد كان الفرنسيون هم البادئين لا برفضهم للمسالمة من لدن الأمير محمد بن عبد الكريم فحسب، بل بما أقدموا عليه من تقدمات عسكرية داخل أراضٍ تعتبرها ثورة الريف ملحقة بها، وعلى طول المنطقة الشمالية التي أصبحت فيها سيدة مطلقة بحكم الحرب والظفر فيها، فهذه حقيقة تفرض نفسها حتماً على كل باحث نزيه ومنصف، وحقيقة أخرى لا تقل عنها قيمة وأهمية وهي أن قبيلة بني زروال التي ناصرت الثورة الريفية تلقائياً ضد الاسبان هي التي كانت أوفدت إلى الأمير محمد بن عبد الكريم وفداً طلب منه المساعدة لرد هجومات الفرنسيين على أراضيها، وبما أنها استنجدت به ضد العدوان عليها فهل كان من المعقول، والمقبول، والمصلحة الوطنية رفض طلب النجدة، خصوصاً وأن الوضع فيها، كما أوجده

الفرنسيون على طول حدود منطقة الشمال، أصبح إذاك خطيراً ومهدداً بكل شر بالنسبة للثورة الريفية الظافرة؟ وقد لى ابن عبد الكريم ذلك الطلب كرهاً لا طوعاً، وأعلن أنه ارتكب بهذا حماقة لا بد منها.

إن كل هذا يدخل في تقدير الوضع القائم آنئذ هناك بسبب تصرفات الفرنسيين، وتحدياتهم، وتحركاتهم المبنية على خطة مرسومة آخذة في الإنجاز، ويضاف إلى ذلك ما صرح به الأمير ابن عبد الكريم وهو قوله: «لقد خلق تقدم الفرنسيين في وادي ورغة نقمة عظيمة في صفوف القبائل الريفية»، كما أضاف: «كان هذا الشريط من الأرض يقع تحت إشراف الريف المباشر وقتنا تقدم الفرنسيون فيه، ولا يهمننا كثيراً أن تعتبر إسبانيا أو فرنسا أن هذا الشريط يقع تحت سلطتها الانتدائية، فحكومة الريف لم تقبل قط أو تعترف بتجزئة المغرب إلى «هيايات» مختلفة تحت السيطرة الأجنبية».

ففي هذا عنصر أساسي آخر، هو الشعور القومي، والواجب الوطني اللذان أمليا على كل ذي ضمير ومسؤولية من قادة الثورة الموقف الوحيد الصحيح، وهو تلبية نداء النجدة من إخوان في الله، والوطن، والمصير. فكيف كان يمكن — والحالة هذه — أن يتخذ الأمير ابن عبد الكريم غير ما اتخذ من موقف وطني بنجدة إخوانه وحلفائه في حرب التحرير التي قادها من نصر إلى آخر؟ وقد اتخذ موقفه وهو يعلم أنه يرتكب ساعته «حماقة» — كما قال —

ولكن كان لا بد من ارتكابها محافظة على الشرف والنفوذ. وبما دفعه إليها أنه كان موقناً بأن حرب فرنسا آتية لا ريب فيها بعدما استعدت لها، وشرعت في التخطيط والتمهيد لها في انتظار اليوم الموعد، وقد كان قريباً غير بعيد، كما دلت عليه كل القرائن والأحوال وقتئذٍ.

ألم يكتب ليوطي لحكومته: «إن قبائل الريف تخضع لأول مرة في تاريخها الطويل لرجل فرد، وتعيّره أذنناً صاغية، إن ابن عبد الكريم يرغب، فيما يبدو، في تمثيل دور مصطفى كمال، إن أمير الريف هو بطل الاستقلال المغربي، كما أن صوراً ملونة له تنتشر في شمال أفريقيا، بل آسيا الصغرى، إن الريفيين يهثون علناً تغيير الجبهة ضدنا، وطالما أننا لم نوطد مواقعنا شمال نهر ورغة فإن سيطرتنا على فاس، وخط مواصلاتنا الرئيسي تازة-فاس يظللان تحت رحمة غزو ينهال من الشمال، إننا نواجه حقيقة حية تزداد تطوراً يوماً بعد يوم».

ثم طلب ليوطي إحدى عشرة فرقة جديدة على أقل تقدير للرد على أي هجوم، وليتمكن من القبض على زمام المبادرة في الهجوم المبيت.

فهل بعد هذا يقال إن قرار ابن عبد الكريم الدخول في حرب مع فرنسا غلطة، وليس موقفاً أملاً منطلق الأحداث والتطورات، زيادة على الواجب والصالح الوطنيين؟

وقد كانت الشرارة التي أشعلت نار الحرب هي الحملة الفرنسية في ربيع 1924 لاجتياز نهر ورغة، واحتلال الهضاب الموازية له، وقال «والتر هاريس» الصحفي الانكليزي الخبير في شؤون المغرب: «كانت تلك هي المرة الأولى التي توفرت فيها حجة من أجل القتال لدخول الفرنسيين منطقة ينادي ابن عبد الكريم بنفوذه عليها». وبعدما أكد أن ابن عبد الكريم لم يقدم على تنفيذ طلب بني زروال فوراً، قال (هاريس): «لا ريب أن هذه الحركة الفرنسية هي التي أوقدت نار الحرب مع أهل الريف، إن ابن عبد الكريم كان رجلاً لا يتورط في أية مغامرة قبل أن يدرس جميع احتمالاتها، وكانت قوة الأحداث قد جعلت من المستحيل عليه ألا يقاوم خطر الغزو الفرنسي، ولكنه لم يكن متحمساً لذلك».

وقبل الدخول في الحرب، وجّه القائد عمرو حميدو إلى المجنوح في بني زروال ليطلب من الدراقاوي استعمال نفوذه لتراجع الفرنسيين عما احتلوه من أراض في ورغة، فوصل في 13 ابريل 1925 ومعه 500 محارب، ولما علم الدراقاوي بالخبر فر إلى الخطوط الفرنسية مدعياً أنه هوجم من لدن الريفين، فوجد الفرنسيون الفرصة سانحة لبعث طائراتهم لقنبلة الزائرين المسلمين، ورميهم برصاص الرشاشات، فكان الاعتداء على عمرو حميدو مع رجاله في التراب الريفي، واستطاع أن ينجو بنفسه وبرجاله، ويتوجه إلى تافرسيت ليتصل بابن عبد الكريم الذي أعلن أن الإمدادات سترسل في الحين إلى عين المكان لرد الهجوم الفرنسي، والدفاع عن التراب المعتدى عليه.

تلك هي حقيقة نشوب القتال بين الفرنسيين المعتدين وبين
المجاهدين المدافعين عن أرضهم وثورتهم التحريرية المشروعة،
فليسجلها التاريخ، وليتخذها المؤرخون عنصراً أساسياً في حكمهم
بالنسبة للأحداث والرجال الصانعين لها.

جهاز الحكم لثورة الريف

1 - الهيئة الحاكمة:

(حسب مصدر عسكري إسباني هام):

- الرئيس: محمد بن عبد الكريم.
- الخليفة: محمد ولد عبد الكريم (أخ عبد الكريم).
- وزير المالية: عبد السلام الخطابي (عمهما).
- وزير الخارجية: محمد ازرقان.
- وزير الحربية: عبد السلام الحاج مُحَنَّد، من بني ورياغل، (استبدل بعد فشله في تيزي عزة بأحد بُودرة).
- وزير الداخلية: اليزيد بن الحاج حمو، من بني ورياغل.
- مفتش البحرية: حدو بن علي لمعلم، من اجدير.
- ناظر الأحباس: احمد ورود، من بني ورياغل.
- ناظر الضرائب: عمرو بن محمادي، من بني ورياغل.
- قاضي القضاة: محمد بن صالح، من بني توزين.
- المتصرف: مؤدي المرتبات: محمد بوجيبار، من اجدير.

— قائد المشور: عبد الكريم بن السي حدو، من اجدير.

— دافع مرتبات القوات النظامية الريفية: السي علي بن محمد (علي ولد فطومة)، من اجدير. اما عم الأمير محمد بن عبد الكريم الأمير عبد السلام، فكان كوزير لمالية المجاهدين، يعتبر الشخصية الأكثر تأثيراً في حكومة الريف، والمستشار الرئيسي لابن عبد الكريم.

وأما أخوه الأمير محمد فكان بصفته خليفة له هو الذي ينوب عنه في الحكم أثناء غيابه، وبصفته الرئيسية يقوم بجميع الأعمال الحربية، ويعد من هذه الناحية الرئيس الحقيقي للقوات الريفية، أي رئيس هيئة الأركان، يستوي في ذلك الجيش النظامي والقوات التي تنظمها القبائل، والأمير محمد هو الذي قاد العمليات الهجومية الكبرى لقوات ابن عبد الكريم، والذي كانت له القيادة العليا بشفشاون وغمارة سنة 1924، والذي قاد أكبر هجوم مركز على بني زروال في المنطقة المحتلة من الفرنسيين سنة 1925، فهو المحارب الحقيقي الذي قاتل إلى آخر لحظة دفاعاً عن جبهة اجدير ضد هجوم الإسبان الصاعق سنة 1926.

وقد استسلم كل من الأميرين محمد وعمه عبد السلام للفرنسيين سنة 1926 في نفس الوقت الذي استسلم فيه الأمير محمد ابن عبد الكريم، وقد شاركاه غربته في جزيرة (رينيون)، كما شاركاه القيادة أيام انتصاراته من غير أن ينشأ بينهم في أي لحظة

خلاف ولا تنافس، كما لو كانوا في الحقيقة يؤلفون إرادة واحدة وعقلاً واحداً.

أما أحمد بودرة، فقد كان وزيراً للحربية ابتداء من سنة 1923، وهو المؤسس الحقيقي للجيش النظامي الريفي، والذي قاد المنظمة العسكرية للقبايل، وهو رجل صلب وقاس، مارس قيادته باستبداد حقيقي، وحقق بذلك سيطرة كبيرة على سير العمليات العسكرية، وكان يعمل بصفة رئيسية في المنطقة الغربية كنائب للسي محمد، وهذه الصفة كان هو الذي أراد الهجوم المخيف على كدية الطاهر (تطوان) في شتنبر 1925، وقد استقر فيما بعد بمعسكره العام في تغزوت (بني حسان)، ومن هناك، مربوطاً بواسطة الهاتف مع اجدير، وباتصال مباشر مستمر مع اخريرو، قاد الثورة في «جباله»، وحتى بعد أن استسلم الأمير ابن عبد الكريم، أصرَّ هو على المقاومة كائناً نبأ الهزيمة على قبائل «جباله»، ومتظاهراً أمام رؤسائهم بإجراء مكالمات هاتفية مع الذي كان قد أصبح أسيراً لدى الفرنسيين إلى أن أسرته قوات الكومندار كاباص في غمارة في صيف سنة 1926، واعتقل في الجزر الجعفرية (شافارينة).

وكان القائد ابن علي المعروف بالفقيه بولحية، من أوائل المتعاونين مع ابن عبد الكريم منذ اجتماع جب القامة (بتمسمان) من أجل الهجوم على أبران سنة 1921، ومع أن تسميته الرسمية كانت وزير العدل، إلا أنه عمل أكثر ما عمل كرجل حرب، مؤلفاً، بالإضافة إلى القائد ابن حدو المعروف بالقائد علوش، وموح حميش، والقائد بوحوت (هارب قديم من الشرطة الأهلية)،

واخريرو وغيرهم، هيئة الرؤساء العسكريين لابن عبد الكريم، أولئك القواد الذين قادوا (الحركات) العظمى المؤلفة من ألف رجل، والذين كانوا يدعون (كبراء المحلة).

2 - الاتصالات الخارجية:

وكعمال سياسيين لاتصالاته بالأجانب، استخدم ابن عبد الكريم بصفة رئيسية أخاه السي محمد، والشريف التيجاني، وعبد الكريم الحاج علي اللوه الممثل العام بطنجة لابن عبد الكريم، والمتعاون فيما بعد مع الإسبان كباشا لمدينة الحسيمة. وكذلك القائد المعروف بحدو الكحل، من بقبوة خادم قديم بيور سعيد والذي كان الوسطة في الاتصالات مع المنطقة الفرنسية بفضل معرفته للغة الفرنسية وصدقاته مع كابرييلي (المراقب المدني الفرنسي بتوريرت).

وكمكلف بالتسليح الريف، عين ابن عبد الكريم الفقيه محمد الغماري، وكعميل لشراء الخراطين (القرطاس) والبندقيات، عين شعيب بن عيسى من بني ورياغل (متعاون منذ سقوط ابن عبد الكريم مع الإسبان).

وكمكلف بالمساجين، عين القائد هو الذي كان يعده الإسبان يون الشخصية الناقمة، وغودج الشر والحقد، والذي يجب أن يتذكر دائمًا باشمئزاز وهول من طرفهم كقاتل لضباطهم وجنودهم الأساري.

3 - الباشاوات :

أما الباشاوات الرئيسيون لابن عبد الكريم في القبائل، فكانوا: الشريف سيدي احميدو الوزاني بسنادة في بني يظفت، والشريف محمد الفلاح انجليش بن محمد الكبير، في صنهاجة السراير، وعمرو بوعزة في الفخذ المتجرد من قبيلة بني سعيد الريف، وشعيب أومريوش في تسمان، وعمرو أوكطيو في اجزناية، وعبد السلام البدري في مرنيسة، والهادي مكوح في متيوة، وأحمد المصلوحي شريف زاوية العرب، في غمارة، والفائد اخريرو في جباله.

والقبائل، حتى عندما كانت تعترف بسلطة ابن عبد الكريم، وتدين له بالطاعة في جميع ما يتعلق بالحرب وتكوين (الحركات)، فإنها كانت تأتي مع رؤسائها المحليين، وتستمر في الائتمار حسب أعرافها البربرية القديمة للجماعات أو (محالس الأعيان)، وابتداء من هذا التاريخ (بعد سنة 1923)، فإن ابن عبد الكريم، بدأ ينظم القيادة الحكومية للقبائل حسب نظام القواد المتبع من قبل السلاطين، ففي بني ورياغل، عين خمسة قواد في آيت يوسف وعلي، وبني عياش، وبني حذيفة، وامراطن، وبني عبد الله، ويتمسمان، عين قائدين، وفي بني توزين عين ثلاثة قواد، وواحد في بقيوة، وآخر في بني عمارت، وواحداً بجزناية.

وإن عدم تحديد اختصاصات هؤلاء القواد، والخلط بين اختصاصاتهم، واختصاصات رؤساء المحاكم والإدارات التي أنشأها

ابن عبد الكريم لأغراض سياسية وعسكرية مع اختصاصات قواد الحركات، كل ذلك أدى إلى نشوء اختلافات أوجبت تعديل هذا النظام المخزني، وإقامة نظام آخر شبيه بنظام «الحماية»، وذلك بتعيين باشاوات أو قواد على القبائل تحت إشراف مراقبين من رجال الريف كلهم تقريباً من بني ورياغل وكانوا هم الممثلين الحقيقيين لابن عبد الكريم، يفرضون باسمه الغرامات والعقوبات.

4 - المحاكم:

ومن أجل الإعداد للهجوم والدفاع عن القبائل، أنشأ مصلحة للإعلام والاستخبارات كانت مركزية في المحاكم أو الإدارات التي أنشأها في أرجاء المنطقة التي كان يسيطر عليها، ومن هنا أتى النفوذ والأهمية اللذان كان يتمتع بهما رؤساء هذه الإدارات.

والمحاكم الرئيسية كانت هي:

- المحكمة المركزية في مزماط باجدير.
- المحكمة بآيت قمر.
- محكمة أكشاب، أو مغار بتمسمان، في مواجهة الخطوط الإسبانية بمنطقة مليلية.
- محكمة تركيست.
- محكمة تغزوت، وهي مركز أخ ابن عبد الكريم في بني حسان (جباله).

- محكمة اخريرو، في دار الراعي (بني حزمار).
- محكمة بني بربر، وهي مقر أخ ابن عبد الكريم في الجهة الفرنسية.

5 - جهاز التجسس :

وقد كان لابن عبد الكريم الكثير من الجواسيس بين سكان المنطقة المحتلة من إسبانيا، واستمر على علاقاته معهم ومراسلتهم، تلك المراسلة التي سقط أكثرها تحت أيدي الإسبان عندما استولوا على محاكمه بحيث أمكنهم إعادة تكوين نظام الجاسوسية الذي كان يتبعه ابن عبد الكريم بين الخاضعين له.

ومن بين مخبري ابن عبد الكريم يستحق الذكر كشخصية فذة رجل بريده الخاص الشيخ (العجوز) علي بن هموش الذي سماه «روجي ماتيوه» مراسل «لوماتان» الباريسية، «ميشيل استروثوف الريف» والذي بقي لأمد طويل يجتاز الخطوط الإسبانية من طنجة، حاملاً إلى ابن عبد الكريم البريد والصحافة الإسبانية والأجنبية.

وكذلك كان في خدمته العديد من الأجانب، ويعد من أشهرهم على ما يبدو المدعو جوزي كليميس المسمى عند المغاربة بالقائد الحاج، ويسميه ابن عبد الكريم «مدفعي العظيم» وهو ألماني هارب من الليف الأجنبي الفرنسي، يجله كل من ابن عبد الكريم وأخيه محمد، وكان يرافق الأخير منها دائماً، كما كان من المدربين الرئيسيين لرجال القبائل على استعمال المدافع وآلات الحرب، وفي

- أعمال تحصين وتنظيم خطوط الخنادق، وعند استسلام ابن عبد الكريم سنة 1926، حاول كليمبس التستر كخادم بلباس مغربي، إلا أن أحد أفراد اللفيف الأجنبي عرفه عند الوصول إلى مدينة تازة، فأسر، وحكم عليه بالموت من طرف الفرنسيين في محكمة عسكرية.

6 - الاتصالات البرقية والهاتفية:

كان من بين مساعديه الرئيسيين في إنشاء شبكة الاتصالات الهاتفية أجنبي آخر اسمه أوطونوجا الذي اختفى عند تقدم الإسبانيين بحيث لم يعثر له على أثر.

وكان المركز الرئيسي للهاتف باجدير، ومنه تتفرع ثلاثة خطوط رئيسية: واحد نحو الشرق موصولاً بمحكمة أكشاب أو مغار بتمسمان في الجبهة بمليلية، وآخر نحو محكمة تركيست، المركز الرئيسي للجبهة الفرنسية، وآخر نحو الغرب عابراً شواطئ بقبوة، وغمارة على امتداد نحو أكثر من 200 كيلومتراً، إلى أن يصل إلى الإدارة الرئيسية بتغزوت (جباله)، ومن هذه الخطوط تتفرع أخرى ثانوية تصل جميع الإدارات في الجبهات الثلاث بلغ عددها نحو 77 مركزاً تليفونياً.

وقد أعد، زيادة على ذلك، مركزاً راديو - تيلغرافياً يقول أهل الريف أنه أتى إنه من اليخت (سيلفيا) للقبطان كاردنير الانكليزي .

7 - الاقتصاد والمالية :

كانت مداخيل (مالية المسلحين) مرتبة حسب المعطيات الآتية :

- الجمارك، لتصدير المواد وإيرادها، وقد بلغ مجموع هذه المداخيل نحو 5000 بسيطة يومياً.

- ضرائب الأسواق، (المكوس) على المواد المباعة فيها.

- الأحباس، وقد أدخل ابن عبد الكريم كل مداخيلها من القبائل وألحقها (بمالية المسلمين) بحجة استعمالها في حرب المسيحيين، وقد بلغ مجموع هذه المداخيل 75000 بسيطة سنوياً.

- ضريبة الترتيب، موضوعة حسب تعاليم القرآن كضريبة وحيدة على الأرباح والأموال من مختلف الأنواع، الأراضي، ومحاصيل، وماشية، وأموال، وقد بلغت مداخيلها نحو 300000 بسيطة سنوياً.

- الغرامات: موضوعة حسب جميع المقتضيات، ولكن بصفة رئيسية كعقاب للقبائل التي قاومت حكمه، ويشكل أهمها نصف مليون بسيطة المفروضة على بني زروال لمقاومتها إياه سنة 1925، و 20000 بسيطة على قبيلة الأخماس لمحاولتها شق عصا الطاعة في جبل الخزانة سنة 1924.

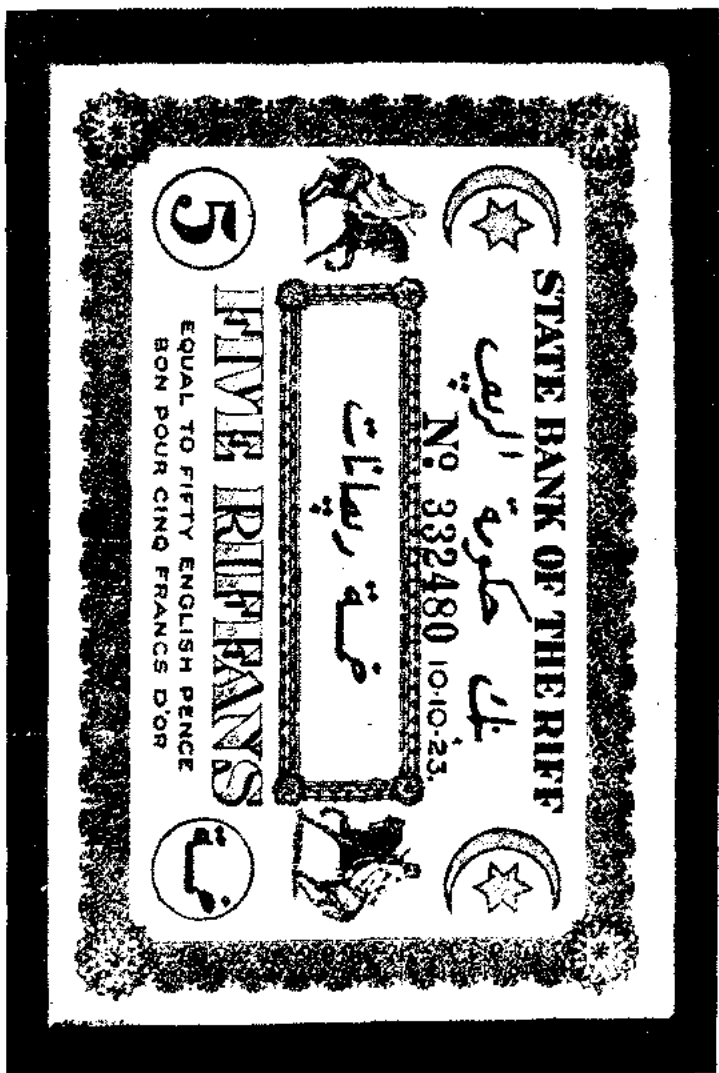
— مال المساجين: مكون من المبالغ التي أرسلت لإغاثة الأسرى، ومن المال المؤدي سنة 1923 لافتدائهم.

وينفي ابن عبد الكريم في مذكراته أنه تلقى أية مساعدة من الخارج، وفعلاً، فإنه — ماعداً بعض المبالغ الموجهة من طرف مصر — يظهر أن المساعدة التي تلقاها من العناصر الأجنبية كانت في الغالب ذات صبغة أخلاقية، أو من أجل التسليح عن طريق التهريب، وقطعاً لم يعثر في الوثائق التي سقطت في حوزة الإسبان، وكذلك في الميزانيات الخاصة بمالية المسلمين على أي مدخول من المبالغ المستلمة من الخارج.

وفي الأخير، حاول ابن عبد الكريم تنظيم العملة الورقية بواسطة أوراق بنكية صادرة عن (بنك حكومة الريف) من فئة (ريفان) واحد، وخمس ريفانات (الريفان يساوي بسيطة واحدة)، وقد صنعت هذه الأوراق في انكلترا، والأولى منها ذات لون أحمر، أما الثانية فلوونها أخضر معلناً أنه يجب تداولها بشكل إجباري، ويظهر أن ترويج هذه الأوراق كان يتركز على عقد مبرم بين أحد الرعايا الانكليز المعروفين جداً بالمغرب، وبين أخ ابن عبد الكريم، والذي يرخص فيه للأول أن ينشئ بنكاً للحكومة في الريف يكون مركزه اجدير من أجل ترويج هذه الأوراق وإذاعتها، وتقديم القروض، واعداداً في مقابل ذلك بأن يعمل على تسهيل الموارد التي تحتاج إليها حكومة الريف.

إن هذا البنك لم ير النور، وحيث لم تكن هناك ضمانات مالية فيمكن بسهولة فهم المقاومة التي أبداه رجال القبائل في عدم قبولهم لهذه الأوراق التي كانت تفتقر إلى قيمة حقيقية.

المسلة الورقية الصادرة عن (بنك حكومة الريف)



8 - العتاد الحربي :

إن السلاح الذي كان موجوداً في حوزة رجال القبائل قد وضع حسب الترتيب الآتي :

- سلاح المخزن .

- السلاح الخاص .

فسلاح المخزن ، كان مكوناً من بنادق موزر، ولوبيل، وريمانكطون، وشاسبو، وبوحفرة (الذي كان عند المحلات السلطانية القديمة)، وزيادة على البنادق كانت هناك رشاشات فرنسية وإسبانية، وأخرى مصدرها الغنيمة أو التهريب، وكذلك السلاح الذي انتزع من الريسوني، ومن القبائل التي عارضت ابن عبد الكريم، والتي أخضعت بالقوة، ومن هذه الأسلحة كانت تزود الحاميات والحشود المستمرة، ثم تسلم هذه الأسلحة إلى من يخلف هذه التجمعات .

أما السلاح الخاص، فهو الذي كان يكتنيه رجال القبائل ملكاً خاصاً لهم، والذي كانوا يصحبون معهم عند التعبئة العامة لتشكيل (الحركات)، وحتى عندما تطلع ابن عبد الكريم إلى جمع هذه الأسلحة محاولاً تجريد القاتل منها، وإبقاء السلاح فقط في يد الحاميات والحشود، فإنه لم يفز بمرامه .

(أ) مراتب الجند :

بدأ تأليف الجيش النظامي الريفي سنة 1922، وذلك عند تكوين أول فرقة من رجال تطوعوا بصفة دائمة ولأجل غير محدود،

وبمرتب معين، وقد ارتكز التجنيد بادىء ذي بدء على بعض الهاريين من القوات الأهلية الفرنسية والإسبانية، وعلى بعض المسرحين من الفيلق المغربي الفرنسي الذي قام بنشاط باهر في الجبهة الفرنسية خلال الحرب الأوروبية الأولى.

وكان التطوع يعلن عنه في الأسواق حيث يجب على المتطوعين أن يحضروا معهم أسلحتهم، وقد نظمت (المائة) الأولى والثانية سنة 1923، وحاربنا لأول مرة في مجابهة المواقع الإسبانية في مطير وتيكيساش بغمارة، ثم أخذت المئات الأخرى تتوالى إلى أن بلغت سنة 1925 تسع مئات للمشاة مكونة كل واحدة من 120 رجلاً، وموزعة على ثلاثة (طوابير) يحكم كلاً منها (قائد طابور)، وكان على رأس كل (مائة) قائد مائة و (قائدان للخمسين)، وأربعة للخمسة والعشرين.

وكانت أجرة الجند محددة في 150 بسيطة في الشهر لقائد الطابور، و 100 بسيطة لقواد المائة، و 80 بسيطة لقواد الخمسين، و 70 بسيطة لقواد الخمسة والعشرين، و 60 بسيطة للعساكر.

(ب) الخيالة:

لم يكن لابن عبد الكريم غير 25 فارساً يقومون بأعمال (المخازنية) أو كأعوان الاتصال أكثر من أي شيء آخر.

(ج) الرشاشات:

كانت تنتمي إلى سلاح المدفعية، وقد بلغ عددها 200 آلة عاملة، وكان على رأس سلاح الرشاشات: القائد السي أحمد

السوسي، ويحمل رجال هذه الأسلحة كشعار عمامة سوداء بدل الخضراء التي كانت علامة للمشاة.

وكان رجال هذه الأسلحة يتقاضون 17,50 بسيطة زائدة على مرتبات جنود المشاة (أي 77,50 بسيطة في الشهر).

(د) المدفعية:

إن جميع القطع والقذائف التي أخذت كانت تعتبر ملكاً للدولة الريفية التي كانت تتولى توزيعها واستعمالها وإعادة تركيبها، وكان رجال المدفعية يستعملون نفس البذلة العسكرية لرجال الرشاشات، ويتقاضون مثلهم 77,50 بسيطة في الشهر.

وكان أوّل مدرب على المدفعية مواطن مغربي أسود يعرف بسبوموز الذي خدم قبل ذلك، أي سنة 1923، وقدم لابن عبد الكريم رجلاً من الصرب كلفه بتنظيم قوات المدفعية وتدريبه. ولم يكن يعرف له اسم غير القبطان الصربي. وقد قتل بقذيفة من إحدى طائرات الإسبان في العام التالي، وأما المنظم والمدرب الحقيقي للمدفعية فقد كان الهارب من الفيلق الأجنبي الفرنسي «جوزي كلمبس» المسمى من طرف ابن عبد الكريم (بمدفعي العظيم).

وفي سنة 1925، كانت قطع المدفعية المواجهة للجبهة الإسبانية موضوعة حسب الترتيب الآتي:

— أفرار أيسداين (الحسيمة): مدفع واحد إسباني الصنع، بقيادة محمد بن دادي من بقيوة، ومساعدة أربعة من المغاربة.

- ظهر امقران (الحسيمة): مدفعان من صنع إسباني بقيادة امهاروش بن عبد السلام من بقيوة، بمساعدة تسعة من المغاربة.

- ظهرت اسنون (الحسيمة): مدفع واحد إسباني بقيادة أحمد بن حمود، من بقيوة يساعده أربعة من المغاربة.

- أضرار طرفه (الحسيمة): مدفع من صنع فرنسي تحت قيادة حدو بن علي، من بني ورياغل، ومساعدة أربعة مغاربة، وهذا الموقع مع المواقع الثلاثة المذكورة آنفاً كان يكون مجموعة تحت قيادة حدو بن علي الذي كان تحت إمرته مدرب هارب من المدفعية الفرنسية.

- راس الطاف (الحسيمة): مدفع إسباني بقيادة محمد بن شعيب، من بقيوة، ومساعدة أربعة من المدفعيين المغاربة.

- أضرار سدون (الحسيمة): ثلاثة مدافع، إثنان منها إسبانيان، وواحد فرنسي، بقيادة أحد المغاربة المدعو كيجوطي من بني ورياغل، يساعده مدرب ألماني برتبة (سرجان)، هارب من فيلق اللقيف الأجنبي الإسباني وعشرة مدفعيين.

- الرقوصة: (الحسيمة): مدفعان من عيار 75 بقيادة علال بن الحاج، وعمر بن علوش، وكلاهما من اجدير، ومساعدة عشرة مدفعيين ماتوا كلهم بجانب قطعهم ما عدا اثنين منهم.

- جبل الأسرى (الحسيمة): مدفعان إسبانيان بقيادة محمد بن علوش، ومحمد بن مسعود، وقد مات هذا الأخير بجانب قطعته.

- جبل قشوز (الحسيمة): مدفع إسباني بقيادة حدو بن عبد السلام، ومساعدة أربعة من المغاربة.

- أذرار (الحسيمة): مدفعان فرنسيان بقيادة سلام الحاج محمادي، ومساعدة مدرب فرنسي هارب.

- أذرار اوفليوم (الحسيمة): مدفع فرنسي تحت قيادة حدو بن عبد السلام ومساعدة أربعة مغاربة.

- أذرار مرطاح (الحسيمة): مدفع فرنسي تحت قيادة محمد بن مسعود، ومساعدة أربعة مدفعيين مغاربة.

- راس كيلاطس (بتمسمان): مدفعان إسبانيان.

- سيدي سعيد (شاطيء تمسمان): مدفع إسباني، وآخر فرنسي.

- جبل ودية (جبهة مليلية): مدفع إسباني.

- جبل ايفري (نفرسييت بجبهة مليلية): مدفع فرنسي ألغم من طرف جواسيس إسبانيين بواسطة مواد آكلة مجهزة في مختبر المدفعية بمليلية.

- بني توزين (جبهة مليلية): مدفعان إسبانيان وآخر فرنسي.

- بني بوفراح (في مواجهة حجرة بادس): مدفع إسباني وآخر فرنسي.

- الجبهة (شاطئ متيوة): مدفع إسباني.

- أمطير (شاطئ غمارة): مدفع إسباني.

- تيكنيساس (شاطئ غمارة): مدفع إسباني.

- قاع اسراس (شاطئ غمارة): مدفع إسباني.

- جبل بوزيتون (جبل في بني حزمارة مقابل لتطوان): مدفع فرنسي.

- بني يدر (جبال): مدفع فرنسي وآخر إسباني.

- الشوطة (بني حسان جبال): مدفع فرنسي وآخر إسباني.

- تزرورت (بني عروس - جبال): مدفع إسباني.

- تغزوت (القيادة العامة للسي محمد بن عبد الكريم في الجبهة الغربية): أربعة مدافع إسبانية معدة للاستعمال خاصة في الجبال.

وبالإضافة إلى 42 مدفعاً أخرى على الأقل كانت منبثة في الجبهة الفرنسية، وعدد آخر منها كان مخبأ في مخازن خاصة، فإن القطار التي كانت في حوزة ابن عبد الكريم سنة 1925 بلغ عددها أكثر من 100 مدفع عامل.

(هـ) مخازن المواد الحربية :

أنشئت لهذا الغرض بادية ذي بدء مخازن في بيوت خاصة وبعد ذلك أحكم بناؤها بحيث تستطيع مقاومة الهجمات الجوية، ثم استقرت نهائياً في سراديب كبيرة تحت الأرض.

وكان المخزن الرئيسي للأسلحة والذخائر بازغار في اجدير، ومنه كانت توزع المؤن على مختلف المخازن والمراكز، وقد تولى رئاسته، محمد بوجييار، وبعد أن نظمت هذه المصلحة بصفة نهائية تولّى رئاسته الفقيه محمد الغماري، رئيس مصلحة التسليح والذخيرة، وكان هذا المخزن يحتوي على معمل لإصلاح الأسلحة وتعبئة الخراطيش (الرصاص)، وكان مدير هذا المعمل المعلم محمد التسماني، يساعده 26 عاملاً مغرباً من بينهم بعض اليهود من بني بوفراح.

أما المخزن الرئيسي لسلّاح المدفعية فقد كان مقره بوحن (بني ورياغل)، كما كان يصنع قذائف الطائرات.

وأما مخزن بوصول (بني ورياغل)، فقد كان مخصصاً للقذائف الرشاشة، وزيادة على ما ذكر، فقد كانت هناك مخازن أخرى في تمست، وياقين، واقلابين في بني ورياغل، وآخر في بني بوفراح (الريف الأوسط) خاص بالوقود وقطع السيارات، وبمعزل عن هذه المخازن ذات الصبغة الدائمة فقد كان بالمحاكم المنبثة في مختلف الجهات مخازن أخرى صغيرة للاحتياطي من البنادق والذخيرة، وقد كان دخول الأسلحة إليها هذه المخازن وخروجها منها خاضعين لأوامر مقننة، يسهر على تنفيذها (مراقبو الأسلحة).

(و) الطيران :

لقد توصل ابن عبد الكريم إلى تملك ثلاث طائرات، وقد وجه كل اهتمامه وولعه من أجل تشغيلها، كما تدل عليه الفقرة الآتية من مذكراته: «... كنت أستطيع أن أضحي بأي شيء من أجل أن تحلق طائرة ريفية فوق الخطوط الإسبانية، وكان في مقدوري بهذه الطريقة أن أثبت لقبائي بأنني مسلح بطريقة حديثة، أما أعدائي فإنهم من جهتهم كانوا يتأثرون من رؤية طائرة ريفية تحلق فوق سماء العرائش، أو تطوان، أو مليلية...».

لم يستطع ابن عبد الكريم إرضاء هذه الرغبة المتأججة، لأن الطيارين الإسبان - علماً منهم بأنه يملك هذه الطائرات - جعلوا من قضية عدم السماح لأية طائرة ريفية بأن تحلق في نفس الأجواء التي تحلق فيها أسراب الطائرات الإسبانية العاملة في المغرب مسألة شرف، وإن أدى بهم الحال إلى الانقضااض عليها إذا لزم الأمر، وعحقها، والتردي معها إذا جرؤت على ارتفاع من الأرض، وقد توصل الطيارون إلى هذه الغاية، ذلك إن إحدى الطائرات وهي طائرة القبطان هرايز، وليوطنان فلوميسطا تحطمت عند ارتطامها برأس كيلاطس، وبذلك لم تستعمل، أما الطائرة الأخرى، فقد ضلت طريقها عندما كان يقودها (كبران) إسباني يجهل التراب المغربي، فتحولت عن خطها، واضطر ربانها إلى الهبوط بها في أرض الريف عند هضبة تركيست حيث أصابها تلف، ولم يستطع الريفيون إصلاحها.

وأما الطائرة الثالثة، وهي الطائرة الريفية الحقيقية، فقد اشتراها في الجزائر محمد ازرقان وحدو الكحل، وقادها فرنسي وعلى ظهرها القائد حدو كمسافر، إلى أن هبطت في توفست (بني ورياغل)، ولم تحلق غير مرة واحدة فوق سماء مريسة عند الجبهة الجنوبية، لأن الطيارين الإسبان - بدافع رغبتهم المحمومة في القضاء على الطيران الريفي، ورغم محاولة إخفائها اكتشفوها ثم قبلوها وحطموها.

(ز) العربات :

كان في حوزة ابن عبد الكريم ثلاث سيارات : واحدة صنف رينو، وأخرى فورد، وثالثة من صنف قوركاميري، وقد اقتناها كلها حدو الكحل من الجزائر، ووصلت إلى الريف برأ مرة بنواحي حسي ونزكة، وكرواو، ثم بوادي كرت، والنكور، فهضبة ازغار باجدير، ولم يكن يستعملها غيره. ولحمايتها بني ثلاثة مراتب (كاراجسات)، مدرعة : واحداً بازغار، وثانياً في بوحن، وثالثاً في تاركيست، وقد سقطت جميعاً في أيدي الإسبان سنة 1926، حيث ألحقت بالخدمة ضمن جهاز المحركات العسكرية السريعة.

(ح) العتاد العائم :

وقد استطاع أن يحرز ابن عبد الكريم على (لانشين) اثنين، وستة زوارق، باع اللانش الأول أحد الأميركان حيث أتى به إلى قلعة بنيطو، وأما الثاني، فلم يعرف مصدره، وكرئيس للقوات والعتاد البحري كان حدو بن علي المعلم من اجدير بصفته كومنداراً ومفتشاً للقوات البحرية على شواطئ الريف، وكان

تحت إمرته قائد، وسائق محركات جزائري، وخليفة، وثلاثون من البحارة المغاربة الذين كانوا يتقاضون 60 بسيطة في الشهر مثل جنود المشاة، وقد سقطت جميع هذه القطع العائمة في أيدي الإسبان سنة 1926، وألحقت بالخدمة ضمن فرق البحرية في سبتة ومليلية.

(ط) شهادة الأعداء:

قال أحد الجنرالات الإسبانين:

«إن التنظيم العسكري، والآلة الحربية التي أحاط بها نفسه ابن عبد الكريم، مستغلاً الخصائص الحربية لدى المغاربة، كل ذلك مكنه من أن يحصل على أداة جد نافعة في الحرب، مكونة من جبليين أشداء وشجعان، ومدربين، كانوا يشكلون في نظر الماريشال بيتان نفسه واحدة من أروع قوات المشاة في العالم».

«ويمكن أن يقدر عدد مجموع المحاربين الذين كانوا تابعين لابن عبد الكريم بحوالي 80000 رجل، وهذا الرقم الذي قدره بعض الكتاب ليس فيه أية مبالغة، ذلك أنه حسب الإحصائيات التي قامت بها قوات التدخلات العسكرية، على أثر احتلال المنطقة سنة 1927، كان مجموع السكان يقدر بـ 500000 نسمة، فإذا فرضنا أن نصف هذا العدد من الرجال، يكون الرقم الناتج 250000 نسمة، وقدرنا أن متوسط العمر 65 سنة، وأن القادرين على حمل السلاح من 20 إلى 45 سنة تكون النتيجة أن نحواً من 100000 نسمة يكونون في هذه السن (أي سن القادرين على حمل السلاح)، وبإسقاط ثلث هذا العدد من الخاضعين بالقوة، أو الذين انضموا إلى صفوف القوات الأهلية التابعة لإسبانيا، أو الذين يعتبرون في

عداد العاجزين عن الحرب لطول المعركة التي خاضها هذا الشعب منذ سنة 1909، يبقى في الحساب 60 أو 65 ألف رجل كرقم تقريبي لمحاربي ابن عبد الكريم، حتى إذا أضفنا إليهم نحو 20000 من قبائل ورغة في المنطقة الفرنسية وصل هذا العدد إلى 80000.

(ي) الوفود المفاوضة :

كان شتاء سنة 1924 حافلاً بالمباحثات والزيارات، والوفود المبعوثة إلى ابن عبد الكريم من أجل مناقشة الوصول إلى اتفاق مع هذا القائد من الجانب الفرنسي، وسبق أن أشرنا إلى وفادة عبد العزيز الحلو ومهمته في اجدير، وذلك، عن طريق القبطان شاستاني في شهر ماي سنة 1925، والمسعى الذي قام به كابريلي الذي تقابل مع ابن عبد الكريم في تمسمان قرب رأس ثيلاطس من غير أن يتوصل إلى نتيجة، ذلك أن أول شرط وضعه هذا الرئيس كان: الاعتراف باستقلال الريف.

ومن الجانب الإسباني، نذكر مهمة الجنرال خيرونا في اجدير سنة 1923، والتي أتمها بعد ذلك ادريس بن سعيد، وادريس الريفي بدون نتيجة، وكذلك المسعى الذي قام به سايدرا كئاثب عام، وينفس النتيجة السلبية. وفي شهر نوفمبر من سنة 1924 بعد الجلاء عن شفشاون كانت هناك وفادة أخرى قام بها ايشفا ريبطا الذي وضع مرة أخرى «صداقته» لابن عبد الكريم تحت الخدمة، الأمر الذي لم يستحق عليه بحق من ابن عبد الكريم غير عبارات قاسية في (مذكراته).

وأخيراً، وبعد أن اتفقت كل من إسبانيا وفرنسا في شهر يونيو سنة 1925 بعث كابرييلي، وماران (ترجمان القيادة العامة بمليلية) من طرف فرنسا وإسبانيا كمنتدبين ليقدّما إلى ابن عبد الكريم شروط الصلح المقترحة من جانب الدولتين، تلك الشروط التي كانت تركز على «الصدّاقة» المتبادلة، ومنح القبائل الجبلية والريفية «نظام حكم ذاتي إداري» ملائم للاتفاقات الدولية.

وقد رفض ابن عبد الكريم حتى الدخول في هذه المفاوضات، وهكذا مكث ثابرييلي وماران ينتظران في مليلية من غير فائدة.

الثورة الريفية ككيان منظم

١ - المجلس الوطني :

بعد ما فازت جيوش المجاهدين على قوات الاسبان التي سارت من هزيمة إلى أخرى، فكرت القيادة العليا الوطنية في تنظيم الشؤون الداخلية بالريف حتى لا تضع ثمرات النصر المبين، وحتى تقوم حركة التحرير على أساس من النظام متين.

وهكذا، فبالإضافة إلى الجهود المبذولة في سبيل التنظيمات العسكرية التي كانت تقتضيها الانتصارات على الأعداء، كما كانت تتطلبها التخطيطات الجديدة لمواصلة الهجوم أو لرد العدوان، انصرف تفكير قادة الجهاد بالريف، وعلى رأسهم الأميران محمد وشقيقه، إلى تنظيم الشؤون الداخلية سياسياً وإدارياً حتى يصبح للثورة الوطنية كيانها البارز، وحتى لا تضع مكاسبها العظيمة التي نالتها بالجهاد والتضحية، وحتى تبدو حركة قومية، ونهضة وطنية ذات كيان وشأن. وأول ما اهتم به البطلان إبراز الصفة الشعبية الصحيحة للثورة التحريرية، وتحقيقاً لهذا دُعي جميع سكان القبائل المنضوية تحت لواء الجهاد الوطني إلى إيفاد نوابهم والناطقين باسمهم إلى اجتماع عام ينعقد في معسكر الثورة بأجدير، فهرع الجميع إلى

مكان التجمع الشعبي العظيم، وفيه خاطب القائد الأعلى الحاضرين بأن تحدث لهم عن مظاهر وخطط الاستعمار الاسباني في المغرب، كما أوضح لهم الأسباب الداعية إلى الثورة، وأهدافها الوطنية، ثم ناشدهم - باسم هذا - أن يتحدوا، ويتضامنوا، ويتناصروا لإحباط الاستعمار والاستعباد في أرضهم، وتحقيق أمانهم الوطنية مهما كلفت الجميع من جهاد، وتضحية، ولم يقتصر الخطيب على هذا، بل طلب من الحاضرين أن يتداولوا في الأمر عملاً بمبدأ الشورى، ويوضحوا بكل حرية وصراحة آراءهم ومواقفهم، فما كان من الجميع إلا أن استجابوا بحماس للدعوة معلنين كامل استعدادهم للجهاد حتى آخر قطرة من دمائهم، واتفق رأيهم إذاً على تكوين مجلس شعبي يكون المرجع الأعلى، ويتولى وضع برنامج العمل، وخطة الجهاد، ويؤلف حكومة محلية وطنية تشرف على تدبير شؤون البلاد، ويكون من اختصاصها التنظيم، والتشريع في فترة الحرب.

وفعلاً تشكل المجلس الوطني من نواب القبائل المجاهدة، وأصبح يمثل إرادة سكان الريف المكافح وفي أول اجتماع عقده المجلس الوطني الريفي اتخذ قراره الأول بإعلان استقلال البلاد، وبتشكيل حكومة «دستورية» برئاسة الأمير محمد الخطابي بصفته زعيم الثورة، وقد تم هذا في منتصف محرم 1340 هـ (1921).

— أمير الجهاد:

وقد تطلب تنظيم كيان الدولة عامين، ورفض محمد بن عبد الكريم أن يكون له لقب سلطان، بل رضي بلقب أمير

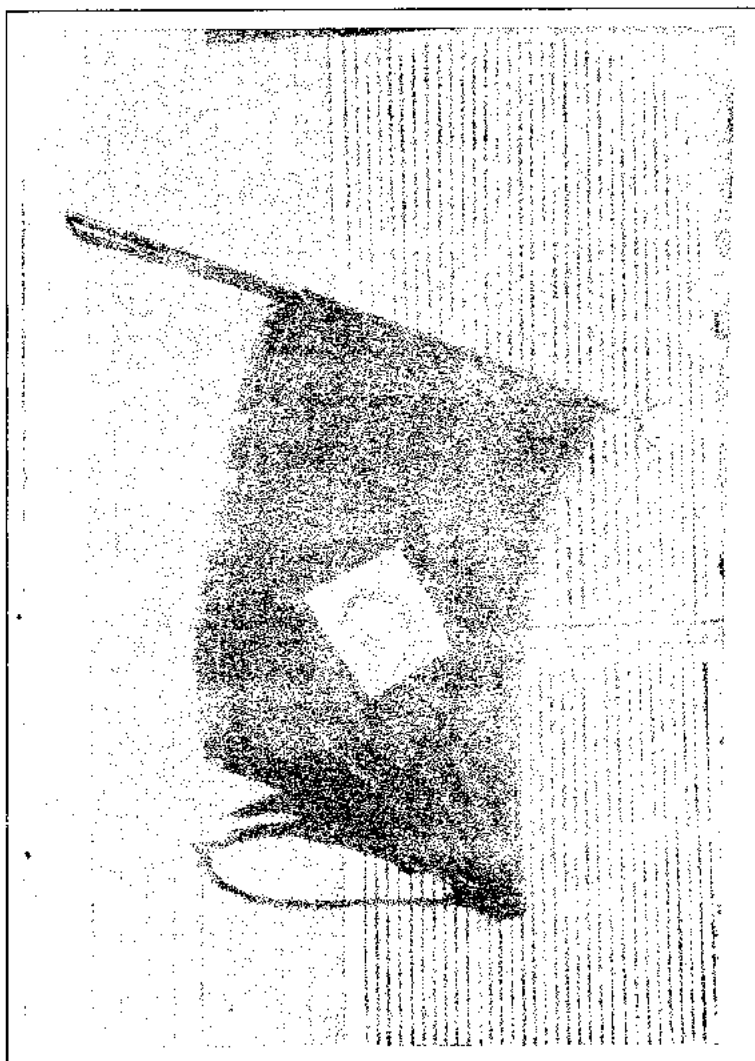
الريف، ولم يكن إلا أمير الجهاد دون مدلول آخر، والقائد الأعلى لقوات المجاهدين، ورئيس الدولة الناشئة وحكومتها معاً، فلم تكن هناك مملكة واسرة ملكية قط، كما لا يمكن أن يورث لقب الإمارة الذي كان خاصاً بالقادة الفعليين والرسميين للثورة الريفية ولحركاتها التحررية الوطنية من آل الخطابي وهم محمد ومحمد بن عبد الكريم وعمهما وشريكهما في قيادة الثورة عبد السلام دون سواهم، وقد منع الأمير محمد بن عبد الكريم أن يذكر اسمه في خطبة الجمعة بمساجد الريف كرئيس لدولته وحكومته، والجدير بالذكر أن الريفيين لم يكونوا يرفضون مبدأ سيادة السلطان على المغرب كله، ولعل من أجل هذا امتنع ابن عبد الكريم من اتخاذ لقب السلطان، وفضل عليه لقب أمير الجهاد، خصوصاً وأنه يرى كسائر المغاربة في منصب السلطنة رمز وضمان استمرار الدولة، والسيادة والوحدة في المغرب المبثلي مؤقتاً بالاحتلال.

ومما يؤكد ذلك أن جميع الذين لزموا الأمير ابن عبد الكريم مدة الثورة أو بعد عودته من المنفى، - وكنت منهم - أيقنوا بأنه لم يكن له أي طموح إلى الملك، بل كان يفكر في استقلال الوطن بعد أن يتحقق استقلال الريف أولاً بالمبدأ الذي يقتضي أن يمارس جميع المغاربة حقهم في اختيار حكاهم، وليس معنى هذا أن حكم الريف كان ديمقراطياً عصبياً، ولا شورياً إسلامياً، بل كان استشارياً في نطاق رؤساء القبائل ومندوبيهم أكثر منه شيئاً آخر، وهكذا كان الأمير يجمع السلطة بين يديه، ويدير الأمور بنفسه مع أخذه آراء المجالس القبلية عند الاقتضاء، ولكن من غير أن يتقيد

لزوماً برأيها سواء في الحرب أو في السياسة، فكان مفهومه للحكم أشبه شيء بما كان عليه الأمر في عهد الخلافة الإسلامية، لهذا لم يتخذ كعادة الملوك (بلاطاً)، وحاشية، وبطانة، وإن قرب أقاربه الذين أسند إلى بعضهم مناصب كبيرة في الجيش والحكومة نظراً لما بينهم من الأواصر العائلية، ولبواعث الثقة فيهم، فقد سئل من الصحفي الانجليزي «وارد برايس» عن نوع الحكم الذي يفكر فيه، بعد استقلال الريف، فاجابه: «ان الدين الإسلامي لا يعترف إلا بشكل واحد من الحكم، وهو حكم الأمير، إن الحكم بمجالس تمثيلية يناقض المبادئ المحمدية، ومع هذا فإن نظامنا ديمقراطي جداً، لأن الأمير ينتخب بحرية من رؤساء القبائل، ويمكن خلعه إذا لم يرض الناس، وينتخب أمير آخر يحل محله، وكذلك فإن خلفه ينتخب بالاقتراع عند الوفاة».

ومع ما أدركه الأمير محمد بن عبد الكريم وشقيقه من رئاسة، وقيادة، ونفوذ، وسطوة فقد بقيا على حالهما لا يميزهما شيء عن أهل الريف، اللذين كانا يتريان يزيم التقليدي، ويسكنان في بيت عادي مثل بيوتهم، ويعيشان نفس عيشتهم، ويختلطان بالناس في القبائل والأسواق، ويتحدثان معهم في شؤونهم، فظلاً من أفراد الشعب وإن كانا رئيسين، وقائدين، وزعيمين بدون منازع، وتلك هي الشعبية الصحيحة، والديمقراطية الحق، وكلتاها قائمة على الطبيعة المغربية، وآخذة للأخلاق الإسلامية فرضاً.

راية الريف



3 - دستور الريف:

وقد وضع المجلس «دستوراً» للبلاد يقوم على سيادة الأمة،
وتما تميز به هذا «الدستور» أنه جعل السلطتين التشريعية والتنفيذية
في يد المجلس الوطني، وذلك من غير أن يفصل بين السلطتين،
ويسند السلطة التنفيذية للحكومة مما هو معهود في الدساتير
العصرية، كما أن «الدستور» جعل رئيس الحكومة الريفية رئيساً في
نفس الوقت للمجلس الوطني ومسؤولاً كذلك أمامه، وحتم على
أعضاء هذا المجلس تنفيذ ما يتخذه من قرارات، فجمع الأمير كل
الرئاسات نظراً لظروف الريف، وضرورة توحيد سلطة القيادة فيه.

4 - الميثاق الوطني :

وبعد ذلك وضع المجلس الوطني ميثاقاً قومياً ليتخذه الشعب
مثله الأعلى في الجهاد، وبعد مداولات متوالية جاء الميثاق كما يلي :

1 - عدم الاعتراف بكل معاهدة تمس بحقوق البلاد
المغربية، وخاصة بمعاهدة «الحماية» المفروضة في 1912 .

2 - جلاء الأسبان عن الريف الذي لم يكن في حوزتهم قبل
إبرام المعاهدة الفرنسية الأسبانية سنة 1912، بحيث
لا يبقى لإسبانيا غير سبتة ومليلية.

3 - الاعتراف بالاستقلال التام للحكومة الريفية.

4 - تشكيل حكومة دستورية بالريف.

5 - دفع إسبانيا للريف تعويضات عن الخسائر التي ألحقتها بسكانه من جراء الاحتلال، ولفداء الأسرى الذين وقعوا في يد المجاهدين.

6 - إنشاء علاقات ودية مع جميع الدول بدون استثناء، وإبرام اتفاقات تجارية معها.

5 - راية الريف:

ومما قرره المجلس الوطني اتخاذ راية للحكومة الريفية أرضها حمراء، وفي وسطها نجمة خضراء سداسية ضمن هلال في رقعة بيضاء (الصورة).

6 - أجدير عاصمة:

ونص الدستور على اتخاذ أجدير عاصمة الحكومة المحلية الريفية، ومعسكراً عاماً لجيش التحرير، وكان الأمير ابن عبد الكريم يفكر في اقتباس الدستور الانكليزي، فأمر وزير خارجيته لاستحضار نسخة منه، وكان اندهاشه كبيراً لما علم أن انكلترا لا تملك دستوراً مكتوباً، وإن دستورها يتكون من تقاليد قومية ورثتها من عهود تاريخها الوطني، وكان البطلان يقيمان بأجدير، ويسكنان منازل لا تختلف عن منازل غيرهم من السكان إلا بشيء واحد هو أنها كانت قبلة المجاهدين والزوار، ومركز النشاط الحربي، والسياسي، والإداري طيلة سنوات الجهاد الوطني بالشمال.

7 - التجنيد العام:

ولتوفير القوة للمجاهدين حتى يستطيعوا مواجهة الاعداء في كل حين وفي كل مكان أقر المجلس الوطني التجنيد العام في الريف بالنسبة لجميع القادرين على حمل السلاح، وخوض غمار الحرب، ومما يذكر أن الأطفال، والنساء، والشيوخ كانوا يشاركون كذلك في حركة الجهاد والتضحية بما كانوا يقدمونه إلى الجيش الوطني في الخدمة والمساعدة، ومنها القيام بالحراسة على الحدود أو في الداخل بل كثيراً ما كانت النساء يشاركن في القتال بجانب الرجال كما جرت العادة المغربية بهذا منذ القديم.

8 - جيش الريف:

وقد أعطي للجيش نظام محكم ليزداد قوة فيستطيع القيام بمهامه الحربية ضد عدو كثير العدد والعدد، وقد تعين الأمير محمد (فتحاً) قائداً للجيش الذي كان أعضاؤه من بني ورياغل عمدته، وكان المجندون هم جميع الرجال الأصحاء البالغ عمرهم من السادسة عشرة إلى الستين، فكلهم كانوا قابلين للتجنيد ورهن إشارة القيادة في كل وقت ومكان، وكان استدعاؤهم بالقرعة، وبلغ الجيش النظامي 5000 رجل، وكانت تنضم إليه باستمرار أفواج من المجندين الجدد، وفي كل منطقة كانت فرقة الجيش تتمون من نفس المكان، وكانت الفرق الكبرى تسمى «بالمحلة»، وما دونها بالمئة أو الخمسين أو الخمسة وعشرين أو الاثني عشر، وسمي «بالنقباء» المجاهدون الذين خاضوا معارك ابران وانوال،

وكانوا هم قادة «المحلات» وغيرها من كتائب الجهاد، كل حسب عمره وتجربته، وكانت رواتب الجنود والضباط على الحكومة المحلية، وكان محمد بودرة مسؤولاً عن الدفاع، ومحمد الحيتمي مسؤولاً عن التدريب، وهما أقارب الأمير ابن عبد الكريم.

وليس بصحيح ان الفارين من اللفياف الأجنبي الفرنسي والاسباني هم الذين دربوا الجيش، وكان يتسلح بالأسلحة التي غنمها في المعارك أكثر مما كان يتسلح بغيرها كالتى اشترت من الفرنسيين قبل الحرب معهم، كما اشترت ثلاث شاحنات من طراز رينو وفورد، وطائرة قديمة بمال افتداء الأسرى الاسبانيين، وقيل إن الريف كان يملك خمس طائرات اشترت ثلاثة منها من الجزائر، وقادها إلى الريف طيارون فرنسيون ثم بقيت غير مستعملة.

9 - بعض قواد الجيش

وكان الجيش المجاهد يتوفر على قادة أكفاء مجربين نذكر منهم اخريرو الذي كان مساعداً لقائد الجبهة الغربية الأمير محمد (فتح) ابن عبد الكريم، واليعقوبي، وهو قائد شاب لجبهة مليلية، وكان قد أبلى البلاء الحسن في معركة وادي اقرموس، وحدوا أمازان، قائد من بني ورياغل بشمال أكنول، وشائب نموح، من تسمان كان قائداً مكلفاً بمراقبة الخطوط الفرنسية على امتداد نهر ورغة، ومحمد شيدى من بني ورياغل وهو شاب يعمل في قيادة ابن عبد الكريم، وتعين قائداً عاماً في الشرق والجنوب الشرقي، ومحمد البرنوصي، قائد كتيبة مدفعية مستقلة، ويمتاز باقتدار ميكانيكي كبير، والقائد

بنحوت كان ضابطاً مع الأسباب قبل أن ينضم إلى الجهاد، وكان مسؤولاً عن المخابرات المضادة في الجيش، وبقيش الذي تولى الهجوم على تافرسيت، وموحي أو مزين، وجميع هؤلاء القادة وغيرهم برهنوا على الإخلاص، والافتدار، وأدوا خدمات كبيرة كان لها أثرها في الانتصارات سنة 1924.

وفي هذه السنة كان الجيش قوة مجهزة أحسن تجهيز، ذات أثر فعال في الميدان، وقادرة على خوض الحرب طبقاً لتخطيط الأمير ابن عبد الكريم، ويقوم على تكتيك الحركة باستمرار، والاختفاء من العدو، وإجادة الرماية، وبهذا كان الريف المبتكر الأول للحرب الشعبية الثورية أو حرب العصابات، وساعدت على هذا طبيعة الأرض، ومعرفة المجاهدين لها.

وكان القائد الأعلى يوصي بإطلاع الجنود المجاهدين على حقائق الوضع حتى يكون المقاتلون على بينة من الخطة العامة ومقتضيات المعركة، وبهذا يستطيعون أن يكونوا في مستوى الحرب التي يخوضونها، وأن يقدموا لها أقصى ما يقدرون عليه أفراداً وجماعات.

وكانت القيادات والمسؤوليات موزعة أحسن وأدق توزيع من الأعلى إلى الأسفل، وكان من نتائج هذا أن كان المقاتلون في جميع القبائل المنضوية تحت لواء الثورة الوطنية ضد الاستعمار على أتم استعداد وأهبة في كل وقت وبكل مكان لخوض المعركة حيثما طلب منهم هذا. وما كان يفرضه النظام العسكري الثوري التناوب بين المجاهدين في ساحة القتال، فكانت كل فرقة تحارب أسبوعين، ثم تعود إلى أشغالها العادية أو الفلاحية، وبعد تشكيل الجيش الوطني

أصدرت القيادة العليا منشوراً يندرج كل من يعصي أوامرها ويفر من الجندية بمصادرة أملاكه وحرمانه من جميع حقوقه الرعوية، كما أصدرت القيادة الأمر إلى جميع الريفيين الساكنين في المناطق الأخرى بالعودة لينضموا إلى المجاهدين، فيعززوا قوتهم، وقد امتثلوا الأمر ولبوا الدعوة، وهكذا أصبح الجيش الوطني يناهز مئة وثلاثين ألف مقاتل كامل العدد، ولكن القوة المحاربة في الميدان لم تكن تتجاوز من 20 إلى 30 ألف، وكان الجيش يتوفر على كثير من الأسلحة بما فيها بعض الطائرات غنم بعضها في ساحات القتال من الاسبانيين، أما الطائرات فكانت إحداها حربية، والأخرى كانت لنقل المرضى والأدوية، وكانت الحكومة الريف المحلية سفينة مسلحة يخفق فوقها العلم الوطني، وشاركت في الحرب بما كانت تقوم به من قصف لبعض الجزر التي كانت في يد العدو، كما قامت بحراسة الساحل، وكانت كذلك للجيش التحرير مصلحة استعلامات محكمة النظام تعمل لمعرفة أسرار وتحركات العدو، واستعداداته الحربية، وأخبار سياسته الداخلية والخارجية، وكان للجيش الريفي شبكة ميدان من الهاتف (تلفون) كانت تربط بين جميع الجهات وترسل الأخبار إلى القيادات العسكرية، وكان الريفيون مشرفين على تسيير الشبكة وفيهم شبان.

وكانت الراية منصوبة فوق مركز القيادة العامة للأمير محمد، ومركز قيادة شقيقه، ولم تكن ترفع في المعارك حتى تتعرض للوقوع في يد العدو، ولم تدع الحاجة لهذا لأن المجاهدين كانوا أثناء المعركة في غنى عن هذا الرمز.

وأما الخطط الحربية المتبعة في الجيش الوطني فقالت عنها إذاك صحيفة «التايمس» الانكليزية: «انها أظهرت حكمة الريفيين الفائقة في اختيار مواعيد القتال، واتخاذ المراكز الحربية، وإتقان العمل الحربي».

10 - حركة الإصلاح

ولم تكن حركة الجهاد لتصرف أنظار الأميرين محمد بن عبد الكريم وشقيقه عن الاهتمام بالتنظيمات المدنية، وبالإصلاحات التي كانت البلاد في حاجة إليها، وكانت كلها ذات صبغة ثورية بالنسبة لحياة وتقاليد الريف، وهكذا ألغى الأعراف، وأقام مقامها أحكام الشريعة الإسلامية، كما أعطى للقضاء حق النظر في الجنائي فضلاً عن المدني، وألغى عادة القسم الجماعي في الإثبات وصيره فردياً في حق المتهم، وأدخل الإصلاح على الملكية، وتوزيع المياه، فأصدر قانون مصادرة الأرض التي يعجز صاحبها عن استثمارها، وإسنادها إلى من يقدر على حسن التصرف فيها، كما سمح للجماعات والأفراد بحق تنظيم توزيع الماء، واختصر حفلات الزواج من سبعة أيام إلى ثلاثة، ومنع المتزوجات من الرقص، وأعتق العبيد، ومنع الإتجار بالخشيش، وشن الحرب على الخرافات والطرق التي تروجها لتضليل العقول واستغلال أصحابها، وبالأخص الطريقة الدرقاوية الموالية للاستعمار، ومنع الرجال من الضفيرة (القطاية)، وأمرهم بحلق الرؤوس، وألغى الدية، واستعمال الرصاص إلا في قتال العدو، وحطم ما بني

بجوار كل دار من مخبأ لرمي الجار بالرصاص كلما نشب خلاف تطلب الانتقام، وهذه أفضع عادة كانت هناك، وكان الأمير يسميها «بلعنة الريف». ومنع كذلك استعمال السوط ضد الانسان، واختطاف البنات في الحواضر لاتخاذهن إماء وجواري كما كانت تفعل صنهاجة، فأعتقهن وزوجهن بالعزاب من رجال الجيش.

وباختصار فإن حكومة الريف حققت كثيراً من الإصلاحات الاجتماعية، والسياسية، والإدارية، والاقتصادية لتحويل حياة الريف إلى حياة عصرية متقدمة. ومما استعملته في هذا نشر التعليم وترغيب الناس فيه بواسطة النداءات في الأسواق، وجميع الأجانب الذين تجولوا إذاك في الريف اندهشوا للتطبيق المنجز، واعترفوا وأشادوا في الصحف والكتب. وكان الأمن والعدل منتشرين في كل مكان بالنسبة للمواطنين، وحتى الأجانب الوافدين من الخارج والحاملين لرخصة التجول من القيادة العليا، وكان من نتيجة تلك التنظيمات والإصلاحات أن حلت الطمأنينة محل الاضطراب، وتحسنت الأحوال الاقتصادية، وسادت أحكام الشريعة في كل الأرجاء، فأصبح بفضل هذا كله للثورة التحريرية الوطنية شأنها العظيم سواء في الداخل أو في الخارج، وهذا ما أقلق الدول الاستعمارية، وأثار فيها الحقد والعداوة، ودفع بها إلى استعمال جميع قواتها ووسائلها برأ، وبحراً، وجواً، بما في ذلك أسلحتها الفتاكة كالغازات السامة، للقضاء على الثورة الوطنية التي لا يمكن أن يستقيم بانتصارها أمر الاستعمار المتسلط على المغرب باسم «الحماية» المزورة.

ومما لا شك فيه أن الأمير محمد كان له دور كبير، وعمل حاسم في إقامة تلك الأنظمة، وإدخال تلك الإصلاحات التي أعطت للريف في عهد ثورته الكبرى شكل البلاد المنظمة سياسياً، وإدارياً، وعسكرياً، وهذا ما مكنها من الانتصار على الأعداء، ومن القيام بحركة واسعة النطاق في المجال الدبلوماسي لمحاولة حل الدول على الاعتراف باستقلال البلاد، وربط علائق المودة معها، وهو ما لم يتحقق بسبب المطامع الاستعمارية التي أحبطت في النهاية كل المساعي المبذولة في هذا السبيل، ولكن بالرغم من تلك المطامع وما أملت على دولتي الاستعمار، إسبانيا وفرنسا، من خطط حربية، فإن بعض الدول الكبرى أوفدت إلى الريف مبعوثين للاتصال بقادته، ومحاولة التفاهم معهم، وبالرغم عن ظروف الحرب فإن جماعة مالية انكليزية أمضت في يونيو 1923 مع الحكومة الريفية اتفاقاً من أجل قرض مهم لاستثمار المعادن.

وتجدر الإشارة إلى أن الأمير ابن عبد الكريم أسس وزارة للتعليم لمقاومة الجهل، ونشر التعليم الابتدائي العصري، ونشرت بعض الصحف الجزائرية (كلسان الدين) إعلانات لطلب المعلمين، وفتحت مدرسة بأجدير.

الفصل الثالث والعشرون

ما هي حقيقة النظام السياسي في الريف زمن الثورة التحريرية؟

إن هذا الموضوع أثار جدلاً في بعض الكتب المغربية التي صدرت أخيراً عن حرب الريف التحريرية، وكان الجدل سطحياً، وهدف إلى إنكار حقيقة تاريخية لحاجة في نفس الكاتب، مع أن مؤرخ حرب الريف كيفما كان، وخاصة إن كان مغرباً، يجب عليه أن يدونه، بكل نزاهة وأمانة للحقيقة والتاريخ، فلا يلبس فيه الحق بالباطل، ولا يتخذ وسيلة وفرصة لخدمة أغراض شخصية، فيضلل بهذا القراء، ويشكك الباحثين، ويخفي - بدافع الانتهازية، والنفاق، والتزلف، والتنكر - حقيقة التاريخ الوطني عن الأجيال المغربية خاصة. وكل مؤرخ غير مسؤول عن أحداث وحقائق التاريخ الذي يدونه، لهذا يجب عليه أن يروها كما كانت في الواقع، وفاء للحقيقة:

نفتح النقاش حولها، ونسأل باديء ذي بدء: هل أعلنت الجمهورية في الريف زمن الثورة؟

ومن غير تردد، نجيب: نعم، أعلنت في يوليوز 1921 بدليل ما ورد باسم «الدولة»، كنداء إلى جميع الأمم، البيان الذي أصدره

الأمير محمد بن عبد الكريم في يناير 1923 وقتها نادى باستقلال دولة الريف، وبدأ بهذه العبارة: «نحن حكومة جمهورية الريف...». وقد حرصنا على التعليق على مضمون البيان لما فيه من قلب الحقائق بدافع اعتبارات سياسية وظرفية أريد التدرع بها لإنكار ما قضت المصلحة إذاك بإنكاره، ومحاولة إثبات ما لا يمكن أولاً يصح إثباته.

على أن البيان - بالرغم عما ورد فيه من المآخذ - أعلن أن إسبانيا فرضت الحرب على الريف متذرعة بمعاهدة الجزيرة 1906 التي أكد البيان أن قادة الريف لا يقبلون فيها إلا ما أعلنته من مبدأ استقلال سلطان المغرب، وسلامة أراضيه، والحرية الاقتصادية على قدم المساواة بين الدول، وهكذا وقفت (حكومة جمهورية الريف) دولياً بجانب سلطان المغرب باسم استقلاله، وسيادته، ووحدة المغرب الترابية، وعلى هذا الأساس، وفي هذا النطاق لم تظهر حكومة «جمهورية» الريف بمظهر الانفصال، والانعزال، والاستقلال عن الوطن ونظامه السياسي مثلاً في السلطان و «المخزن» وهذا في نفس الوقت الذي يعلن فيه البيان: «ولقد أشعرنا في يوليو 1921 سفراء انكلترا، وأميركا، وفرنسا وإيطاليا، في طنجة بأننا نعلن جمهورية الريف... ونحن نخوض حرباً ضد إسبانيا دفاعاً عن استقلالنا... وسوف نثابر على ذلك حتى نحصل على السلام، والحرية، والاعتراف باستقلالنا ضمن أراضي جمهوريتنا الكاملة» التي حدد لها البيان حدوداً من خط جنوب الشمال حتى البحر الأبيض المتوسط، ومن ملوية حتى المحيط كأن هذه الرقعة كانت كلها من الريف جغرافياً، وبشرياً، وسياسياً، وواقعياً، ولكن النية كانت في الحقيقة هي تحرير منطقة الشمال كلها بصرف النظر عن

الاعتبار الجغرافي والبشري .

وخلاصة القول، أن الجمهورية أعلنت في الريف بما لا جدال فيه، ولا غبار عليه، ولكنها كانت — حسب القرائن والأحوال — اسمية، وشكلية، ودعائية أكثر مما كانت اسماً يطابق مسماء نظاماً، وحكماً. وأقل ما يقال في ذلك البيان «الجمهوري» أنه غريب كل الغرابة في حد ذاته وفي تناقضاته المكشوفة، وأغرب ما فيه أنه صدر أو نشر بإمضاء: عبد الكريم .

ونواصل عرضنا بالتذكير بما ورد في حديث زعيم الثورة كما أجراه أو نسب إليه مع مراسل أكبر صحيفة انكليزية «دايلي هيل» في 1924، وقد نشرت الحديث «هيرالد» الأميركية في 24 و 25 ابريل 1924، وكان أول ما صرح به قائد الثورة قوله: «إن عرب الريف الذين اختاروني أميراً عليهم، يدافعون عن استقلال أراضيهم ضد السيطرة الأجنبية...»، فليست في هذا التصريح إشارة للجمهورية، وإنما فيه أن الريفيين اختاروه أميراً عليهم، فالأمر لم يتجاوز الإمارة، وهي مناقضة للمبدأ الجمهوري، كما هي أنسب لأهل الريف الذين لم تكن لهم دراية كقبائل بالأنظمة السياسية العصرية كالجمهورية التي كانت بعيدة كل البعد عن فهمهم وإدراكهم فضلاً عن واقعهم، وحياتهم الخاصة والعامة. وبالإضافة إلى هذا، فإن طبيعة الثورة ومصلحتها كانتا تقتضيان أن يحمل القائد الأعلى لقباً أقرب إلى مفاهيم وتقاليد الناس حتى يروا فيه صلاحيات القيادة العسكرية والسياسية، وهذا ما يوفره له لقب «الإمارة» دون «الجمهورية» في أعين الجميع .

ويجدر التذكير، كذلك بما صرح به الأمير ابن عبد الكريم في أوائل 1925 - لمراسلين صحفيين أميركيين - يمثل أحدهما «شيكاكوتريون»، والآخر «الدائلي نيوز» فلما سأل أحدهما عن الشكل النهائي للحكومة أجاب أنه ينوي الاستمرار في الحكم وفق مبادئ الملكية المطلقة التي ظهر - كما قال - أنها أفضل نظام يتناسب مع معتقدات الشعب الريفي، ثم زاد: ويمكن تطويرها مع الزمان إلى أسس أكبر حرية. «فهذا كلام صريح في موضوعه، ويستفاد منه:

1 - أن شكل الحكم لثورة الريف لم يكن نهائياً سواء كان «جمهورية» أو «إمارة» أو «شبه ملكية مطلقة».

2 - أن ابن عبد الكريم اعترف بأنه كان يمارس الحكم المطلق لمصلحة الثورة، وأهل الريف.

3 - أن هذا الحكم، مهما كان شكله، واسمه، وعنوانه، كان قابلاً للتطور مع الزمان في اتجاه حرية نسبية لصالح الشعب.

4 - أن ابن عبد الكريم كان يرى أن الحكم الممارس من طرفه وفق مبادئ «الملكية المطلقة» أفضل نظام يتفق مع معتقدات أهل الريف، وبهذا نفى ضمناً أن تكون «الجمهورية» صالحة كنظام للحكم في الريف وقتئذٍ.

ونبحث - بعد كل ما تقدم - واقع الأحداث والتطورات للثورة الريفية لنبرز الحقيقة المنشودة، ذلك أنه في بداية الثورة، لما أراد بطلاها محمد بن عبد الكريم وشقيقه تنظيم صفوف الجهاد،

وجها الدعوة إلى القبائل المنضوية تحت لواء الحرب التحريرية لإيفاد نوابها إلى مركز القيادة باجدير، فكان التجمع شعبياً عظيماً، وخطب فيه قائد الثورة استنهاضاً واستنفاراً باسم الاتحاد، والتضامن، والتناصر ضد الغزاة الإسبانين، ثم جعل الأمر شورى بينهم، فتداولوا في الأمر، وأعلنوا أنهم سيقاتلون إلى آخر قطرة من دمائهم، ثم قر رأيهم على تأليف مجلس شعبي يكون المرجع الأعلى، ويتولى تخطيط البرامج، وتحديد سياسة الجهاد، وتأليف حكومة محلية لتدبير الشؤون العامة، ويكون من اختصاصها التنظيم والتشريع مدة الحرب، وقد تشكل المجلس الذي أصبح يمثل إرادة وصوت القبائل المجاهدة في سبيل الاستقلال. وفي أول اجتماع للمجلس اتخذ قرار إعلان استقلال الريف، وتكوين حكومة دستورية برئاسة الأمير ابن عبد الكريم كزعيم الثورة، وقائد الجهاد، وكان هذا في منتصف محرم 1340 هـ 1921.

ودام تطبيق النظام عامين، -ورفض ابن عبد الكريم أن يلقب بالسلطان، فاكتمى بلقب أمير الريف، تمشياً مع النظام القائم إذاك في المغرب، وهو السلطنة كما ضمنتها المعاهدات الدولية نفسها.

ويتضح من ذلك أن المجلس لم يعلن «جمهورية» وإنما اهتم بتأليف حكومة دستورية تحت إمارة قائد الثورة، وكانت حكومة محلية اقتضتها التنظيمات الثورية، وضرورات الحرب التحريرية، وشتى الاعتبارات السياسية والديبلوماسية، ومتطلبات الدعاية لقضية التحرير في العالم.

وكل ذلك لم يكن متناقضاً مع نظام السلطنة في المغرب، بدليل أن ابن عبد الكريم رفض لقب السلطان، وأثر عليه لقب

أمير الجهاد في الريف لممارسة الحكم والقيادة حتى يتم تحرير البلاد، وتعود السيادة للأمة، فتقرر بمحض إرادتها، وكامل حريتها أنظمة الدولة وسياساتها العامة.

وفىما يخص نظام الحكم في الريف زمن الثورة ليس من شك في أن القيادة أعلنت ماسمي إذاك «بالدولة الجمهورية الريفية» وذلك في 30 جمادي الأولى 1341 وقيل في 14 أو 15 جمادي الثانية من نفس السنة (موافق 18 يناير أو 27-28 فبراير 1923)، وليس من شك كذلك في أن «الجمهورية» المعلنة رسمياً وقتئذ لم تكن في حقيقتها ونظامها، ولا في شكلها وجوهرها، شبيهة بالجمهورية كما عرفت في أوروبا، وإنما كانت عنواناً ولقباً لنوع الحكم القائم يومئذ في الريف لا أقل ولا أكثر، ولهذا كانت شيئاً محلياً وخاصاً بأوضاع الريف الاجتماعية والسياسية، وكذلك بالعادات والمفاهيم السائدة هناك. وفي الواقع، لم يكن مدلولهم إلا «اتحاداً للقبائل المتكتلة» للجهاد تحت قيادة رؤساء الثورة، وحتى هؤلاء أنفسهم لم يعتبروا «الجمهورية» المعلنة سوى اسم بدون مسمى بدليل أن الاسم الحقيقي المتداول كان هو «حكومة الريف» التي كانت تعبر عن واقع الهيئة الحاكمة بصفتها الكل في الكل سياسياً وإدارياً، وحرية، كما أن الأمير محمد بن عبد الكريم كان يستعمل في تصريحاته مصطلحات سياسية مختلفة دون أن يتقيد بلفظ «الجمهورية» لأن المهم في نظره، هو واقع الحكم كما كان يفهمه ويمارسه دون اللقب والعنوان، وحتى القبائل نفسها كانت تستعمل عبارة «قيادة ابن عبد الكريم» - لا رئاسة الجمهورية - كلما أرادت

أن تعبر عن المركز الأعلى للحكم في الريف، وملك تصريحات للأمير ابن عبد الكريم أدلى بها إلى صحفيين كبار زاروه في مركز قيادته، ومنهم «سكوط موفرير» مراسل «شيكاغودايل نيوز» الأميركية في أكتوبر 1924، و«فانسان شين» مراسل «شيكاكوترييون» في مارس 1924، والتصريحان ينفيان حقيقة الجمهورية حيث لم يرد ذكر «للدولة الجمهورية الريفية» في التصريح الأول.

وفي التصريح الثاني، تحدث بقوله: «إن عبارة الجمهورية الريفية غلطة كبرى من حيث التسمية، فلن تكون لنا جمهورية أبداً، ولم نفكر أصلاً في أن تكون لنا، فما هي إلا اسم نستعمله للتعبير عن جماعات محلية صغرى، أي أصغر من القبائل، وأشبه بالدوائر (خونطاس) الإسبانية». وقد اندهشت الأوساط السياسية الفرنسية خاصة لهذا التصريح، حتى إن ليوطي حرص على لفت نظر وزارة الحرب إليه في تقرير بتاريخ 8 أبريل 1925، ففي ذلك التصريح أوضح ابن عبد الكريم أن حكومته تعد «ملكية مطلقة»، وأنها ستطور بعد مرحلة انتقالية لجيل واحد، إلى «ملكية دستورية»، فأين هذا من الجمهورية التي أعلنت، وتبخرت مع الأيام بصفتها غلطة كبرى باعتراف الأمير ابن عبد الكريم؟ وحقيقة الحكم في الريف كانت متمثلة في رئاسة عليا تولها الأمير ابن عبد الكريم، وفي «الدومة» (المجلس) المنتخبة بالشكل التقليدي من سكان كل قبيلة؛ أما السلطة التنفيذية فكانت هيئة وزارية مركزها باجدير، وأعضاؤها ثمانون، ويسمون «بالنواب»،

وتنتخبهم القبائل مباشرة، ومقر هذا المجلس باجدير كذلك، وكانت له السلطة التشريعية، وقراراته نافذة وملزمة للهيئة الحاكمة، وهذا ما كان يضيف على نظام الحكم نوعاً من الديمقراطية. وعلى رأس كل قبيلة كان يوجد «قائد» وكل فخضة منها كان يتكلف بها «شيخ» بجانبه مجلس محلي بينما كان «القائد» مراقباً من ستة مندوبين مختارين من وزير الداخلية ومسؤولين أمامه، وكانت الشريعة أساس القضاء، وتستأنف الأحكام باجدير فهذا جهاز الحكم في الريف آنذاك، وقد كان أبعد شيء عن الجمهورية بالمفهوم الأوروبي. وفي تصريح للأمر ابن عبد الكريم لصحفي أوروبي - بعد نهاية الحرب الريفية بقيادته - نقلته جريدة «الشورى» بالقاهرة، ورد قوله: «لقد سمينا بلادنا جمهورية ريفية منذ 1923، وطبعنا في فاس من أجل هذا أوراقاً رسمية كتبت عليها كلمة جمهورية وذلك للتعبير عن الواقع، وهو أننا كنا دولة مكونة من قبائل مستقلة متحدة، لا دولة تمثيلية ذات برلمان منتخب، فكلمة جمهورية لم يكن لها، في فكرنا، أن تصبح ذات مدلول حقيقي إلا بعد مرور زمن ما، لأن سائر الشعوب عندما تنتظم تكون في احتياج إلى حكومة حازمة وسلطة قوية، ونظام محكم»، ثم أضاف: «ولكنني كنت غير مفهوم لأن الناس ظنوا أنني - بعد الانصراف - سأمنح القبائل استقلالها الذاتي، ومعنى هذا الرجوع إلى الفوضى والهمجية».

وتتضح من هذا التصريح بكيفية أجلى وأدق حقيقة النظام الحكومي القائم في الريف إبان الثورة، فلم يكن جمهورياً

ولا ملكياً، ولا ديمقراطياً، وإلّا كان إمارة سياسية وحربية بإرادة القبائل المتحدة، وتحت قيادة قوية حازمة برئاسة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي والهيئة الوزارية الملتفة حوله، فلم تكن هناك جمهورية حقيقية معنى وتطبيقاً، بل لم تكن هناك حتى دولة بالمعنى القانوني المتعارف، فكل ما كان في الواقع هو اتحاد قبائلي تتولاه حكومة محلية برئاسة محمد بن عبد الكريم كأمر الجهاد المبائع لتحرير البلاد، أما إعلان الجمهورية فكان لبواعث سياسية وديبلوماسية غير خفية، وحدث هذا فكان فلتة أكثر مما كان.



وما عرضناه من تصريحات، وذكرنا به من أحداث يتجلى بكل وضوح:

1 - أن إعلان «جمهورية» في الريف لم يكن القصد منه إقامة نظام بقدر ما كان يرمي إلى الاستهلاك الخارجي ظناً من قادة الثورة أن من شأن ذلك أن يجلب لها شيئاً من العطف والتأييد ضد الأعداء الإسبانيين الذين كان نظامهم إذاك ملكياً.

2 - أن الحكم الثوري كان إمارة محلية كقيادة للجهاد الوطني.

3 - أن الحكم كان مطلقاً حيث كان قائماً على تجمع السلطة كلها في يد القائد الأعلى كأمر للريف، ورئيس أعلى للحكومة والجيش.

4 - أن المجلس القبلي لم يكن «برلماناً» وإنما كان مجرد هيئة استشارية عند الاقتضاء.

5 - أن أهل الريف كانوا لا يهتمون بغير الجهاد وإحراز النصر على الأعداء الغزاة حتى تتطهر من دنسهم البلاد، ويعيش أهلها في ظل الحكم الوطني، والاستقلال السياسي، والسيادة القومية، وغير هذا كان شكلياً وثانوياً في نظر الجميع.

أما اتخاذ الثورة لراية فاستجابة لضرورة سياسية واضحة، كما أنه من عادة الجيوش أن تكون لها ألوية مختلفة عن الراية الوطنية الموحدة. وأما الأوراق البنكية التي اتفق على طبعها فلم يكن لها أي قيمة تُذكر.

حكومة الريف والعالم الإسلامي

كان العالم الإسلامي - شعوباً، وحركات، وأحزاباً، وحكومات - يؤيد ثورة الريف التحريرية بجميع أنواع التأييد المعنوي، وكذلك المادي جهد المستطاع، ولا مبالغة في القول إن المسلمين كافة اعتبروا قضية الريف قضيتهم، فأعاروها من الاهتمام، والرعاية، والمؤازرة ما أقام البرهان على أنها أثارت في أعماق نفوسهم مشاعر العطف، والتقدير، والإعجاب، فكانت في نظرهم مصداقاً للآية الكريمة: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، ولم تكن هذه الفئة الكثيرة إلا دولتين أوروبيتين هما فرنسا، أكبر دولة حربية في ذلك العهد، وإسبانيا اللتين فاق مجموع جيوشهما المحاربة مليون مقاتل، مزودين بأعظم تسليح حربي حديث برأ، وجواً، وبحراً، وقد كبدت الفئة القليلة تلك الفئة الكثيرة من الخسائر والهزائم ماعد من الخوارق والمعجزات في الحرب قديماً وحديثاً، فكان من شأن هذا أن نفخ في عالم الإسلام إذاك روح النهضة، والحماسة، والانبعاث، وقوى فيه عزيمة التوثب، والتحرك، والانطلاق نحو أقصى الأماني والآمال.

وهكذا كانت الثورة الريفية، وقائدها البطل الأكبر الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي ومن معه من القادة والمجاهدين الأبرار، ملء الأسماع والأبصار في الدنيا بأسرها عامة، وفي دنيا الإسلام خاصة، فكان من الطبيعي أن تلقى التأييد من الرأي العام في كل أمة حرة أو متطلعة إلى الحرية، وكان العالم الإسلامي أول وأكبر مؤيد لها على الإطلاق، وتحلى هذا في الصحف، والأندية، والجمعيات، والمنظمات السياسية، وفي المراسلات والبرقيات الصادرة عنها، وعن المؤتمرات والمهرجانات إلى مختلف الحكومات المعنية بالأمر، وإلى هيئة الأمم بجنييف مؤازرة لمطالب الريف في الحرية والاستقلال، ولم تكن هذه الحركة التضامنية معنوية فحسب، بل مادية كذلك بقدر الإمكان، وكان قادة الثورة متصلين بأصحابها، بالرغم عن العراقيل المنصوبة من الأعداء المستعمرين، إما مباشرة، وإما بواسطة مبعوثين أجانب.

المؤتمر الإسلامي بالقاهرة:

لقد دعي الأمير ابن عبد الكريم للمؤتمر الإسلامي المنعقد بالقاهرة في أواخر 1925، وكانت حكومة المغرب مدعوة إليه كذلك، فلما علم الفرنسيون بالدعوة الموجهة إلى أمير الريف سحبوا الوفد الرسمي الممثل للسلطان مولاي يوسف حتى لا يحضر مع وفد الريف الذي اعتبروه ممثلاً للتمرد والعصيان في شمال المغرب، ولم يكتف الفرنسيون بهذا، بل قررت الحكومة الفرنسية وإقامتها العامة بالرباط الحيلولة بالقوة دون توجه الوفد الريفي إلى مصر،

فقرضت تدابير الحصار، بجميع موانئ المغرب، والجزائر، وتونس، وفرنسا من جهة البحر الأبيض المتوسط، وضرب الحصار بشكل أخص في ميناء طنجة حتى لا يتسرب منه مثل الريف في اتجاه جبل طارق، وأمام هذا اضطر الأمير ابن عبد الكريم إلى انتداب شخصيات مصرية لتمثيله في المؤتمر: الشيخ سيدي الحسين العلوي الكاظمي من الأزهر والسيد محمد خراج المنوي رئيس جمعية العلماء بالقاهرة.

ويظهر أن وفد الريف حل بالقاهرة، بالرغم عن تدابير العرقلة برئاسة الحيتمي، رئيس مصلحة الإعلام بالريف، ولكن إسبانيا احتجت على حضوره، فلم يتمكن من المشاركة في المؤتمر، كما يظهر أن التعليمات المعطاة للوفد كانت هي عدم ترشيح أحد لمنصب الخلافة بعد أن ألغيت في تركيا من الحكومة الكمالية، وذلك أن ابن عبد الكريم كان على يقين بأن الطامعين في الخلافة من الرؤساء المسلمين إنما كانوا ذوي أطماع شخصية، وسرعان ما يجعلونها منصب جاه، وأبهة، ويحولونها إلى السيطرة والاستبداد، وقد عرضت الخلافة على الأمير ابن عبد الكريم فرفضها اقتناعاً منه بأن أمرها أصبح إذاك متعزراً على الوجه المطلوب بسبب ما كانت تعانيه شعوب الإسلام من احتلال واستعباد، ومن تسلط واستبداد، وبأن مصلحة هذه الشعوب كانت تقضي بأن تحكمها - في ظل السيادة والاستقلال - حكومات عصرية محكمة النظام. وقد رأى بعض العلماء المسلمين في الشرق - بحق أو باطل - أن موقف الأمير ابن عبد الكريم كان متأثراً بالحركة الكمالية.

والحقيقة أن الرأي العام الإسلامي كان منقسماً إلى أنصار الخلافة وخصومها، ولكل وجهة نظره، وتغلبت الفئة المعارضة لقيام خلافة جديدة، وقد طمع فيها ملوك مسلمون معروفون لم يكونوا صالحين لها، كما أن العصر كان معاكساً لقيام الخلافة بأي شكل، وفي أي مكان، خصوصاً ولم يعد لها إذاك أي أثر في حياة المسلمين، ولم يبق لها كذلك أي بلد يأويها بعدما ألغتها تركيا الجديدة.

2 - المؤتمر الإسلامي بمكة:

دُعي له الأمير محمد بن عبد الكريم من الملك عبد العزيز آل السعود، في حين لم يدع له سلطان المغرب تلافياً لأي تدخل فرنسي في شؤون المؤتمر، فلو وجهت الدعوة إلى حكومة (المخزن) لأوفدت السلطات الفرنسية من يمثل وجهة نظرها، ويخدم سياستها داخل المؤتمر، ولهذا اكتفى الملك السعودي باستدعاء الأمير ابن عبد الكريم لأنه اعتبره أصح من يمثل المغرب نظراً لشخصيته، ونفوذه، وتأثيره، ونظراً كذلك لما كان يتمتع به من تقدير العالم الإسلامي خاصة، ولما كان يشخصه كرئيس حكومة حرة في منطقة متحررة من كل سيطرة أجنبية، وكان ذلك الاستدعاء الرسمي من الملك العربي اعترافاً بالأمير ابن عبد الكريم كرئيس بلد إسلامي مستقل جدير بتمثيل المغرب الحر على الأقل.

3 - حركة التضامن مع الريف:

قد تجلّى هذا التضامن في الميدان المالي، فشهدت الأفطار

الإسلامية حركات لجمع التبرعات المالية لمساعدة الريف، وأدركت التبرعات مبالغ مهمة، ومنها شيكات قيمتها آلاف الجنيهات، وجمع المؤتمر الإسلامي بالقاهرة إعانات باسم الجرحى في الريف، وكانت لجنة الخلافة بوادي النيل من الهيئات العاملة لإسعاف الريف بالمال، وفي الهند تولى الحركة الإخوان محمد علي وشوكت علي باسم اللجنة المركزية للخلافة، وقد كانت المساعدة المالية للريف مستمرة بفضل تلك اللجنة، وفي 1925، وقتها كانت حرب الريف في أوجها، وجهت النداء للتضامن معها، فبلغت التبرعات بسرعة نصف مليون روبية هندية، كما وصلت الأموال المتجمعة في 1926 مليوناً ونصف روبية، وكان معظمها من اكتسابات الجماهير الشعبية، ولكن الصعوبة كانت في إيصالها إلى قادة الثورة في الريف، وكل هذه الحركة التضامنية المتجلية في العالم الإسلامي جاءت برهاناً على ما كان للثورة في نفوس المسلمين كافة من بلبغ الأثر، وعميق الصدى، وتعبيراً عن هذه الحركة كتبت مجلة فرنسية بتاريخ فاتح ابريل 1925: «أن ابن عبد الكريم يعتمد على عطف وتضامن الإسلام (العالم الإسلامي) الذي يرى بحق في الحرب الظافرة التي يقودها ابن عبد الكريم ضد الإسبان حرب الاستقلال، وفي المؤتمر الإسلامي المنعقد في بلكوم بالهند اتخذ أكثر من ألفي مندوب مسلم قرار التضامن مع أهل الريف».

قضية الريف والبرلمان الفرنسي

كانت قضية الحرب في الريف شغل فرنسا الشاغل منذ بدأت ثم توالى الأنهزامات الإسبانية التي كانت كوارث حربية هزت كيان إسبانيا، وزعزعت الرأي العام ونظام الحكم فيها بما ليس له مثيل في التاريخ الإسباني؛ وقد كان لهذا كله صداه البعيد، وأثره البالغ لدى الفرنسيين شعباً، وحكومة، وجيشاً، فأخذ الجميع يحسبون ألف حساب لانتصارات الريف الباهرة على جيوش العدو التي سحقت في الميدان بشكل جد فظيع، وباتت الأوساط العسكرية والسياسية في فرنسا، والمغرب، وشمال أفريقيا، تفكر في عواقب تلك الانتصارات على الوجود الفرنسي في المغرب خاصة، وفي الشمال الأفريقي عامة آنأ واستقبلاً، فانطلقت العقول تصور المخاوف التي تساورها من جراء ما حدث في شمال المغرب من انتصارات ريفية ساحقة لها ما بعدها، وأخذ الساسة والخبراء العسكريون يخططون لتلافي نفس المصير. أما العسكريون في وزارة الحربية، والمجلس الأعلى للدفاع، وهيئة الأركان، وغيرها، فكانوا يقترحون أخذ المبادرة بالهجوم على الريف في ناحية نهر ورغة أي داخل حدود المنطقة الشمالية، وفعلاً نفذ ليوطي هذا بأمر من وزير الحربية ماجينو.

ولما انهزم الجيش الإسباني شر انهزام وفكر الإسبان في التخلي عن الريف، والاكتفاء ببعض نقاط ومدن الشاطئ بلغ تخوف الفرنسيين أشده فصمموا على التعاون والتحالف مع إسبانيا لمواجهة القوات الريفية بهجوم مشترك ساحق. وكان العسكريون الفرنسيون، وعلى رأسهم المارشال بيتان، لا يؤمنون إلا بشن حرب مطلقة (Totale) بكل الأسلحة الحديثة لإنهاء القتال بأسرع ما يمكن ولو أدى إلى تخريب الريف، وإبادة معظم سكانه، وهذا ما قامت به الجيوش الفرنسية بتعاون مع الجيوش الإسبانية براً، وجواً، وبحراً، فكانت النتيجة الحتمية آخر الأمر، وهي توقف ابن عبد الكريم عن القتال.

وطالما كان الريف مسرحاً للحرب ضد الإسبان، ثم ضد الفرنسيين، شغلت قضيته الرأي العام، والحكومة والبرلمان في فرنسا بما جعلها قضية الساعة الكبرى التي يرتبط بها مصير الاستعمار لا في المغرب فحسب، بل كذلك في الشمال الأفريقي، وربما في غيره من الأقطار الواقعة تحت السيطرة الفرنسية بشكل من الأشكال. ونستعرض بكل اختصار ما أثارته حرب الريف في المحافل الرسمية، والأوساط السياسية في فرنسا من مناقشات ومنازعات كانت تتخذ في كثير من الأحيان صفة زوابع هوجاء.

كانت فرنسا إذاً تحت حكومة اليمين، كما كانت الأغلبية يمينية في البرلمان، وكان اليسار فيه قوة لا يستهان بها، وقد غدت قضية الريف الصراع بينها أثناء جلسات صاخبة متوالية. أما موقف

الأغلبية اليمينية فكان مؤيداً للحرب ضد الريف بكل الوسائل، وبدون هوادة ولا شفقة، لأن المصالح الاستعمارية الفرنسية كانت تتطلب القضاء على الثورة التحريرية التي تمثل فيها بتصاد وتفاقم الخطر الجسيم على الوجود الفرنسي في المغرب بالأخص، وفي مجال الدفاع عن تلك المصالح كانت للنواب اليمينيين جولاتهم وصولاتهم تحت قبة البرلمان، فتدفقت سيول كلامهم بما رددت أصدائه صحف اليمين والاستعمار، وسرّ نيران الصراع خارج البرلمان، وضاعف الخلاف في الرأي العام. وكان في البرلمان «فريق استعماري نيابي»، فتصدّر للدفاع عن سياسة الاستعمار زاعماً في بعض ملتزماته إلى الحكومة أن فرنسا إنما تقوم «بدور تمديني وخيري» تجاه السكان المستعمرين، وهو دور جرب هؤلاء السكان في كل مكان حقيقته، وتحملوا كل ما جرّه عليهم من عدوان، وحرمان، ووبال وشقاء.

وفي الواقع، كان البرلمان ناقص الاطلاع على حقيقة الأوضاع في المغرب: لأن الحكومة المسؤولة أمامه دستورياً كانت تخفي عنه كل ما تريد من الأخبار والمعلومات، وحتى في تدخلات وزرائها كانت نفس الخطة متبعة حتى نضل الأسرار والحقائق خاصة بالمسؤولين العسكريين والمدنيين. وهكذا، بقي البرلمان يجهل المشاكل والصعوبات كما كانت تعانيها فرنسا في المغرب، خصوصاً في الميدان الحربي حيث كانت المقاومة المسلحة المتواصلة بشدة، كما سعدت حرب الريف هذه المقاومة الوطنية بشكل أبرز وأقوى، وكان الباعث الرئيسي للحكومة على كتمان الأخبار خوفها الشديد من ردود الفعل لدى الرأي العام.

وفي 1921 حضر ليوطي أمام لجنة المالية، فشرح خطته القائمة على تقسيم المغرب إلى «مغرب غير مفيد» أي الريف والأطلس الكبير، و«مغرب مفيد» هو الجدير بالاحتلال والاستعمار، ولكن الوضعية تطورت في 1923 نتيجة الانهزامات الإسبانية وانسحابات الجيوش إلى الشواطئ طلباً للأمن والسلامة، وهذا ما أصبح يقلق الفرنسيين في المغرب، ويقض مضاجعهم، ويبعث فيهم المخاوف بشكل قوي ومتزايد، ووقع التعبير عن هذا في تقرير ليوطي إلى الرئيس «بوانكاري»، بتاريخ 27 يراير 1921، حيث ورد قوله: «تنشأ من جهة ابن عبد الكريم وضعية يمكن أن تصبح ذات يوم من أخطر الأشياء علينا، فهو بطل الاستقلال الإسلامي الذي ينتصب في جبهتنا الشمالية، ولا يوجد خطر عاجلاً، ولكن لا يمكن أن ينشأ بالنسبة لكياننا في المغرب، عامل مضاد ومعاكس أكثر من القيام على مسافة قصيرة من فاس، لجماعة مستقلة، ومنظمة، ومجددة يؤيدها سكان من أشد الناس حرباً، وكثيرو العدد، وشديداً التحمس بسبب انتصاراتهم المستمرة على الإسمانيين».

وفي مارس 1924 طلب ليوطي الإذن باجتياز نهر ورغة فأعطي له، وهكذا سارت الأحداث في غفلة من البرلمان الذي جعله المسؤولون دائماً أمام الأمر الواقع، ويستفاد من المداولات البرلمانية الخاصة بقضية الحرب في الريف أن الاتجاهات كانت هي محاولة التعرف على حقيقة حركة الجهاد في الريف، ومسؤوليات الحرب، والحلول الملائمة للمشكلة، وقد ظهرت هذه الاتجاهات في

تدخلات النواب الذين خاضوا الصراع كأمناء أو كخصوم لقضية الريف.

أما اليمينيون فاندھشوا وارتاعوا لتغلب بضعة آلاف من المغاربة على جيش إسباني فاق مئة ألف، فاعتبروا قيام دولة مستقلة في الريف تحدياً للديبلوماسية الاستعمارية بما دأسته واكتسحته لغير صالحها من معاهدات وأوافق دولية، وكذلك انهيأراً «للمدنية» الأوروبية التي أصبحت تواجه صراعاً مع عالم جديد آخذ في النشوء والتصاعد.

وأما اليساريون فكانوا شيئاً ما مؤيدين لقضية الريف كقضية شعب معتدى عليه، وثائر يجاهد في سبيل الدفاع المشروع عن الوطن، وتحريره من كل احتلال واستعباد، وقد تغيرت الأجواء في البرلمان بسبب الفريقين المتصارعين، اليمين واليسار، ولكل واحد منهما بواعثه ومصالحه، وكان اليسار ذا شقين: الشيوعي والاشتراكي، فتولى نواب الحزب الشيوعي التنديد في خطبهم بالحرب في المغرب، لأنها حرب استعمارية ورأسمالية لصالح الأبنك والشركات، وهو ما ليس فيه أقل خير لسواد الشعب المتكون من الطبقات العاملة، بل ليس فيه إلا الشر حيث إن الشعب يضحى بأمواله وأرواح أبنائه في سبيل الحرب التي لا يستفيد منها إلا الرأسمال وحلفاؤه وخدامه، ولهذا طالب النواب الشيوعيون بتوقيف الحرب، والجلاء عن المغرب، وكان موقفهم هذا داخلاً في نطاق عداوتهم للرأسمالية، والامبريالية، وتعاطفهم مع ضحاياها من الشعوب المغلوبة على أمرها. وقد برز هذا الموقف

بشكل أقوى في الخطاب التي ألقاها ثلاثة من زعماء الحزب الشيوعي وهم: «دوريو»، «وويرطون»، و«كاشان»، أيام 27، 28، 29 مايو 1925، وطُبعت كتاباً بعنوان: «ضد الحرب في المغرب» في نفس السنة، وكان الموقف الشيوعي منطقياً مع إيديولوجية الحزب، وممثلاً لتطرف أقصى اليسار تجاه قضية الاستعمار بوجه عام.

وفيما يخص موقف الشق الثاني من اليسار البرلماني فقد تولى التعبير عنه الزعيم الاشتراكي «رونوديل» في خطاب، بتاريخ 27 مايو 1925، فبعدما أبدى عدم اندهاشه للتخوفات الناشئة عن حرب الريف ذكر بالمواقف الاشتراكية منذ 1904 حيث لفتت النظر للأخطار التي تعرضت لها فرنسا بالتورط فيما سماه إذاك الزعيم الاشتراكي «جوريس» «بعش الزنبور المغربي»، (كبيي ماروكان) (Guépier Marocain)، وأشار إلى أن نجاح ابن عبد الكريم لا يفسر بقوة شخصيته فقط، بل ذهب الخطيب إلى أنه كانت وراءه «مصالح معدنية»، وكذلك «مصالح ذات صبغة سياسية دولية»، عانياً بهذا ألمانيا وروسيا الشيوعية، ولكنه أضاف أن كل هذا ينبغي أن لا يخفي جوهر المسألة، وهو ابن عبد الكريم يعبر عن حقيقتين اجتماعية وسياسية، وهما أن سكان الريف يؤلفون مجموعة ذات سلبية معينة، ولها اهتمام خاص بالاستقلال، ثم إن المسلمين قد أصبحوا على وعي من وضعهم، فصاروا يعملون لطرح نير الأجنبي ومن هذه الحيثية ضاعفت أغلاط السياسة الاستعمارية نفوذ ابن عبد الكريم، حتى عم إذاك في بعض المدن بالمغرب الشعور بانتظار الحدث الهائل وهو الاستيلاء على فاس. والحقيقة أن العقول

لم تخضع للغزو بسبب الوجود الفرنسي الذي لم يكن إلا احتلالاً عسكرياً، وليست الحقوق المخولة للسكان المغاربة والتي يريدون من الآن الاتجاه إليها، فكلما قيل لهم إنه يراد السير بهم نحو المدينة عدوا هذا التزاماً بالبحث عن الظروف التي تصعد بهم تدريجياً نحو الحرية، وقد تأخر هذا تأخراً مفرطاً، فأولئك الذين كانوا يظهرون أنهم يعيشون في اطمئنان تحت «الحماية» أخذوا يفكرون بغير وضوح في هذا، وهو أنه إذا أمكن إتيانهم بالحرية من الخارج، فإن الاستقلال الذي يطمحون إليه يكون مؤكداً، وهذا ما يفسر الظروف التي استطاعت فيها قوات ابن عبد الكريم الوصول قرب فاس.

وفي نظر النائب الاشتراكي المذكور أن الموقف الفرنسي المتخذ في المغرب، وكذلك الكيفية التي سار عليها الاستيلاء المتزايد على الأراضي المحتلة لم يكونا غريبين عن القرارات التي أقدم عليها ابن عبد الكريم، وأمام احتلال ناحية ورغة التي عدها غلطة لم يكن للقائد الريفي أن يبقى مكتوف اليدين، وغير مهتم بما حدث هناك، وتساءل «رونوديل» بعد هذا عن الحلول الممكنة لوضع حد للحرب، فأشار بثلاثة على الحكومة الفرنسية:

- 1 - الاستيلاء على ابن عبد الكريم في عرينه وهزمه بالقوة،
- 2 - تجميد الوضع الحربي مع استعادة المنطقة المنسحب منها تحت ضغط القبائل الثائرة، والوقوف على أهبة الحرب من غير تسوية المشكلة السياسية،
- 3 - إجراء محادثات للصلح؛

وهذا الحل الأخير هو - في رأيه - الملائم لمصلحة فرنسا،
وعلى هذا بأميرين، هما أن فرنسا قد خرجت قبل قليل من حرب
عالمية ضحت فيها بمليون ونصف من الموق، وتحملت بسببها
الخراب في كثير من الجهات التي تحتاج إلى سواعد ما لا يقل عن
أربعمائة آلاف من العمال الأجانب لإعادة بنائها وتعميرها، ثم إن
الأمهات والزوجات لا يردن أن تتجدد مثل تلك الكوارث ولو
بشكل أضعف، هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى، فإن الوضعية
المالية الفرنسية أصبحت إذاك مخيفة، كما أن نظام المغرب يهدد
بإثارة صعوبات وارتباكات دولية، فيجب على الحكومة أن تقدم
حلاً شريفاً وذلك بمجرد ما يضمن الأمن في المنطقة الفرنسية، وهنا
حذر النائب السلطات المدنية من الجهات العسكرية التي لا تفتأ
تبحث عن الوسائل لتأخير الوقت الذي يصبح فيه السلم نهائياً
ذاهبة إلى أن الضمانات المتوفرة في هذا المجال غير كافية.

أما كيف يتم الإقدام على الصلح فيكون ببناء موجه من
فرنسا إلى ابن عبد الكريم وهي شاعرة بمعنيتها وبقوتها الكبيرتين،
فلا تخاف من إهداء السلم إلى قائد القبائل المحاربة. أما الاتفاقات
الممكن إبرامها فينبغي أن تمنح ابن عبد الكريم الاستقلال السياسي
الذي يحتاج إليه، وعند الضرورة تشرك هيئة الأمم في المفاوضات،
فإذا رفض ابن عبد الكريم فإنه يعطي البرهان على أنه يريد
الحرب. وختم «رونوديل» خطابه، بقوله: «إننا نطلب أن تعلن
فرنسا بافتخار، أمام العالم، أنها تقول ما تعمل، وتعمل ما تقول،
وهكذا فإن الجمهورية الفرنسية تخدم حقاً الديمقراطية الدولية

والسلام» ثم جاء بعد ذلك دور رئيس الحزب الاشتراكي «بلوم» ليعلن من جهته في 9 يوليو، أن الاستعمار الحربي الذي يفرض وجوده بالاحتلال والفتح شيء رفضه الاشتراكيون دائماً، وسيظلون رافضين له.

ونلاحظ على هذه التصريحات والمواقف أنه التمس فيها الحق بالباطل، حيث إن الناطقين باسم حزبهم أعلنوا دائماً أنهم غير متفقين على الجلاء عن المغرب، بل شرح أحدهم في البرلمان هو «فونطاني» بتاريخ 5 يراير 1925، «أن الاستعمار ليس أساسياً شراً وسوأ»، إذ هناك ضرورات سياسية تبرره أحياناً ولهذا فإن لفرنسا حقوقاً في المغرب بسبب وجودها في الجزائر، وبالإضافة إلى هذا، فإن النظام الاستعماري أسمى من الأنظمة الاستبدادية الأهلية»، وحتى الزعيم الاشتراكي الأكبر «جوريس» تحدث بنفس الشيء حينما أعلن قبل ذلك بسنوات في البرلمان: «بالرغم عن عاهاته ومفاسده فإن النظام الفرنسي في تونس والجزائر يخول المسلمين من ضمانات الأمن، والرفاهية، ومن وسائل النمو ما هو أسمى بكثير من التي يعطيها لهم النظام المغربي المعروف بالغصب، والفوضى، والعنف، والانحراف، والمثلث لجميع موارد البلاد، والمتحرك بتعصب معتل وبهيمي»، وسار على نفس المنوال كذلك «فونطاني» المذكور، حيث قال: «إن العمل الاستعماري يجد تبريره إذا ما أتى الأهالي بمردية أسمى، وتقدمت إليهم الأمم المالكة لمستعمرات بصفتها وكيلة الإنسانية جمعاء». فهذه نماذج كافية لإظهار حقيقة آراء ومواقف الاشتراكيين بما لا مزيد عليه من الوضوح والتدقيق،

ولتبيان ما تقوم عليه من أخطاء، وترهات، وتناقضات، وحتى العبارات المعسولة الواردة في تلك التصريحات إنما قيلت للحاجة؛ ولا تعدو أن تكون حقاً أريد به باطل، وهكذا نلاحظ أن تصريحات الاشتراكيين لم تختلف بوجه عام عما اعتاد المستعمرون التعبير عنه لتبرير السيطرة الاستعمارية بمصلحة الضحايا، وباسم التمدين المزعوم.

ويتضح لنا هذا من تصريحات نواب اليمين «كليون باريطي» الذي أنشأ في يناير 1921 «الفريق البرلماني للمغرب» لتكتيل نواب الاستعمار أنصار الوجود الفرنسي في الشمال الأفريقي خاصة، ومحاربة «عدوى» السياسة التحريرية التي قال إنها ظهرت، بعد الحرب العالمية الأولى باسم المبادئ الإنسانية، والتي اتخذتها دعاية الشيوعية أداة لمقاومة الرأسمالية والأمبريالية حليفها. وهكذا كانت الفكرة المهيمنة على نواب اليمين هي الفكرة الأمبريالية خادمة الرأسمال وحامية الاستعمار، ولهذا رأوا في ثورة الريف التحريرية بقيادة الأمير ابن عبد الكريم الخصم المخيف، بل العدو الألد الذي يتحتم بأسرع ما يمكن القضاء عليه، وإبادته، وكمثال لموقف اليمين في البرلمان من قضية الريف نشير إلى خطاب نائب وهران الشهير بتعصبه الاستعماري والمسمى «روكس - فريسيناغ» السيء الذكر لدى الشعوب في الشمال الأفريقي بالأخص، ففي خطاب له بتاريخ 9 يوليوز 1925، قال: «أن ابن عبد الكريم نتاج المجتمع الريفي، ولم تنشأ عن هذا المجتمع أبداً أية أمة، وإنما كان مؤلفاً من قبائل صغيرة مستقلة لا ترتبط فيما بينها بنظام أساسي،

فالقاسم المشترك بينها هو رباط الخضوع للسلطان، وهو رباط مزدوج: ديني باعتبار السلطان أمير المؤمنين، وديني ناشئ عن أداء الجباية كلما سمحت القوة المادية بالذهاب لاستخلاصها، وفي 1921، ثارت تلك القبائل على الإسبان، فاختارت حسب العادة قائد حرب، وكان لابن عبد الكريم من الذكاء والمهارة ما مكّنه من الفوز بالمنصب، فتسمى بالأمير بعد معركة أنوال، وتمرد على رئيسه الديني الذي هو السلطان، كما أعلن الحرب المقدسة لاضد الإسبان فقط، بل كذلك ضد جميع النصارى (الأروام)، ونظراً لاحتكاكه السطحي بالمدنية الأوروبية فقد أخفى النداء بالمبادئ القرآنية وراء واجهة ديمقراطية، ثم صار رئيس جمهورية الريف المستقلة، وهي جمهورية غربية لا يدعى فيها رؤساء القبائل إلا لإعطائهم الأوامر المطاعة ولا يعاقب فيها على عدم تنفيذها إلا بالإعدام الناجز»، ثم بعد هذه الترهات والأباطيل تحدث النائب الأهوس عن الأمير ابن عبد الكريم، فنال من شخصه بما لا يقدر عليه إلا خصم مجنون مثله، واتهمه كذلك بكونه «حليف الرأسمالية الدولية الكبرى»، و«رجل أعمال» متصلاً بالمتقنين الدوليين عن المعادن، وبالأخص منهم الانكليز والألمان. وهكذا أطلق النائب الطائش العنان للكلام بالطعن، والشتم، والبهتان، ومن هذا قوله: «أن ابن عبد الكريم مهدد بالسلم الذي يستعد الإسبان لعرضه عليه»، ومعناه أن الأمير سيفقد منصبه كقائد حربي بمجرد ما تضع الحرب أوزارها، وتمادى النائب الأخرق في إرسال الكلام على عواهنه، وعرض أباطيله وخزعبلاته، وفي الأمثال: كل إناء يرشح بما فيه، وكلام المرء دال على عقله. وقد كان لخطاب

النائب المتعصب تأثير كبير في نفوس الأغلبية اليمينية التي قررت نشره وتعليقه على جدران البرلمان إعجاباً وتوبيهاً، فجاء هذا برهاناً على عقلية القوم التي بلغت من الخسة والسخافة حد المنتهى.

تلك هي الصفة التي كانت تعرض بها قضية الريف في البرلمان الفرنسي من مختلف تيارات اليسار واليمين، ومهما قيل فيها من حق نادر، وباطل وافر، فقد كانت إحدى قضايا الساعة الكبرى التي شغلت الأفكار، وتضاربت فيها الآراء، وتباينت فيها المواقف مما أثار حولها حرب كلام سارت بها في متاهات الضلال أكثر مما اتجهت بها في نهجات الحق والهدى، ومن خلال خطب الريف والاقتراء لأصحاب اليمين من النواب كانت تبرز مخاوفهم على مصير فرنسا المستعمرة، خصوصاً في شمال أفريقيا، فطالبوا الحكومة بوضع حد لما سموه «بقوة الدماء» و«بقوة الفناء والدمار» المواجهتين للمدنية الفرنسية في الشمال الأفريقي، وهذا اعتراف بغزارة الدماء، وبكثرة الهلاك والخراب كما كانت تعانيها جيوش الاستعمار في المغرب، وأمام التيارات المختلفة داخل البرلمان اختارت الحكومة جانب الأغلبية اليمينية التي فرضت على السياسة وجهات نظرها المليئة بالأخطار والأوهام والمعبرة عن الأغراض والأطماع، فتغلب في السياسة المستخلصة من اتجاهات البرلمان جانب القوة والحرب على سواء، ويتضح من جميع المداولات البرلمانية، خلال عدة سنوات، أن القضية المغربية عامة، والريفية خاصة كانتا تعالجان في الخطب بأكثر ما أمكن من التحريف

والتشويه، والتعصب والتطرف من أنصار الاستعمار الذين كانوا
يمسحون الحقائق، ويروجون السفساف، ويفترون الأكاذيب إما
جهلاً منهم، وإما لحاجة في أنفسهم، فخاصموا الحق من حيث
ناصروا الباطل، وأسأؤوا إلى القضية الوطنية المغربية التي كانت
قضية دفاع مشروع عن الكيان القومي، وقضية جهاد في سبيل
الحرية والاستقلال، وهو ما تعدم تجاهله الخصوم المستعمرون ومن
حالفهم أو تواطأ معهم من الأشياء المغرضين في فرنسا.

قضية الريف وأحزاب اليسار الفرنسي

1 - الحزب الشيوعي:

أشرنا في الفصل السابق إلى موقف النواب الشيوعيين في البرلمان من حرب الريف، وهو موقف مطابق لخطة الحزب الشيوعي القائمة على عدم الفصل بين مقاومة الرأسمالية وبين معارضة السياسة الاستعمارية باعتبارهما متحالفتين ومتضامنين في المطامع والمصالح، ولهذا كان العمل الشيوعي مضاداً للاستعمار كما كان ثورياً على الرأسمال، وظهر هذا في قضية الريف زمن الحرب ضد دولتي الاستعمار، وكانت الخطة الشيوعية متأثرة بنظريات المذهب في المسألة الاستعمارية، والنزعة السلمية، (باسيفيسم) (Pacifisme) ومقاومة الروح العسكرية (ميليطاريسم) (Militarisme)، وبايديولوجية «الدولة الثالثة» التي عبر عنها نداء مكتبها الشرقي في بداية 1925 بقوله: «إن حرب المغرب ستكون طويلة ومبيدة للأرواح، وستثير خلافات وارتباكات جديدة على الصعيد الدولي بين الأمبراليات المتنازعة»، واتهم المكتب كتلة اليسار في البرلمان بعدم اختلافها مع كتلة اليمين في سياسة

الاستعمار، وشن الحرب لصالحها، ونادى باستقلال الشعوب المستعمرة.

ومما اهتم به الشيوعيون في صحفهم ونشراهم فضح أسرار التدخل الفرنسي بالمغرب باسم حماية الوجود في الجزائر، والاستيلاء على الاقتصاد المغربي، وخدمة مصالح الأبنك والشركات الطامعة في المعادن والثروات، والتشهير بأسماء رجال الأعمال والوزراء وغيرهم الذين لهم صلة بالرأسمالية، وكان الشيوعيون يثون دعايتهم في الجماهير بكل الوسائل موجهين النداءات المتوالية إلى الجنود في فرنسا وإسبانيا للتآخي مع ابن عبد الكريم كنداء 30 شتنبر 1925 بإمضاء الشبيبة الشيوعية الفرنسية والإسبانية الذي وزع حتى في المغرب، وقبل دخول فرنسا في الحرب ضد الريف وجهت برقية إلى ابن عبد الكريم، باسم الفريق الشيوعي البرلماني والهيئة القيادية للحزب، واللجنة الوطنية للشبيبة الشيوعية، لتهنئته بانتصار الشعب المغربي على المستعمرين الإسبان، والإعراب عن الأمل في الانتصار النهائي على الامبرالية الإسبانية، وفي مواصلة الكفاح مع الطبقة العاملة الفرنسية والأوروبية ضد جميع الامبراليات بما فيها الفرنسية حتى التحرير النهائي للتراب المغربي، وختمت البرقية بالنداء، بحياة استقلال المغرب والشعوب المستعمرة، وقد أحدثت البرقية ضجة في الصحافة الاستعمارية، كما كان لها صداها لدى الشعوب المستعمرة.

ومنذ 14 مايو 1925، عندما هجمت فرنسا على الريف، وجهت المنظمات الشيوعية السياسية والنقابية نداء يطالب بإبرام السلم حالاً مع ابن عبد الكريم، والاعتراف بجمهورية الريف، والجلء عن المغرب، ونسقت هذه المنظمات عملها داخل لجنة موحدة، ونظمت مئات المهرجانات التي كانت تحضرها عشرات الآلاف، وتأسست كذلك لجان الوحدة العمالية لتكتيل الشيوعيين وغيرهم حول القضية المغربية، وكان العمل متركزاً على مقاومة الحرب في المغرب، والمطالبة بالسلم، والجلء، والاستقلال، وكل الفرص كانت تنتهز في سبيل المغرب، كما كانت تستعمل كل المناسبات كالحملات الانتخابية لترويج القضية المغربية، وكل الأماكن كانت صالحة للدعاية ضد الحرب حتى الثكنات العسكرية للاتصال بالجنود، وقد توجه وفد أمهات وأرمالات الجنود عند رئيس الحكومة للاحتجاج على الحرب، وأحيط هذا بدعاية واسعة النطاق، وكانت الصحافة اليمينية تندد بهذا مشيرة إلى أن الشيوعيين هم ألد الأعداء، وأشد المغامرين، وضد حرب الريف دعا الشيوعيون في 12 أكتوبر 1925 إلى شن الإضراب لمدة 24 ساعة في معامل سيطروين، وتساعد الإضراب حتى بلغ مليون عامل في فرنسا بالقطاعات المعدنية والبنائية، وكانت بعض النشرات الشيوعية الموجهة إلى العمال العرب عامة، والشمال الأفريقيين خاصة في فرنسا توزع بالعربية الدارجة (الصورة)، ولما تأسست «جمعية نجم الشمال الأفريقي» في باريس نشطت في مجال الدعاية ضد الحرب في المغرب، وكانت ذات اتصال وثيق بالحزب الشيوعي.

إيها المسلمون

عبد الكريم غلب الجزائر بدموع ديد وقيصر
 الذي يهتك رأس المسلمين يسرق أراضي المسلمين
 لتطلبوا خروج قتالين أخوانكم من المزدور
 عليكم بل لحضور
 يوم ٢٧ سينا نبر على الساعة ثمانية ونصف مع العشية
 الوزار الصلابة يحكي ترويض ولا تفرغ ان يذنبوا
 ميظروا: (كومبا) أرميظرو: (لانكرو)
 وتسبحوا خلسة
 في جيبه يلازم صار سيل كاشان
 ومن لغواكم الحاج على عبد القادر ومحمود بن الأكل
 والسلام

« O Musulmans, Abd el Kerim a vaincu le général Primo de Rivera, qui a été envoyé par les capitalistes pour voler les terres des Musulmans. Il faut que vous demandiez le départ des assassins de vos frères du Maroc. Soyez présents le 27 septembre, à 8 heures et demie du soir, à la Maison des Syndicats, 33, rue Grange-aux-Belles (métro Combat ou Lancry), et vous entendrez les discours du député de Paris Marcel Cachin et de vos frères Hadj Ali ben Abd el Kader et Mahmoud ben Lekhal, Et le Salut! »

النداء المنشور في جريدة «لوفيتي» الفرنسية (L'Humanité)

2 - الحزب الاشتراكي :

وضحنا بإيجاز في فصل سابق موقف النواب الاشتراكيين من قضية المغرب عامة، ومن حرب الريف خاصة، وهو موقف متناقض حيث أنه كان يعبر عن المعارضة للحرب في المغرب، ويدعي رفض الاستعمار، ولكنه يرفض في نفس الوقت الجلاء عن البلاد، وهذا مخالف للقرار الذي اتخذته الاتحاد الاشتراكي في مقاطعة «لاسين» في 1908 للمطالبة «بجلاء الجيوش الفرنسية عن فاس في أقرب أجل، وذلك للمحافظة على وحدة المغرب»، كما هو مخالف لجدول الأعمال الذي وضعه الزعيم الاشتراكي «جوريس» بمجلس النواب، في 16 يونيو 1911، ونصه: «نطلب من الحكومة أن تحترم كل الاحترام استقلال ووحدة المغرب، وأن تضع حداً لاحتلال التراب المغربي».

وقد تطور الموقف الاشتراكي بعد ذلك، فصار يطالب بالهدنة والسلم في المغرب، ولكن مع استمرار الوجود الفرنسي مدعياً أن المعاهدات الدولية عهدت إلى فرنسا بحماية الأراضي وقبائلها، ومؤيداً الحكومة بمنحها الثقة لتحقيق السلم في المغرب على هذا الأساس (جدول الأعمال البرلماني في 10 مايو 1925)، وفي 9 يونيو خصص البرلمان جلسة لمناقشة الاعتمادات المالية - 183 مليون فرنك - التي قررت الحكومة للمصاريف العسكرية، وبهذه المناسبة أبدى زعماء الحزب الاشتراكي تخوفاتهم من تقرير هذه الاعتمادات من الحكومة قبل معرفة نتائج المفاوضات الجارية إذاك مع إسبانيا

للتعاون الحربي ضد الريف، وفرض شروط السلم المشتركة على ابن عبد الكريم.

وتكلف «بلوم» رئيس الحزب بتوضيح الموقف الاشتراكي فأعلن أن حزبه لا يمكنه ولا يريد أن يصوت ضد الاعتمادات لسببين، هما: أن التصويت ضد الاعتمادات يعني التوقف العاجل للحرب أي الجلاء الناجز عن المغرب لا أقل ولا أكثر، في حين أن الاشتراكيين ليسوا أنصار الجلاء عن المغرب، هذا هو السبب الأول، والسبب الثاني، أن التصويت المضاد يمكن أن يعني كذلك أن الاشتراكيين لا يثقون بالحكومة من أجل أن تحسن استعمال الاعتمادات على أفضل وجه خدمة لمصالح فرنسا، وهذا ليس مطابقاً لمزاج الاشتراكيين، وقد تمادى «بلوم» في شرح الموقف الاشتراكي بما عهد فيه واعتاده، من تفنن في التفكير والتعبير، فتلخص من تدخله أن هذا الموقف ليس ضد ولا مع الاعتمادات، أي ليس بأسود ولا بأبيض، بل خليط من السواد والبياض معاً، وبعبارة أخرى، أن الاشتراكيين كانوا يعدون أنفسهم خصوم الاستعمار قولاً، وأنصار الاحتلال فعلاً؛ وهذا ما انتقده عليهم الشيوعيون الذين حاولوا توحيد الموقف معهم تجاه الحرب والاستعمار في المغرب بدون جدوى.

وحقيقة الحزب الاشتراكي الفرنسي أو ما كان يسمى بالفريق الفرنسي للدولية العمالية (س.ف.ي.و.) (S.F.I.O.) أنه كان يلعب على الحبال، ويعيش في تناقض بالنسبة لقضية الاستعمار باستثناء بعض قادته الذين لم يبلغوا عدد أصابع اليد الواحدة،

ومنهم صديقنا جان لونكي النائب. ومن الملاحظ أن القاعدة كانت غير مؤيدة لموقف القيادة تجاه المشكلة المغربية حتى أنها ضغطت عليها في 1925، فاضطرتها إلى دعوة لجنة مؤلفة من الاشتراكيين الفرنسيين، والإسبانيين، والانكليز لتجتمع في باريس بتاريخ 29 يوليوز، وفي البلاغ الصادر عنها طالبت بإعلان شروط السلم كما اتفقت عليها فرنسا وإسبانيا وتوقيف العمليات الحربية أثناء المفاوضات مع ابن عبد الكريم، وتدخل هيئة الأمم؛ وهذا موقف مساير لخطة الحكومتين المحاربتين أكثر من أي شيء آخر، وحتى تدخل هيئة الأمم لم يكن من شأنه إلا مسايرة دول الاستعمار المسيطرة عليها.

وطالما حاول قادة الريف - عبثاً - اللجوء إليها طيلة سنوات، لأنها لم توجد لخدمة سائر الشعوب إحقاقاً للحق، وإبطالاً للباطل، وبعد ذلك انعقد المؤتمر العام للحزب الاشتراكي بباريس في 18 غشت، فأبدى أسفه على إعلان برنامج التعاون الحربي بين فرنسا وإسبانيا للرأي العام قبل إطلاعه على مقترحات السلم. وبعدما ذكر بالإمساك عن التصويت في البرلمان على الاعتمادات العسكرية لمواصلة الحرب في المغرب، أعلن أنه يظهر له من المستحيل تأييد الحكومة في سياستها المغربية العديمة التبصر.

ولما اجتمع مؤتمر «الدولية الثانية» بمرسيليا في آخر الشهر المذكور تبنى قرارات اللجنة الاشتراكية الثلاثية، وطالب باستقلال الريف، وكان الداعي لتطور الموقف الاشتراكي هو تصاعد الدعاية الشيوعية. وفي 26 غشت، عقد مؤتمر الاتحاد العام

للعمال فندد بسياسة الحرب كما تنهجهما الحكومة معلناً تضامنه مع جميع الشعوب المستعمرة من الأمبرالية الفرنسية المعتدية، ومصرحاً بأن الحرب في المغرب جريمة ضد الجنود المرسلين للموت لصالح رجال الأبنك والرأسماليين، كما هي جريمة ضد الطبقة العاملة المتحملة للنفقات، وقرر المؤتمر الخروج إلى ميدان العمل بمقاطعة صنع الأسلحة والذخائر، وبشن إضراب لمدة 24 ساعة إنذاراً للحكومة.

وفي 3 أكتوبر، أعلنت الحكومة شروط السلم الفرنسية الإسبانية، ولم تتضمن منح الاستقلال للريف، ولكن «تحويل القبائل الريفية والجبلية كل الاستقلال الذاتي المطابق للمعاهدات الدولية المؤلفة لنظام المغرب»، ومعنى هذا لا شيء غير «استقلال ذاتي» وهي تحت الاحتلال والاستعمار، لأن المعاهدات المعينة أفقدت المغرب استقلاله، وسيادته، ووحدته، وفرضت عليه نظاماً أجنبياً مستتراً بالأوهام والخيالات القانونية والسياسية لترسيخ وجوده، وضمان واستمراره.

وما زاد في ارتباك الاشتراكيين الدعاية الشيوعية ضد الحرب في المغرب ومن أجل الجلاء عنه، حتى إنهم شعروا بالخطر في صفوفهم، فأخذوا يحذرون أعضاء حزبهم من التأثير الشيوعي، وحتى من الحركة الوطنية التحريرية التي اتهموا رجالها بالبدائية وكراهة الأجنبي، والتعصب الديني، وبهذا حاولوا أن يظهروا المجاهدين بمظهر غير لائق بالعطف والتأييد حتى تخف عنهم وطأة الضغط الممارس عليهم من القاعدة الحزبية، ومع أن الحزب

الشيوعي كان أقلية في البرلمان (26 نائباً)، بعد انتخابات مايو 1924، فقد كان يهدد بعمله ضد الحرب في المغرب منافسه اليساري الاشتراكي الذي توفر في نفس الوقت على 101 نائب. ثم طرأت تحولات على الحزب الاشتراكي الذي كان يؤيد الحكومة منذ بدء العمليات الحربية، فانتقل من هذا إلى موقف الإمساك عن التصويت في شأنها، وانتهى به التطور إلى المعارضة كالحزب الشيوعي في 1926.

ومن عوامل التحول الاشتراكي ماواجهه الشيوعيون إلى الاشتراكيين من نقد لاذع لمواقفهم المتناقضة، ومن تشهير عنيف بمسائرتهم للحكومة في سياستها الحربية بالمغرب، فكانوا ينعنون هذه المواقف بالاستعمارية المتقلبة على نهج الـ «سوسيال-ديمقراس»، ويتهمون أصحابها بكونهم «شرطة البورجوازية»، ويسمون نوابهم في البرلمان «بحفنة الخونة الاجتماعيين» (سوسيال طريطر)، وتبادل الطرفان الاتهامات والمناوشات بالكلام القاسي حتى أخرج الاشتراكيون، فأكروهوا على تغيير موقفهم عجزاً عن الاستمرار في تفسيره وتبريره بما لم يكن تأييداً، ولا معارضة، أي «بين بين» حسب الظروف والمناسبات، وحتى لا يكون الاشتراكيون - بعد تطورهم - دون منافسيهم الشيوعيين صلابة في الموقف من قضية المغرب تولى نائبيهم «فونطاني»، في 5 يراير 1925، تحديد سياستهم في طورها الجديد، فأوضح أن الاشتراكيين لا زالوا أوفياء «جوريس» ولهذا لا يريدون أن ينقادوا إلى «مغامرة مغربية جديدة»، وعملاً بهذا فهم يعارضون

غزو الريف كما يجذبه بعض العسكريين الذين قد يعدون قليلاً النفوذ، أما المفاوضات مع ابن عبد الكريم الذي يتحتم عدم اعتباره كمغامر فأصبحت تفرض نفسها، خصوصاً وأن هذا الأخير لا يتمتع منها، وأخيراً يرجع إلى هيئة الأمم للتحكيم في المشكلة الدولية وهي جلاء إسبانيا عن الريف»، ولكن هذا الموقف نفسه كان دون الموقف الشيوعي الذي كانت تعلن عنه صحف الحزب بشعار: المغرب للمغاربة، كما أن الموقف الاشتراكي كان يقتصر على السعي للسلم، ويعارض كل جلاء عن المغرب، أما المطالبة بتحكيم هيئة الأمم في مشكلة الريف، في حالة جلاء إسبانيا، فمعناه عدم تمكين أهل الريف من حق تقرير مصيرهم دون أي تدخل دولي، ومن شأن تحكيم هيئة الأمم أن يؤدي إلى وضع وصاية أو انتداب - بناء على ميثاقها - وإسناد أمر الحجر الجديد إلى نكلترا التي لم تكن تسمح بوجود نفوذ أية دولة أخرى كفرنسا في شمال المغرب قبالة مدينتها المحصنة، جبل طارق، وعلى الشاطئ الجنوبي للمضيق الفاصل بين المغرب وإسبانيا، والرابط بين البحرين كمنفذ لأساطيل انكلترا سيدة البحار وقتئذٍ.

ولم يكن الموقف الاشتراكي مرضياً لجميع الاشتراكيين الذين وجدت فيهم أقلية هددت بتكوين «يسار اشتراكي» حول فريق جريدة «الشرارة» (إيطانسيل)، وفعلاً تكونت «لجنة العمل الاشتراكي» والثوري قبيل مؤتمر الحزب في مايو 1926، وبسبب الحملات الشيوعية والنقابية ضد الحرب في الريف تضاعفت معارضتها داخل الحزب الاشتراكي، ومما كانت تنتقده الحكومة على

الشيوعيين أنهم بدعائتهم أوهموا المغاربة بتأييد الرأي العام الفرنسي لهم، كما أن الاشتراكيين كانوا يتهمون كذلك منافسيهم بأنهم يشجعون ويحرضون الوطنيين المغاربة، وكان الاشتراكيون يعارضون الجلاء زاعمين أنه خلق صعوبات دولية أخطر من بقاء الوضع على حاله، وهو الاحتلال والاستعمار باسم الحماية والمعاهدات.

قضية الريف والدول الكبرى

1 - فرنسا:

كانت انكلترا السبب في إسناد منطقة شمال المغرب - دون طنجة - إلى نفوذ إسبانيا إبعاداً لفرنسا، وتطبيقاً لتقسيم المغرب بالرغم عن معاهدة الجزيرة الدولية 1906 التي ضمنت للمغرب استقلاله، وسيادته، ووحدته باسم السلطان، ولكن فرنسا ظلت تسلك خطة التنافس مع إسبانيا ساعية لتسرب نفوذها في الشمال بشتى الوسائل والأساليب، ومنها استعمال بعض رجال الطرق والزوايا، وفسح المجال في الجزائر للعمال الريفيين للخدمة في ضيعات المستوطنين الفرنسيين، يتراوح عدد هؤلاء العمال سنوياً بين 40 و 50 ألف، والعمل لجلب المتطوعين الريفيين إلى التجنيد في الجيش، وحاولت إسبانيا ما استطاعت مقاومة ذلك التسرب دون أن تتمكن من إيقافه.

ولما ظهر خطر الحرب الريفية على حدود المنطقتين انتهزت فرنسا هذه الفرصة لاجتياز نهر ورغة واحتلال مراكز داخل الحدود المصطنعة بين المنطقتين، الأمر الذي اعتبره قادة الريف عدواناً لا يمكن السكوت عنه، وطالما تورطت إسبانيا في حرب الريف كان

الفرنسيون في المغرب يرفضون كل تعاون مع الإسبانين لمساعدتهم وإنقاذهم من ورطة الهزائم والكوارث الحربية المتوالية وذلك عملاً بالمثل: لم أمر بها ولم تُسْتَفَى، ولكن فرنسا كانت متأكدة من أن انكلترا كانت لها دائماً بالمرصاد حتى لا تتدخل مباشرة في الريف لتضمه إلى سيطرتها طمعاً في الاستيلاء بعدما تتخلى إسبانيا نتيجة انهزامها النهائي في الحرب ضد الريف.

ومما لوحظ على السياسة الفرنسية إذاك عبثها بالمعاهدات التي كانت تؤهلها وفق هواها، وتطبيقها حسب مصلحتها، وكانت سيطرتها مقيدة بجميع الامتيازات المخولة للدول بشتى المعاهدات الدولية، ولهذا ظلت تسعى لمناهضتها، والحد من آثارها، وعرقلة تطبيقها مستغلة اسم السلطان الذي كانت تدعي أنها تعمل باتفاق معه ولمصلحته، كما كانت تستغل كونها «الدولة الحامية» للمغرب بينما لا تملك إسبانيا غير منطقة نفوذ باتفاق مع فرنسا، ولهذا فإن هذه المنطقة اعتبرت تحت نفوذ السلطان الذي أناب عنه فيها «خليفة»، كما أناب عنه «مندوباً» في طنجة وصاحبتها كمنطقة دولية.

وكان المنطق السياسي والاستعماري الفرنسي يريد أن يكون لفرنسا في المنطقة الشمالية نفس النفوذ الذي كان لها في المنطقة الدولية كدولة «الحامية» العامة على المغرب، ولكن هذا الطمع لم يتحقق بسبب معارضة إسبانيا التي كانت تعتبر أنها هي كذلك صاحبة «حماية» مثل فرنسا، وأنه لا نفوذ للسلطان على الخليفة، وفعلاً ظل الوضع هكذا في الشمال مدة الاحتلال الإسباني،

فاستقلت فرنسا وإسبانيا بالمنطقة الخاضعة لسيطرة كل واحدة منهما، إلى أن انقضى الاستعمار سنة 1956، بل شاهدنا إسبانيا تمنع بقوة وعناد في استقلال الشمال، وعودته إلى التراب الوطني كما كان الأمر قبل التدخل الأجنبي الرسمي سنة 1912، محاولة بهذا الاحتفاظ فيه بسيطرتها من وراء ستار «حكومة» محلية لفقتها وأوشكت أن تعلنها برئاسة الخليفة كملك. وبهذا أرادت إسبانيا — عبثاً — أن تفصل الشمال نهائياً لتجعل منه دويلة خاضعة لنفوذها متجاهلة ما حدث في المغرب إذاك من استقلال، ومتهافنة بإرادة السكان الشماليين، وغيرتهم الوطنية المغربية، وعزيمتهم على استرجاع الوحدة الترابية والقومية، وضاربة عرض الحائط بالمعاهدات الدولية التي ضمنت هذه الوحدة، في نطاق السيادة والاستقلال باسم السلطان.

وبالرغم عن تقسيم البلاد إلى مناطق نفوذ مختلفة، ولا غرابة فيما حاولته إسبانيا في عهد الديكتاتورية التي سبق لها أن ضمت إليها أجزاء مغربية في الجنوب، وكذلك ما يسمى بالصحراء الغربية التي أصبحت تلقن «بالصحراء الإسبانية» إلى أن حالت فيها أدلة الاحتلال سنة 1976 بفضل المسيرة الخضراء.

2 — انكلترا:

من المعلوم أن انكلترا تدخلت لوقف العدوان الفرنسي على المغرب في معركة إيسلي سنة 1844، ولولاه لتابعت الجيوش الفرنسية تقدمها في التراب المغربي طمعاً في احتلاله، وفرض سيطرتها الاستعمارية عليه كما كان الأمر في الجزائر، ولكن انكلترا كانت

تعارض هذا بكل قواها حتى لا يمتد النفوذ الفرنسي إلى المغرب الواقع جغرافياً واستراتيجياً في غرب البحر الأبيض المتوسط حيث تملك انكلترا جبل طارق الحارس للمضيق وللمطريق البحري الذي تمر منه البواخر الانكليزية نحو الشرق الأقصى والذي كان يُعرف «بطريق الهند».

ووقفت انكلترا نفس الموقف إبان الأزمة المغربية الأوروبية التي تعرض فيها المغرب للمطامع الأجنبية الاستعمارية، واستهدف إذاك للتقسيم إلى مناطق نفوذ بين الدول، وتحلى هذا الموقف في إقصاء فرنسا عن بسط نفوذها وسيطرتها على شمال المغرب، وكانت إسبانيا أهون في نظر الانكليز من فرنسا، ولهذا فضلوا عليها إسبانيا فأعانوها على حيازة الشمال كمنطقة نفوذ لهم عندما يحين وقت التقسيم المتفق عليه سراً بين دول الاستعمار. وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى أصبح النفوذ الانكليزي في غرب البحر الأبيض المتوسط سائداً، فاصطدم حتماً بأطماع السياسة الفرنسية التي كانت تنازع في الزعامة الانكليزية الحريضة أشد الحرص على ترسيخ وجودها ضد كل منافس للاحتفاظ بالحرية المطلقة في علائها البحرية باعتبارها سيادة البحار، وصاحبة امبراطورية عالمية لا تغيب عنها الشمس. وكانت سياسة انكلترا تركز على ثلاثة أسس، هي: توازن وضع الدول في البحر، ومراقبة هذا البحر من الانكليز، وضمان الأمن في مضيق جبل طارق.

وقد تحكمت هذه المبادئ السياسية في الموقف الانكليزي أثناء الحرب في الريف، وورد في وثيقة انكليزية حول هذا: «لسنا

مستعدين لرؤية شاطئ المغرب على البحر الأبيض المتوسط وبالأخص الضفة الجنوبية لمضيق جبل طارق، بين أيدي دولة من الصف الأول... فإذا أدت الانتصارات الريفية إلى طرد الإسبانيين من المنطقة الريفية بالمغرب فإنه ينتج عن هذا وضع مرتبك، كما أننا لسنا مستعدين لمراقبة شاطئ الريف بأنفسنا، وأخيراً لسنا مستعدين لرؤية الفرنسيين أو الإيطاليين متركزين بين سبتة ومليلية.

وبهذا تتضح حقيقة الدبلوماسية الانكليزية في غرب البحر الأبيض المتوسط، ولكن الأطماع الفرنسية كانت مستمرة بالنسبة لشمالالمغرب حتى إن فرنسا استغلت مؤتمر الصلح في 1919 فألغت امتيازات ألمانيا في فصول من معاهدة فرساي، الأمر الذي عزز مركزها في المغرب، كما أن «كليمانصو» أبدى رسمياً رغبة الحكومة الفرنسية في إلغاء فصول عقد الجزيرة الخضراء 1906 ليزداد نفوذ فرنسا قوة ورسوخاً في المغرب، بل إن ناطقاً آخر باسم فرنسا في المؤتمر ندد بموقف إسبانيا أثناء الحرب، فطالب بضم طنجة، وبانسحاب إسبانيا جزئياً أو كلياً من شمال المغرب، وهنا ثارت نائرة انكلترا وإسبانيا معاً، وقد ظلت فرنسا تتمنع من كل اتفاق دولي حول طنجة طمعاً في الاستيلاء عليها لتجعل منها مدينة محصنة، وميناء حريباً ينافس جبل طارق، ويحطم التفوق الانكليزي في البحر الأبيض المتوسط، فأدى هذا في 1923 و 1924 إلى تقارب أقوى بين انكلترا، وإسبانيا، وإيطاليا في شكل عصبة بالنسبة لهذا البحر من أجل معارضة المطامع الفرنسية، وتطورت الأوضاع بعد ذلك بمناسبة الهجوم اليفي (1924 و 1925) في اتجاه الجنوب

الشمال، ثم هدأت الأحوال بين تلك الدول بما فيها فرنسا بعد أن سويت مسائل خلافية بينها في أوروبا (الروهر) وفي طنجة، ولكن التهدة الدبلوماسية لم تدم طويلاً بسبب انبعاث التوتر في 1926 بمنطقة البحر الأبيض المتوسط.

ويلاحظ، بوجه عام، أن انكلترا تظاهرت، أثناء حرب الريف، بالحياد الذي لا يخلو من حيطة وحذر، ومن تبصر واحتراس، وباسم الحياد امتنعت من أن تراقب بواخرها البحر خارج المياه الإقليمية لجبل طارق. ومن المعلوم أن انكلترا مارست الضغط بقضية الريف على فرنسا في مسألة التعويضات الحربية، وقضية طنجة سنة 1923، ومشكلة مقاطعة الروهر في أوروبا.

وقد اقتضت المصلحة المشتركة بين الريف وانكلترا أن أعطت حكومة لندرة للقادة الريفيين الوعد بعدم السماح لفرنسا باحتلال الشمال، فدعا هذا المسؤولين الفرنسيين في الرباط إلى توجيه تقارير سرية للحكومة الفرنسية حول الأطماع المحتملة للانكليز في الريف، وفي تقرير وردت هذه العبارة: «هل نخشى أن نرى انكلترا تضع قدمها ذات يوم في الريف، وتحاول إحلال حمايتها محل إسبانيا المنسحبة؟ من الراجح أن هذه الفكرة قد أغرت عقل عدد من رجال الدولة الانكليز»، وبالرغم من الحياد الذي كانت تبديه انكلترا فقد كان بعض الانكليز متصلين شخصياً بقيادة الريف الذين كانوا يستخدمونهم في الاتصال بالخارج، وترويج الدعاية لقضية الريف التحريرية، والوساطة لمحاولة إقرار السلم على أساس مطالب الريف الوطنية، وأشهرهم «كودون كانيغ» الذي انتدب

لباريس وغيرها لسيط وجهة نظر حكومة الريف من أجل صلح شريف، كما أنه تأسس في لندرة «ريف كوميطي» أي لجنة الريف التي كانت تنشط بتعاون مع لجنة أميركية غير رسمية من أجل قضية الريف في الخارج، وكانت كذلك للريف وكالة رسمية (ذوريف ديليكيش) تتولى النطق باسم قادة الثورة، وتوجه خطاباتهم إلى الجهات الرسمية الأوروبية، وهيئة الأمم بجنيف، وكان المكلف بها انكليزي هو «جوهن ارنول» بصفته وزيراً مفوضاً لحكومة اجدير، وكان عدد من الصحفيين الانكليز يتوافدون على الريف، وينشرون تصريحات قادته المجاهدين، وأخبار حركة الجهاد في سبيل التحرير، ولا شك أن أغلب الانكليز الذين كانوا في خدمة الثورة الريفية ليسوا بمأجورين ولا بمجرد عاطفين، بل كانوا ينتمون إلى منظمات سرية انكليزية تعمل في الخفاء لصالح بلادهم، وزاولوا نشاطهم دون أن يتجاهروا بانتمائهم لأية منظمة خفية، بل باعتبارهم «أصدقاء» أوفياء للريف، وقادته، وقضيته الوطنية.

ومما لا شك فيه أن مدينة جبل طارق استعملت من قيادة الريف كمركز للاتصال بالخارج بواسطة طنجة حيث كان يوجد تمثيل خفي للثورة يتولاه رجال ثقة من المغاربة، ومما ساعد على ذلك الاتصال وجود بريد انكليزي في طنجة متصل مباشرة بجبل طارق.

ومن المعروف أن الأمير ابن عبد الكريم كان يستعمل في بريده شيخاً ريفياً كان دائم التردد بين اجدير وطنجة مدة حرب الريف، وكان يسميه «بمدفعي المفضل»، وهكذا نرى أن عدداً من

الانكليز لعبوا بصفة شخصية أدواراً مهمة أثناء الثورة، وأدوا لها خدمات لا يستهان بها، ولم يفعلوا هذا طبعاً بمجرد العطف والصداقة، بل كانت لهم مصالح، وبواعث سياسية، ولا شك أن قادة الريف كانوا أدرى بهذا، فاستخدموا أولئك الأجانب الأكفاء بما عهد فيهم من ذكاء، وفطنة، وتبصر، وخصوصاً وأنهم وجدوا فيهم أطراً سياسية صالحة، كما أنهم كانوا مطمئنين إلى نوايا انكلترا تجاه الريف، وذلك بصفقتها الدولة التي تقف سداً منيعاً في وجه فرنسا حتى لا تتسرب إلى الريف في حالة انسحاب إسبانيا المهزومة منه، وقد لا يبعد أن قادة الريف كانوا يفكرون في التعاون، وربما في التحالف مع انكلترا لحماية الريف من العدوان الفرنسي فيما إذا تحقق الانسحاب النهائي للإسباني، ومن المعلوم أن قيادة الريف حاولت الفوز من انكلترا بالاعتراف بهذا الاستقلال غداة الهزائم العسكرية الإسبانية، ولكن الظروف لم تسمح بهذا، فاقتصرت القادة الريفيون على ما حصلوا عليه من تطمينات و ضمانات ضد المطامع التوسعية بشمال المغرب في المستقبل.

3 — الولايات المتحدة الأميركية:

لم يكن الرأي العام الأميركي يجهل أخبار الثورة الريفية بعدما خرجت الولايات المتحدة من عزلتها وصمتها، ودخلت الحرب مع الحلفاء ضد المانيا.

وفي نفس الوقت أعلن الرئيس الأميركي «ويلنسون» مبادئه الأربعة عشر لتحديد أهداف الحرب، ونظام العالم الجديد بعدها،

وقد تأثرت الشعوب المستعمرة بهذه المبادئ التي ظنتها صالحة لأن تتدرع بها لنيل حقوقها الضائعة، وتقرير مصيرها على أساس الحرية والسيادة. وبقيام هيئة الأمم في جنيف، تطبيقاً لتلك المبادئ، اتجهت الشعوب المستضعفة بأمانها ومطالبها نحو المنظمة الدولية من أجل إنصافها من الدول المسيطرة، وكان قادة الريف من ضمن رجال التحرير في العالم الذين توافدوا على الهيئة الأهمية للمطالبة بمساعدتها على الظفر بالسلم والحقوق المغتصبة من الإسبان، وتقاطرت كذلك عليها نداءاتهم استنجاداً واستنصاراً، وكان كل هذا بدافع الأخذ بالمبادئ الويلسونية، وبما نشرته إذاك في عالم الشعوب المضطهدة من روح الإنسانية، والعدالة والاخوة البشرية.

وكان الاعتماد بالأخص في تحقيق الآمال، ونيل الأمان على مساعدة الولايات المتحدة ورئيسها ويلسون، ولكن سرعان ما انهارت الآمال، وتقهقرت الأمان، لأن الأميركيين لم يحركوا ساكناً، ولم يهتموا بإحقاق حق، وإبطال باطل. وفي الريف لم يكن قادته ليغفلوا عن هذا الواقع المؤلم، بل كانوا يواصلون الحرب على أشدها، ويحققون الانتصارات تلو الأخرى لانتزاع الحق، وطرد الغاصب، وإجلاء المحتل، وفي نفس الوقت كانت دبلوماسيتهم تعمل عملها، ودعايتهم في الخارج تسير سيرها.

وكان الرأي العام العالمي، وبالأخص الأميركي، يتبع حرب الريف وتطوراتها بواسطة الصحافة التي كانت توفد مراسليها لتزويدها بالأخبار، وتعريفها بمواقف قادة الثورة. وفي أكتوبر 1924 وفد على الريف مراسلون لأهم الصحف الأميركية، فنقلوا إلى

الرأي العام الأميركي خاصة أبناء الريف، وتصريحات قادة الجهاد فيه، وهكذا كانت قضية الريف معروفة لدى الأميركيين عامة، بل أصبح بعض هؤلاء الصحفيين من أشد أنصار هذه القضية إعجاباً برجالها، واقتناعاً بصوابها وباستحقاقها لكل اهتمام وإنصاف.

وإذا كانت قضية الريف قد تمتعت بعطف شطر كبير من الرأي العام الأميركي، فإن بعض الأميركيين من الطيارين التحقوا بالجيش الفرنسي ليحاربوا الريف، وكونوا لهذا سرباً كاملاً أطلقوا عليه إسم «لافيط» الجنرال الفرنسي الذي حارب قديماً في صف الثورة الأميركية على الإنكليز بأميركا الشمالية، وكان على رأس السرب ضابط برتبة كولونيل واسمه «سويني»، وسبق له أن تجند في الليف الأجنبي.

وقد حارب الطيارون الأميركيون في الريف بوحشية بلغت أقصى الفظاعة، فكانوا يقبلون بهمجية نادرة القرى، والمدامر، والأسواق، والمزارع، والمواشي لنشر الدمار، والخراب، والشقاء، والإرهاب، وقد سجل عليهم التاريخ ما تلطخوا به ولطخوا به كذلك سمعة بلادهم من وصمة وعار، ومن فضيحة وشار، كما ثارت الصحافة العالمية على جرماتهم الشنعاء، وفضحت ما ارتكبهوا من فظائع كأنهم وحوش ضارية كالتى تعيش في الغاب، وكانت ثورة الصحف الأميركية لا تقل عن غيرها، إن لم تكن أشد منها، وكان أولئك الطيارون من شجعان الحرب العالمية الأولى، ولهذا وجدت فيهم القيادة الفرنسية ضالتها المشودة، فعوضت هؤلاء المرتزقة نقصها في الأطر المجربة في التدمير، والتخريب، والتقتيل،

وقد أفادوا الجيش الفرنسي ضد الريف بما أطلق لسان الماريشال بيتان بالإعجاب والتنويه، ونشرت جريدة «الطان» (الزمان) الفرنسية الكبرى بتاريخ 14 نوفمبر 1925، نص التنويه العسكري الذي سجل أن الطيارين الأميركيين قاموا خلال ثلاثة أسابيع بـ 350 عملية حربية استعملوا فيها 40 طناً من القنابل، فليشهد التاريخ!

وأمام هذه العمليات الوحشية هاج الرأي العام، خصوصاً في عالم الإسلام الذي تكاثرت فيه الاحتجاجات على الأميركيين السفاحين، وفي القاهرة قدمت العرائض الاستنكارية إلى المفوضية الأميركية، أما في الولايات المتحدة فقامت كذلك ثورة الرأي العام المناصر للريف، ومن أكبر المناوئين، لحركة الطيارين عضو مجلس الشيوخ «فياط اندرو» الذي وجه خطاباً إلى وزارة الخارجية يتهم فيه الحكومة بتشجيع أعمالهم المنكرة.

وتحت ضغط الرأي العام الساخط المحتج تحركت الحكومة الأميركية آخرّاً ساعة لإقناع الطيارين باختيار العودة إلى بلادهم تلافياً لتدابير الزجر والعقاب، لأن القانون الأميركي يسحب الجنسية لكل مواطن ملتحق بجيش أجنبي، ولم تطبق الحكومة - طبعاً - القانون على أولئك المخالفين، كما سعت واشنطنون لدى الحكومة الفرنسية لحل السرب الأميركي في نوفمبر 1925 ولاحظ المهتمون بهذه المسألة أن الرأي العام الأميركي المتعاطف مع الريف لم يرق لصالحه بدور إيجابي فضلاً عن أن يكون حاسماً، ومثله كان كذلك دور الرأي العام الدولي، كما لاحظوا أنه لم تؤسس في أميركا

الشمالية أية هيئة لمساعدة الريف، وهذا صحيح. ولكن هيئة الريف بلندرة كانت تنشط بتعاون مع فريق أميركي لم يتخذ له اسماً يعرف به، ولاحظوا أخيراً أنه لم يوجد أي دليل على أن الحكومة الأميركية اتخذت موقفاً في صالح أي طرف محارب، وأن معارضتها للحصار البحري، وسعيها لإرجاع الطيارين الأميركيين كانا احتراماً للحياة بين المتحاربين.

والحقيقة أن حيادها لم يكن سليماً من الطعن بدليل سكوتها عن الطيارين مدة ثلاثة أسابيع، وعدم تحركها إلا تحت ضغط ثورة الرأي العام في العالم، وعدم اتخاذها لموقف صارم ملهم بتطبيق القانون عليهم بدل الموقف اللين المتخذ في شأنهم. ونلاحظ من جهتنا أن مشكلة الطيارين الأميركيين لم تقف حجر عثرة في سبيل مواصلة القادة الريفيين لمساعدتهم الهادفة للتأثير على الرأي العام الأميركي، ذلك أنهم اعتبروا هؤلاء مجرد مرتزقة في جيش العدو لا يؤاخذ عليهم الرأي العام في بلادهم، وربما حتى الحكومة بالرغم عن تغاضبها عنهم إلى أن اضطرت، تحت ضغط الاحتجاجات في الداخل والخارج، إلى العمل لانسحابهم من خدمة الجيش الفرنسي المحارب لأهل الريف مجاهدين ومدنيين من الشيوخ، والنساء، والأطفال، في حرب الإبادة بواسطة الطيران.

ولذلك كان قادة الريف لا يتركون فرصة دون انتهازها لمخاطبة الرأي العام الأميركي على لسان الصحف السيارة، وهكذا وجه الأمير ابن عبد الكريم، بواسطة الصحفي «بول سكوط موفير»، مراسل «شيكاغو دايلي نيوز»، خطاباً إلى الشعب

الأميركي هذا تعرييه: «أحييك؛ أيها الشعب الفاضل، باسم الشعب الريفي الفتى الذي مافئء يتألم من ويلات الحرب في سبيل الحرية، إن الشعب الريفي يؤمل الحصول في يوم ما على وضع شبيه بوضعكم الذي نلتموه بجهودكم وبالتضحيات الضرورية لمطامحكم في وقت كنتم فيه — مثل أهل الريف — في عنقوان النمو والترعرع، إن شعبي الملهم بمبدئكم السليم يعارك منذ أربع سنوات للفوز باستقلاله، وهو مستعد لعمل كل ما في الإمكان من التضحيات، فكل من صمم على السير في الطريق الذي رسمه لنفسه متأكد من الوصول إلى غايته، أيها الشعب الأمريكي، إني أنتهز الفرصة السانحة لي باستقبال أحد صحفيكم — وقد كان لي رمزاً لعزة نفسك، وعلو همتك، وكذلك شعاراً لكرامتك ونبلك — لأبعث إليك بتحياتي الخالصة».

ومع هذا كله خاب أمل الريف — كما خابت آمال الشعوب المضطهدة — في حكومة الولايات المتحدة التي تناست المثل العليا التي أعلنتها رئيسها ويلسون للعالم، وتجاهلت نداءات الحرية من الأمم المحرومة. ولو كان للولايات المتحدة أن تنصف إذاك ضحايا الاستعمار في العالم لبدأت بإنصاف الأمم التي تسيطر عليها في المحيطين الأطلسي والهادي.

الفصل الثامن والعشرون

لماذا توقفت حرب الريف؟

لقد حققت حرب الريف من الانتصارات الباهرة على جيوش اسبانيا ما اعتبر من الخوارق والمعجزات، وبعدما توالى المجازر والكوارث على هذه الجيوش الجرارة اضطر الجنرال «بريمودي ريفيرا» إلى إعلان عجز اسبانيا عن الاستمرار في حرب أفنت قوات وطاقات بلاده بما لا مزيد عليه، فقرر الانسحاب من الريف إلى مليلية ذاكراً أن اسبانيا لم تستفد من وجودها هناك شيئاً غير الأكدار والأحزان، والمشاكل والصعاب، وشرع في سحب بقايا الجيوش المنهزمة وفق خطة مرسومة، وأوشك الريف وقتئذ أن يحقق مطمحاً في الحرية والاستقلال.

ولكن فرنسا لم تنظر إلى كل ما جرى بعين الاطمئنان والارتياح، لأنها خشيت أن تتعرض لنفس المصير في المغرب الذي كانت المقاومة المسلحة مستمرة فيه على أشدها في كثير من الجهات جبالها وسهولها، والذي تكبدت فيه جيوش الاحتلال شر الهزائم حتى أصبحت تازة وفاس مهددين باستيلاء المجاهدين عليهما. وفي هذه الفترة واجه الريف قوات محاربة فاقت بكثير القوات الاسبانية.

وأمام تقهقر الجيوش الفرنسية نشأت فكرة التعاون الحربي مع اسبانيا، وتمت المؤامرة بين الطرفين نتيجة زيارة الماريشال بيتان لمدريد، وإبرام الاتفاق العسكري بين الدولتين ضد ثورة الريف، وتمكنت فرنسا من حشد قوة محاربة قدرت بنحو المليون، شارك فيها كذلك أربعمائة ألف من رجال القبائل المغربية، وقادت الدولتان حربهما ضد الريف بما فاق أشد المعارك في الحرب العالمية الأولى التي استفاد منها المحاربون مدة سنوات ما طبقوه وجربوه في الريف من حيث الفنون الحربية، والأسلحة الفتاكة. وحاربت قوات المجاهدين وهي مطوقة، براً وبحراً، ومعرضة لفتك الطيران الذي سلط كذلك عشرات الاطنان من قنابله على السكان المدنيين في المداشر، والقرى والأسواق؛ كما أهلك الحرث والنسل في أرض الريف التي اعتبرها كلها ميداناً للحرب الإبادة الدائرة بوحشية متناهية، ومع هذا صمدت قوات المجاهدين الريفيين، وحاربت بضراوة وبطولة جيوش الدولتين زمناً غير قصير، وذلك في أعسر وأحرج الظروف، وبأعداد وأسلحة غير متكافئة مع الأعداء. وقد توقف القتال آخر الأمر لتعذر مواصلته بما يضمن نصر المجاهدين على عدو متفوق في العدد والعدة، ومتوغل في قلب الريف من كل جهة.

ذلك هو السبب الأساسي والحاسم في إنهاء الحرب الريفية بقيادة الأمير البطل ابن عبد الكريم، ولكن المجاهدين واصلوا من بعده المعركة ضد الاسبان بقيادة صفوة من الرجال الأبطال.

ولو شئنا أن نبحث غير ذلك من الأسباب لوجدنا أنها راجعة إلى حقيقة الوضع في الريف، وإلى الظروف العسيرة التي اجتازتها حرب التحرير فيه، فكان كل هذا خارجاً عن إرادة المجاهدين وقادتهم الذين حققوا - بالرغم عن كل ذلك - ما قل نظيره في تاريخ البشرية على الإطلاق قديماً وحديثاً.

ولقد سئل الأمير ابن عبد الكريم من صحفي أوروبي عن سبب توقيفه للقتال فأجاب: «مما تسبب في هزيمتي التعصب الديني... وأعترف بأنني استعملت كذلك من جهتي الشعور الديني في بعض الأوقات، أي لما استولى الأسباب على أجدير، ولكن الإسلام الحق بعيد عن التعصب، ويمكنني أن أؤكد - حسب ما أعلم - أنه لا علاقة له بما يسير عليه الجزائريون والمغاربة». وبعد أن انتقد بشدة الطريقة التي يعتبرها شركاً ووثنية أضاف: «أن الطريقين لم يساهموا في الجهاد لأنهم كانوا يقولون إن الكفاح في سبيل الوطن أمر لا يهمهم، حيث إن مهمتهم تنحصر في الدفاع عن الإيمان، وقد عملت كل شيء لتطهير الوطن من نفوذهم الذي هو عرقلة كبرى في سبيل الحرية والاستقلال».

وكان موقف الأمير ابن عبد الكريم من الطريقة هو موقف الحركة السلفية الإصلاحية في المشرق والمغرب، ومما دفع به إلى مقاومة أصحاب الطرق موقفهم الموالي في الريف خاصة لسلطات الاستعمار الذي هادنوه وصانعوه، بل أعانوه على المجاهدين في سبيل الله والوطن، فكانوا بهذا خصوم الثورة التحريرية، وأولياء أعداء الله والبلاد. فلو كانوا مؤمنين حقاً - لا أصحاب مصالح -

لأنضموا إلى المجاهدين لمحاربة الغزاة الأجانب باسم الحرب الصليبية في أرض الإسلام. وحتى إن لم يخض الطرقيون المعارك مع الأعداء الأجانب فإنهم كانوا يمثلون في القبائل دعاة الانهزامية لفائدة المستعمرين، بل إن بعض مشايخهم كانوا ينزعون البنادق من مؤيديهم، ويقلدونها بدلا السبحات ملزمين إياهم بالالتجاء إلى الزوايا لتلاوة الأذكار.

وأفزع من هذا رأينا اتباع عبد الرحمان الدرقاوي في زاوية أجموط ببني زروال يستقبلون بالرصااص المجاهدين الريفيين وقتها وصلوا زائرين في مهمة سلمية لصالح القبيلة وحركة الجهاد، ورأينا الدرقاوي نفسه يفر من المجاهدين ويلتجئ لفاس تحت حماية الأعداء، وهذا قليل من كثير، فكيف لا يقف الأمير ابن عبد الكريم من أولئك المناوئين الموقف الذي فرضه الواجب والجهاد فضلاً عن الدين والإصلاح؟

وتابع الأمير ابن عبد الكريم حديثه بقوله: «لقد أعجبت بالسياسة المتبعة في تركيا، فإن البلاد الإسلامية لا يمكنها أن تصبح مستقلة دون أن تتحرر، سلفاً، من التعصب الديني، وتسير على أثر الشعوب الأوروبية، ولكن أهل الريف لم يفهموني، وعارضني المشايخ حينما رأوني مرة مرتدياً بذلة ضابط، فكل بلاد يحتفظ فيها هؤلاء المشايخ بنفوذ كبير لا يمكنها أن تتقدم إلا ببطء ما لم تلجأ إلى القوة والعنف، ويجب علي أن أصرح بكل وضوح وتدقيق أنني لم أجد في الريف أي تشجيع على مشروعات الإصلاحية، ولم تفهمني إلا جماعات صغرى بفاس والجزائر، فأيدتني لأنها كانت

مطلعة على ما يجري في الخارج. وبكلمة واحدة، لقد جئت قبل إبانى، ولكني مقتنع بأن آمالي ستتحقق عاجلاً أو آجلاً، بطبيعة الأشياء، وتطور الأحداث».

وقد ذهب الأمير ابن عبد الكريم - في تفسيره لأسباب الهزيمة الحربية - إلى عمق الأشياء، فكان صريحاً مع نفسه ومع قومه، كما كان واضحاً مع الحقيقة والتاريخ، وبهذا كله حدد المسؤوليات حتى لا تبقى قيادة الثورة، وقوات الجهاد وحدها متحملة للمسؤولية في أعين الأجيال، بل إن هذه المسؤولية ترجع إلى جميع أهل الريف الذين لم يفهموا ما أراده القائد والصفوة المجاهدة التي شدت أزره، وقادت معه، ببسالة نادرة، وبطولة خارقة، معركة التحرير طوال سنين عديدة سائرة من نصر إلى نصر، ومضحية بكل رخيص وغال.

وإن ما حز في نفوس أولئك القادة الميامين هو عدم التجاوب من سكان الريف مع أهداف الثورة الوطنية التي لم تكن تحريرية للأرض من الاحتلال فحسب، بل كانت كذلك تحريرية - في نفس الوقت - للعقول المتخلفة فكرياً وروحياً ومادياً، بالنسبة لعصرها، ولما كان يفرضه عليها من تطور وتقدم لتصبح أجدر بالطموح إلى أسمى الأماني، وأقصى الغايات في حياة العزة والحرية.

وهذه كانت إحدى المهام العظمى لثورة التحرير في الريف، وهي مهمة التجديد والإصلاح، والتطهير والتصحيح للمجتمع الريفي الذي كان - وهو في غمرة الجهاد مضحياً بالأرواح - في

أمس الحاجة إلى التضحية قبل كل شيء بعقلية التخلف، وبمزاجية التقليد (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ)، وإذا كان الأمير ابن عبد الكريم قد حقق كثيراً من الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية لصالح المجتمع المحلي فإنه لم يتمكن بكل أسف من تنفيذ كل ما تضمنه برنامجه من مشروعات إصلاحية جذرية تجدد حياة الأسرة والمجتمع، وتوفر لسكان الريف ما كانوا مفتقرين إليه للارتقاء إلى المستوى اللائق بعهد الحرية والاستقلال.

أما استمرار الحياة البدائية فكانت تعرقل حركة الإصلاح، وتخدم دعاية الاستعمار التي كانت تروج أن أهل الريف قوم متأخرون وهمج، فهم محتاجون إلى من يصلحهم «ويمدّهم»، وهذه في زعمها، مهمة «الحماية» الأسبانية. ورداً على هذا حاولت الثورة أن تضطلع برسالة الإصلاح في نفس الوقت الذي كانت تحوض فيه غمار الحرب لتحرير التراب، وكان هذا الإصلاح ضرورياً لإخراج الحياة الريفية من البداوة إلى الحضارة، ولإيجاد الأنظمة الملائمة لما بعد حرب التحرير، وبهذا تنهياً البلاد لمفارقة العزلة والانطواء، وتستعد للانفتاح على العالم المتحضر، وبغير هذا لم يكن لأهل الريف أن يضمّنوا مكاسب حركة الجهاد في سبيل الحرية والاستقلال.

ولهذا تحتم عليهم أن يدركوا ويحققوا - في أنفسهم وفي أراضهم - أهداف الثورة التي لم تكن حربية فقط، بل كانت كذلك إصلاحية، وتنظيمية، وتجديدية، وتمديدية في نفس الوقت، وبهذه الصفة لم تقتصر، في أذهان ومخططات القادة الريفيين، على

محاربة التدخل الأجنبي، وطرد العدو المحتل، بل كانت أيضاً ثورة على كل أنواع الانحراف والفساد، وحرماً على الطابع البدائي والتقليدي الذي كان يسود المجتمع الريفي والذي أصبح يتنافى مع حياة العصر الجديد، ولهذا كان قادة الثورة يتطلعون إلى الاقتداء بما هو صالح، ونافع، وملائم في حضارة أوروبا لاقتباسه، وتزويد أهل الريف بما يخلق فيهم روحاً جديدة لا غنى لهم عنها ليعيشوا في مستوى أرفع وأفضل.

وإذا كان الأمير ابن عبد الكريم معجباً بتركيا الجديدة على عهد الغازي مصطفى كمال فليس معناه أنه كان متفقاً مع جميع منجزات السياسة «الكمالية» وإنما كان يريد أن يتخذ تركيا قدوة فيما هو سليم ومجد للسير بأهل الريف إلى الأمام في سائر ميادين الحياة، وهذا، بكل أسف، ما لم يدركه عامة الريفيين الذين اعتبروا الثورة مجرد جهاد لتحرير الأرض من الأجنبي، وليس كذلك مجهوداً جباراً لتحرير المجتمع من رواسب الماضي في التخلف والانحطاط. وهو ما عده الأمير آفة الريف الكبرى، وسبباً من أسباب الهزيمة الحربية، فلو ساعده أهل الريف على إنجاز برنامج الإصلاحات والتنظيمات لتحقيق التحول المنشود. ولم تسمح له ضرورات الحرب باستعمال الوسائل الفعالة لفرض سائر الإصلاحات كما فرض، في المجال الحربي، كل ما رأى فيه المصلحة من التقنيات العسكرية الحديثة. ولا شك أنه اضطر إلى التريث بالإصلاحات الجذرية غير التي أمكنه إدخالها فوراً على الأسرة والمجتمع منتظراً النصر النهائي على العدو لتطبيق المشروعات المرجأة.

وبالإضافة إلى ما لقيه الأمير ابن عبد الكريم مما سماه «بعدم تفهم» أهل الريف للحركة الإصلاحية، تجدر الإشارة إلى أنه تعرض كذلك «لعدم تفهم» بعض علماء الإصلاح السلفي في المشرق، فإذا أيدوه في الحرب على الطرق الضالة، وعلى الخرافات والتقاليد الفاسدة، فإنهم عارضوه في اتجاهاته التجديدية، وميوله إلى اقتباس ما هو صالح وسليم في الحضارة العصرية. وقد تكفلت مجلة «المنار» المصرية لصاحبها محمد رشيد رضا بالتعبير عن اتجاه وموقف من كانت تنطق باسمهم، فعلقت على تصريحات قائد الثورة الريفية، في 5 نوفمبر 1926، بما برهن على سوء الفهم لنظريات الأمير ابن عبد الكريم، في مجال الإصلاح، وهذا جهل من معلق المجلة بأوضاع الريف، وبحقائق الثورة وأهدافها السياسية والاجتماعية الرامية إلى تطوير المجتمع المحلي ليصبح متحضراً وراقياً بالشكل المرغوب فيه من قادة التحرير، وبالصفة الملائمة لمصلحة الشعب في شمال المغرب⁽¹⁾.

(1) راجع مجلة المنار - لهذا التاريخ - وكتاب عبد الكريم وجمهورية الريف،

الاتصال بين ثورة الريف والنخبة الواعية في المغرب

لقد كان الأمير ابن عبد الكريم يفكر في تحرير شمال المغرب كله حتى الجهة الكائنة جنوب أنهار ملوية، وورغة، وسبو، بما فيها من مدن كوازن، وتازة، وفاس التي ربما كان يتمنى اتخاذها عاصمة المنطقة المحررة، وما لاشك فيه أن فاساً كانت تجتذبه عاطفياً، ومعنوياً، وروحياً، وسياسياً، فقد مكث فيها عدة سنوات كطالب علم، فعرفها حق المعرفة، وربط الصلة بكثير من علمائها وأعيانها بما فيهم كبار موظفي الدولة أي «المخزن». وكان يعلم وهو قائد الثورة أن امتلاك فاس كسب معنوي عظيم في الداخل والخارج. وتمهيداً لهذا عمل أثناء الثورة لإحياء صلاته فيها، فكان يبعث الرسائل السرية إلى ذوي الثقة فيها، ويوجه دعائه السريين ليثوا بين أهلها أخبار الثورة، ويعملوا لكسب الأنصار، بل ربما كانت لقادة الثورة فيها خلايا تخدم قضية التحرير. وقد تنبه الفرنسيين إلى شيء من هذا، فتوجسوا منه خيفة، واتخذوا الاحتياطات الملائمة، واستدعوا عدداً من الشبان المشبوهين في نظرهم، ليستنطقوهم مستعملين معهم كل وسائل الضغط والترهيب للحصول على اعترافات تدلهم على مكان الدعوة الثورية الريفية، فكانوا لا يظفرون بأية معلومات.

وممن كانوا متهمين، في نظر الإدارة الفرنسية، أعضاء جمعية قدماء تلاميذ المدرسة الثانوية الأدريسية، وللكومندان «شاستاني» أدوار قام بها في هذا المجال دون جدوى. وإن ما كان يقلق الفرنسيين عثورهم على مناشير ملصقة بجدران المدينة، وأخرى كانت توزع في الدور والدكاكين، من غير أن يعرفوا أصحابها، كما كانت تصلهم أخبار المراسلات السرية الواردة من الريف بطرق غير معروفة لديهم. وكل هذا كان شغلهم الشاغل، لأنه كان ينشر دعوة الثورة بين سكان فاس دون أن يتمكنوا من الكشف عن أصحابها، ومن إيقاف سيلها. وكان نفس الأمر في غيرها من المدن، والقرى، والقبائل، ولم يكن الأمير ابن عبد الكريم يخفي أهدافه التحريرية التي كانت تخدمها دعوته بواسطة شبكات السرية، وبشئ الوسائل المجدية، ومن المعلوم أنه كان يملك مركزاً للمخابرات بطنجة، وفي الدار البيضاء كان له كذلك مركز يتولى نشر الدعوة الثورية، وقد افتضح أمره في 1924 فاعتقل عدد من المسؤولين عنه، واستولي على مافيه من أدوات ووسائل النشر والدعاية، ولم يكن هذا إلا ليزيد الفرنسيين قلقاً وخوفاً، واهتماماً بالبحث والاستطلاع.

وأثناء الحرب مع الفرنسيين كانت الصحف الفرنسية، في المغرب وفرنسا، طافحة بأخبارها ووقائعها، وانتصارات المجاهدين فيها على الأعداء، فكان الشباب المغربي يتبع حقائق الثورة وتطوراتها في تلك الصحف التي كان لها مراسلون حريون يقيمون في فاس، القاعدة العسكرية الكبرى بالنسبة للفرنسيين زمن حرب الريف.

وممن تأثروا بالدعوة الريفية الوطني المجاهد عبد القادر التازي الذي التحق بالأمير ابن عبد الكريم رفقة أخوين له أحمد والحسن، فكان يتجول في القبائل لنشر الدعوة، وتحذير أهل الريف من الوقوع تحت السيطرة الفرنسية التي كان يفضحها بينهم عن خبرة ودراية بصفته من أسرة كبيرة، ومن النخبة الواعية المعارضة والمتطلعة إلى ساعة الخلاص من النير الأجنبي .

وأما المصادر الرسمية الفرنسية فذكرت أن عبد القادر التازي ألف مع بعض أبناء الأعيان بفاس «وفد المغرب المضطهد» لدى الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، وهذا ما أثار المخاوف في نفوس الفرنسيين حتى أن هيئة أركان الحرب للجيش الفرنسي في المغرب بعثت في الموضوع، بواسطة «المكتب الثاني» المكلف بالمخابرات والاستعلامات، إلى الجهات المسؤولة في باريس برقية رقم 5429 بتاريخ 20 شتنبر 1925 تبدي فيها ملاحظاتها وتحذيراتها من أن يجرف التيار «الشبية المغربية»، كما أخذ هذا التعبير إذاك في الرواج والانتشار على نسق التعبيرات المماثلة في بلاد النهضة الجديدة بالشرق أي «جون ماروكان»، وكان يعني الشباب الواعي المتحمس كطليعة الوطنية والتحرير. وكان الأمير ابن عبد الكريم متصلاً بأوساط فاس، وخاصة بالعلماء، ويظهر أنه وجدت وثائق تثبت هذه الاتصالات من جهة قائد الريف على الأقل، ويكاد يكون محققاً أن المرسل إليهم لم يقدروا على التراسل معه خوفاً على أنفسهم، فكانوا يكتفون بالأجوبة الشفوية بواسطة المبعوثين السريين من الريف. وقيل إن المراسلات الريفية كانت تتضمن

نداءات إلى الثورة على الاستعمار، وهذا ما لم يجد أذاناً صاغية لعجز المعننين بالأمر عن كل تحرك ثوري لم يكونوا رجاله، ولم يملكو وسائله، ولو حاولوه لكان مجرد انتحار يحترق فيه الأخضر واليابس. ولكن تلك المراسلات لم تكن خالية من كل أثر وجدوى، فقد كان من شأنها أن تبعث في النفوس روحاً، ويقظة، ونهضة، وتزرع فيها بذور الأمل والتفاؤل بالمستقبل.

وبالإضافة إلى هذا كانت أقوى دليل على أن الأمير ابن عبد الكريم استطاع أن يحقق الاتصال بمن أراد من أهل فاس شباناً وكهولاً، وأن السلطات الفرنسية عجزت عن عرقلة هذا الاتصال، وإحباط المساعي المبذولة لجلب الأنصار والدعاة، وتكوين الخلايا السرية العاملة لصالح الثورة الريفية التي كانت مؤيدة من الجميع بصفتها حركة جهاد مغربية عامة، حتى أن الأطفال كانوا يتغنون في الشوارع بما فيه الشماتة بجيش الأعداء. ومما كانوا يترنمون به قولهم: «أَعْسَكَرَ بَطَاطَهُ مَا فَيْكُم كُورَاجُ الْخ». أما صلات الأمير ابن عبد الكريم بعلماء فاس الذين عرفهم ودرس عليهم عدة سنوات لما كان طالباً بالقرويين، في عهد السلطان عبد العزيز، فقد كان من بينهم عبد العزيز بناني، والعراقي قاضي العاصمة.

وتذكر المصادر الفرنسية أنه مما ورد في مراسلته معها قوله: «إننا نعتمد عليكم لمناصرة الجهاد الذي ندعو إليه، ولا تنسوا، إن كنتم سجناء، أننا لسنا مثلكم، وأننا نملك القوات الضرورية لطرد الكفار من البلاد». وورد في رسالة إلى القاضي عبد الرحمان بن

القرشي، قوله: «لن نخلد إلى الراحة مادامنا لم نطرد الفرنسيين والإسبانيين من المغرب، فإذا بقوا فيه فعلوا ما أرادوا بالمغاربة، وسلبوهم كل شيء: فلا غابة، ولا بستان، ولا أرض، ولا دكان، ولا دار» وفي رسالة لأحمد ابن الجيلالي ورد قوله: «ولكن هؤلاء الكفار سيستولون ذات يوم على جميع المغاربة الأغنياء والرؤساء كمولاي يوسف وغيره، وسينقلونهم إلى قارة أخرى في البحار البعيدة، وهذا ما فعلته انكلترا مع ملك وحاكم الهند لما احتلت البلاد عسكرياً».

فهذه فقرات عربناها عن الترجمة الفرنسية لتلك المراسلات التي لا شك أنها سقطت بوسيلة ما في أيدي السلطات الاستعمارية، ولولا هذا لما عرفت أصلاً، وقد حرصنا على تعريبها عن الترجمة الفرنسية لبيان ما اشتملت عليه من بعض الأفكار والتوجيهات لا غير. أما الأصول العربية فربما توجد في السجلات السرية الفرنسية⁽¹⁾. ويتضح من تلك الفقرات أن الأمير ابن عبد الكريم استعمل في مخاطبة العلماء لهجة دينية لإفهامهم أن حركته ليست تمرداً وعصياناً كما اتهمها المستعمرون كذباً وزوراً، بل هي «حرب مقدسة» أي جهاد في سبيل الله لاختراج النصارى المعتدين باسم الصليب انتقاماً من المسلمين في أرضهم التي هي «دار الإسلام»، وكان هذا صحيحاً بالنسبة للإسبانيين، وكذلك للفرنسيين الذين تحالفوا كمستعمرين مع رجال الكنيسة في حركة

(1) ذكرت النصوص في كتاب:

Hubert Jacques, L'Aventure Rifaine, 1927.

ضد الإسلام والعربية كلغة القرآن والشريعة . وقد تجلّى كل هذا فيما
لفقوه وحاولوا فرضه باسم السياسة البربرية التي صدر بها التشريع
منذ 1914 أي عقب فرض «الحماية» بعامين، فطرد المستعمرين
بصفتهم غزاة وكفاراً من المغرب، أرض الإسلام والعربية، وكان
وسيلة للخلاص من خطر التبشير، والتنصير، والفرنسة، وهذا مما
هدفت إليه ثورة الريف عاجلاً أو آجلاً.

ومع أن العلماء كانوا في أنفسهم من أكبر أنصار الجهاد ضد
الاستعمار والنصرانية في المغرب فإنهم كانوا عاجزين عن التجاهر
بنصر الثورة الريفية لما في هذا من أخطار تهيؤها واتقوها عملاً
بالآية: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ ولم يقتصر الأمر
ابن عبد الكريم على مراسلة بعض العلماء والأعيان في فاس، وربما
في غيرها، بل اهتم كذلك بالاتصال بعدد من القواد في القبائل،
فقد اتصل بقيادة المقاومة المسلحة في جبال الأطلس وغيرها، وبقواد
قبائل زايان، وحتى بكبار القادة في الجنوب، وتذكر مصادر فرنسية
أن هؤلاء أصبحوا يتوقعون ثورة عامة فاستقبلوا سراً مبعوثي الأمير
ابن عبد الكريم. ولوحظ في ناحية مراكش أن العمال المغاربة في
ضيعات الاستعمار كانوا يتجاهزون بأقوال عدائية لأصحابها، مثل
قولهم: «نحن الذين سنأكل قمحكم هذا العام». وفي المصادر
الفرنسية أيضاً أن الاتصال بقواد الجنوب كان بواسطة شخص
متردد باستمرار راجلاً بين الريف والجنوب، فكانت الاتصالات
على مراحل.

وجواباً على نداء الثورة الموجه لهم، كان القواد يطلبون من الأمير ابن عبد الكريم بعض الرقيقين للتدريب على حرب العصابات، واستعمال الأسلحة، وكان الفرنسيون يعتبرون المجاهدين الرقيقين «معتدين وغزاة» كأن أرض المغرب قطعة من فرنسا حتى إن هذا أثار الاستغراب والسخرية في الخارج. ومما ذكر أن صحيفة أسبوية هي «الصدى الأنامي» كتبت ذات يوم هازئة وساخرة: «لقد اعتبر مسيو «بانلوفي» (رئيس الحكومة الفرنسية) أن طريق فاس قطع على الغزاة، فالمغاربة إذاً غزاة في المغرب! وعليه متى يغزو الأناميون الأنام، والفرنسيون فرنسا؟». وفي المثل السائر: الجنون فنون، وفي قول الشاعر: إِنَّ الحِمَاقَةَ أَعْيَتْ مَنْ يُدَاوِيهَا. وقد كان المستعمرون الفرنسيون حقاً مجانين وحمقى بترهاتهم وسخافتهم لم يشد عنهم ساستهم وقادتهم أمثال «بانلوفي»، فكانوا يرمون الكلام على عواهنه، ويسمون الأشياء بغير أسمائها، متعرضين للهزاء والسخرية في كل مكان.

ومن القبائل التي اهتم قادة الريف بالاتصال بها قبائل ناحية تازة، لأنها شجاعة وشديدة المراس، وتحكم كذلك فيما كان يسميه الفرنسيون «بمجنفد أو مجاز تازة» أي الفرجة بين الجبال التي يمر منها الطريق الرئيسي المتجه إلى وجدة والجزائر. وكان حرص الفرنسيين على بقاء هذا الممر تحت سيطرتهم أشد ما يكون، بينما كان قادة الريف كذلك شديدي الاهتمام بالاستيلاء على هذه النقطة الاستراتيجية الكبرى لقطع طريق الجزائر على الأعداء، ولتحقيق الاتصال والتعاون بين ثورة الريف وبين المقاومة المسلحة الدائرة

إذاك بضراوة في سلسلة جبال الأطلس الصغير والكبير، وبهذا يتسع الخرق على الفرنسيين، وتتوزع قواتهم، وتتأيد جيوش المجاهدين ضد العدو المشترك. ولما اشتدت وطأة المجاهدين الريفين على الجيوش الفرنسية المدافعة حريباً عن تازة نفسها المهددة بالسقوط في أيديهم، استعملت الغازات السامة لرفع الضغط على المدينة وما كان يعرف عند الفرنسيين «ببقعة تازة». وأكد لي هذا جندي سابق من قبيلة تسول لما كنت معتقلاً في السجن الحربي بتازة سنة 1930 بسبب الحركة ضد الظهير البربري، وكان قد مرت على هذه الأحداث نحو الخمس سنوات.

وكانت القبائل التي اهتم بها خاصة قادة الريف هي تسول، والبرانص، وغياثة المحيطة بتازة، وقد كان الوطني الغيور عبد العزيز بن علال الوزاني (المشهور بسيدي العزيز) الرجل الذي يتمتع بنفوذ كبير في هذه القبائل التي كان له فيها مريدون كثيرون جداً بصفته رجل دين، وتصوف، ومما كان يمتاز به الشهامة، والوطنية، وروح الجهاد في سبيل الله والوطن، وكل هذا جعل منه أكبر داعية لثورة الريف في قبائل تازة خاصة، وكان له تأثير ودالة على الوجهاء والرؤساء فيها، ومن بينهم الخلادي، قائد قبيلة البرانص، الذي «كان على جانب من المعرفة، ومطلعاً على الاتجاهات المتقدمة للنخبة الإسلامية»، كما ورد في تقرير للقبطان شميد: «صحيفة 14-15» وأذكر أن سيدي العزيز حدثني عن الحركة التي اضطلع بها في تلك القبائل لإعدادها للانضمام إلى الثورة الريفية في الوقت الملائم، وكان الخلادي متفقاً معه على أن يكون أول من يلتحق على

رأس قبيلته بقوات المجاهدين، وما فتى سيدي العزيز ينشر إذاك الدعوة إلى التعليم بين القبائل المذكورة، ويبث الوعي الوطني فيها، ومرة زارني ومعه عدة كتب دينية وعصرية قال إنه اشتراها لفتاة متعلمة في إحدى هذه القبائل، مما عد وقتئذ عملاً نادر المثل. وما حدثني به أن السلطات الفرنسية اقترحت عليه لوجاهته، ونفوذه وسمعته، أن يذهب في مهمة سياسية لدى الأمير ابن عبد الكريم، فرفض معتزلاً بكونه رجل ديانة وتصفو لا علاقة له بالسياسة، ولا يستطيع أن يتدخل في شؤونها ومشاكلها. وقد أغضب هذا الرفض المسؤولين الفرنسيين الذين لم يقتنعوا بالعذر فعدّوه تمنعاً وتغلباً باسم الدين والصوفية. ومنذ ذلك الوقت وهم واقفون منه موقفاً مضاداً إلى أن منعه، إبان الحركة الوطنية التي كان يعمل جهاراً فيها، من الاستقرار بقبيلة تسون، ومن التردد إلى بيته وزاويته الرئيسية فيها، وكل هذا انتقاماً منه، ومنعاً له من الإقامة في قبائل متأثرة بشخصيته، ونشاطه الوطني.

ويتضح مما ذكر، مقتضياً، أن قادة الريف كانوا وطنيين مغاربة غيورين على بلادهم وأمتهم، فتولوا الجهاد في سبيلها بادئين بشمال البلاد حتى إذا حرروه من الاحتلال واصلوا الجهاد والتحرير في سبيل ما تبقى من المغرب تحت السيطرة الأجنبية. واستعداداً لهذا كانوا يتصلون في القبائل والمدن بدوي الحيشة والنفوذ لكسب تأييدهم ومساعدتهم، واستنهاض همم غيرهم حتى لا تستسلم إلى روح الانهزامية ضعفاً ورهبة. وكانت أنباء الجهاد والانتصار تعمل كذلك عملها في النفوس جميعاً، وتغلؤها أملاً وبشراً، وتعدّها

لتلقى الإيجاءات، والتأثر بالنداءات المنبعثة من قيادة الثورة الوطنية التحريرية في الريف حتى إن سياسة الأعداء، ودعايتهم فشلتا في الحيلولة دون التيار الجارف للدعوة الجهادية والتحريرية المتغلغلة في سائر الأوساط البدوية والحضرية على السواء، كما كانت أخبار النهضة والإصلاح، والوطنية والكفاح في الشرق تتسرب إلى جميع الجهات في المغرب بالرغم عن الموانع والحواجز المقامة لضرب الحصار على المغاربة حتى لا يطلعوا على ما في الخارج، ويتأثروا به معنوياً وسياسياً.

وهكذا تعاونت الأحداث في المشرق والمغرب ضد خطط وتدابير الاستعمار لإبعاد الآفات والأخطار عن سيطرته المفروضة بالقوة والاضطهاد، وواصلت الشعوب الناهضة تحركها ومسيرتها نحو الحرية والاستقلال إلى أن ظفرت، بالكفاح والتضحية، بالحق المنشود، وما ضاع حق وراء طالب.

الأمير محمد بن عبد الكريم يصرح

من المعلوم أن الأمير محمد بن عبد الكريم استقبل أثناء الثورة الريفية عدداً من الصحفيين من أوروبا وأميركا، وتحدث معهم في شؤون حركته التحريرية، وأجاب عن أسئلتهم معروفاً بكل ما يهم الرأي العام في الخارج من الحقائق، والمواقف، والأحداث، وكان في أحاديثه قائد حرب بقدر ما كان داعية إصلاح. وبفضل هذه الأحاديث لم تبق دعاية الأعداء رائجة وحدها للتمويه والتضليل، وكان في هذا كسب معنوي وسياسي لثورة الريف التي تمكن قادتها من خرق الحجب، وفك الحصار، وإيصال صوت الحق، ونداء الحرية إلى جميع آفاق الدنيا. وهكذا خاض قادة الثورة بنجاح حرب الكلام لتعزيز حرب السيف، وتناقلت كثير من الصحف أحاديث وتصريحات الأمير ابن عبد الكريم مما قوى الدعوة لصالح الثورة التي حاولت دعاية الأعداء المغرضة تحريف حقيقتها، والنيل من قادتها وجنودها الأبطال بكل الوسائل والأساليب حتى يسود في شأنها الباطل، وتسو سمعتها في الخارج.

كما توافدت على الأمير شخصيات سياسية ورسيمة للبحث والتحقيق معه في شؤون الثورة الوطنية، ومن بين هذه الشخصيات

المراقب المديني بتاوريرت (المغرب الشرقي) «كابرييلي» الذي أوفده ليوطي في 1925 للتباحث مع الأمير ابن عبد الكريم، وقد وردت في كتابه بعنوان «عبد الكريم» خلاصة محادثته مع القائد الريفي، ونقتطف منها الفقرات التالية معربة عن الفرنسية:

«نعم، أعرف أنه يستشهد بمعاهدات 1904 و 1912، ولكن هذا خطر، فإن هذه المعاهدات يتحتم أن تعتبر متلاشية، وفي ذلك الوقت لم يطمح أي شعب في المغرب إلى الاستقلال، أما اليوم فإن الريفيين يعلنون هذه الرغبة الملحة في الاستقلال، فهم يريدون أن يعيشوا أحراراً، فهل من الغرابة رؤية شعب يطالب باستقلاله؟ وهل من الظلم رؤية شعب يطمح إلى الحرية؟ ويظل حراً في ربط علاقات مع الدول، واحترام المعاهدات؟ ولكن الحزب الاستعماري يريد أن يستعبدنا من غير اعتبار حق كل شعب في تقرير مصيره، وفي نفس الوقت الذي يدعي فيه بلوغ أوج الحضارة يتعين على هذه الحضارة أن تتجه إلى تحرير الشعوب بدل استعبادها، ومن أجل إضفاء المشروعية على مطامعه في الفتح والغزو بالنسبة لبلد ما يقول الحزب الاستعماري على هذا البلد فينعت به بكونه شعب هاج يتقاتلون، ويذبحون النصارى، ويحرمون التجارة العالمية من الثروات المعدنية والفلاحية، إلى غير هذا؛ وهذا غير صحيح بالنسبة لريف اليوم الذي هو بلد منظم، يسود فيه الأمن، ويمكن للأوروبيين أن يتجولوا فيه بحرية، ويستقبلون فيه بعطف، ولكي يبلغ درجة الحضارة كما هي في البلاد الأخرى يصمم الريف على توجيه الدعوة إلى الأجنبي من أجل ما هو في احتياج إليه، فيتبادل

متوجاته بالمنتجات الأوروبية التي لاغنى له عنها، ويعيش كما تعيش الشعوب الأخرى المؤلفة للبشرية. وكل مرة تتكلمون فيها عن معاهدات 1904 و 1912 تنقص وتضعف ثقتي في إمكانية الاتفاق، فإذا أردتم تحقيق سلم نهائي يلزم وضع أسس اتفاق نهائي، والأساس الوحيد هو الاعتراف باستقلال الريف، ووضع حدود بين المنطقتين، ولست أملك شخصياً أي طمع، فلا أطمح إلى السلطنة، ولا إلى الحكم المطلق، وإذا كنت عرقلة فإني مستعد للاختفاء، وترك المكان لسواي». وهكذا عرف المسؤولون الفرنسيون في المغرب وباريس نوايا واستعدادات الأمير ابن عبد الكريم كقائد حرب التحرير وثورة الإصلاح في الريف، فكان ما أفضى به إلى المبعوث الفرنسي تأكيداً جديداً كما سبق أن اطلع عليه الفرنسيون مراراً وتكراراً.

وقد جاء حديثه دليلاً آخر على أنه لم يكن كما كان يتهمه المستعمرون رجل تعصب وعناد، وعنف وحرب لا غير، بل كان يبرهن دائماً على أنه — كقائد ثورة وجهاد — مستعد كل الاستعداد للحوار، والتفاهم، وبهذا كان يظهر كرجل سياسة وديبلوماسية، وكداعية للسلم والطمأنينة في نطاق تحقيق المطامح المشروعة، والتمتع بالحقوق الوطنية، ولهذا لسنا متفقين مع من قال في قيادة الريف، باعتبارها «صفوة رجال فريدة بصلاحياتها وشجاعتها، وفارضة الإعجاب بها على العالم أجمع، أنها لم يوجد فيها فكر قادر على إجادة تمييز اللعبة العويصة للسياسة العالمية، والاستفادة من المنازعات بين الدول الأوروبية، فلو وجد هذا الفكر لربما تمكن من

إقناع لندرة، وربما اقتدت بها كذلك واشينطون». فصاحب هذا القول يجهل كل ما بذله قادة الريف من جهود ومسامح سياسية للتوصل إلى السلم مع الأعداء، ويغفل ما برهنوا عليه بهذا من حسن الإرادة، وطيب الاستعداد للتفاهم دون التضحية بالأساس والجوهر في قضية الريف الوطنية، وينسى ما طمحوا إليه وحاولوه بكل قواهم دون نتيجة إيجابية بكل أسف، وهو الاعتراف باستقلالهم من دولة أوروبية كبرى على الأقل، وهي انكلترا التي همتهم أكثر من غيرها للمكانة التي كانت تحتلها في غرب البحر الأبيض المتوسط بفضل جبل طارق، وللمعارضة التي كانت تبديها للمطامع الفرنسية في شمال المغرب، فهي الدولة التي كان يمكن لحكومة الريف أن تتفق معها باسم المصلحة المشتركة، وتنشد عونها وسندها لضمان استقلال الريف بعد انسحاب الإسبان منه.

ولكن انكلترا لم تذهب في موقفها من الريف إلى حد الاعتراف به ككيان مستقل، ولعل الأمر كان سابقاً لأوانه حيث إن الانسحاب الإسباني لم يتخذ إذاك صفة نهائية بالرغم عن الهزائم الكبرى، والانسحابات الاستراتيجية التي أكرهت عليها الجيوش المحاربة، فلم تكن المسألة - كما قيل - مسألة عدم وجود فكر سياسي قادر بدعائه على انتزاع الاعتراف من أية دولة بالاستقلال، ولكنها كانت مسألة مصالح خاصة بانكلترا، وكذلك مسألة ظروف دولية غير مواتية للإقدام على هذا الاعتراف، وفي الواقع كان الريف المجاهد في سبيل حقوقه يحارب في عزلة شبه تامة عن العالم بما فيه دنيا الإسلام، وفي رقعة ضيقة محاصرة برأ، وبحراً، وجواً

من الأعداء، فلم يكن مثلاً محمي الظهر بحدود مشتركة مع دولة عاطفة ومؤيدة كما كان الأمر بالنسبة للفييتنام والجزائر، ولم يكن كذلك مثلها معاناً بالأموال، والأسلحة، والمؤن، والأدوية وغيرها من أي مكان، ولم تكن له أيضاً في الخارج دعاية منظمة تتولى الحرب النفسية التي لا غنى عنها للحرب الساخنة. وقد كان «كوبلنز» وزير الدعاية في حكومة هيتلر، بمثابة جيش يخوض الحرب النفسية ضد الأعداء، ومع ذلك كله دامت حرب الريف بأقل القوات، وأضعف الوسائل، وفي أصعب الظروف — ما لا يقل عن سبع سنوات تكبد فيها الأعداء المتفوقون من الهزائم والكوارث ما هو معروف، وأوشكت على النصر النهائي لولا التحالف الحربي الفرنسي الإسباني الذي طور الحرب إلى ما جعلها حرباً ضروساً وعواناً، أي ما يسمى في الاصطلاح «بالحرب المطلقة» التي لا تبقى ولا تذر.

وإذا خسر الريف هذه الحرب في النهاية فلم يخسر إلا معركة «دون أن يفت هذا في عضد الرجال، ويفنى قوتهم النفسية، كما قال الأمير محمد بن عبد الكريم سنة 1954 أي بعد مضي ثلاث وثلاثين سنة على الثورة الريفية — فإن الطموح إلى الحرية، وتصميم شعبي سيمتدان أبعد من قوة المضطهدين لنا».

ثورة الريف وأدب الملحمة

كان من أثر الثورة الريفية أنها - بوقائعها، وبطولاتها، وانتصاراتها - حركت همم المفكرين والمتقنين، وغذت مواهب الكتاب والشعراء في المغرب والمشرق، فأطلقوا العنان للقرائح، وتباروا في النظم والنثر إعجاباً وإشادة بالثورة، وتنوياً برجالها المجاهدين، وتخليداً للمفاخر وذكريات الأجداد التي حققوها، وتركوها من بعدهم تراثاً قومياً لا يفنى.

وطالما دامت الثورة الوطنية تفتقت قرائح الشعراء بجيد النظم، وتفننت ملكاتهم في استنباط روائع الشعر، فتكوّن من هذا أدب وطني تغنى بملاحم الحركة الثورية التحريرية مشيداً بوقائعها، ومفتخراً بقاداتها، وممجداً لأبطالها، وناشراً دعوتها، ونافحاً روحها في الجيل المعاصر لها. وهكذا عاركت الثورة بالأقلام، كما حاربت بالسيوف. ومن المؤسف أن هذا الأدب الغزير والرائع لم يعرف منه إلا القليل لفقدان وسائل النشر في المغرب وقتئذٍ، وما قدر له الظهور والرواج نشر في بعض الصحف التونسية خاصة التي كانت راجعة عندنا «كالزهرة»، و«الصواب»، و«لسان الشعب». وربما تناقلت صحف أخرى في تونس، والجزائر، وبلاد الشرق ماجادات

به قرائح الشعراء المغاربة، وحظي بالنشر على صفحات الجرائد العربية. وإن ما لم ينشر لم يبق كله مجهولاً، بل شاع في الأوساط المغربية عامة، وبين الشبيبة خاصة بوسيلة النسخ والحفظ. وكان كثير من الشعراء يعملون كل ما في وسعهم لترويج قصائدهم بين الناس، ويكتمون أسماءهم حتى لا تعرف من سلطات الاستعمار التي كانت تعتبر هذا تأييداً للثورة، ونصراً لدعوتها، بل كانت الأشعار تنطق بالعداء الصريح للمستعمرين، وبالإهانة لجيوشهم، وبالشتمات بقادتهم، كما كانت تطفح ببطولات المجاهدين وانتصاراتهم الساحقة في أشهر المعارك التي انتهت بشر الهزائم، وأعظم الخسائر، فكانت أفزع الكوارث للعدو الغاشم، وقد كان الناس يترغمون بالقصائد الملحمية ويتخذونها أناشيد يتغنون بها في كل مكان، فتقوى فيهم وفي سائر الذين يستمعون إليها روح النهضة والوطنية والكفاح، ولا مغالاة في القول أن «أدب الثورة التحريرية» في الريف ألف «ديوان الحماسة» المغربي في القرن العشرين، وما أحوجنا لأن نجمع روائعه، فيعطيني بها الأدب العربي في المغرب خاصة، وتحفظ من تراثنا القومي الخالد.

ومن روائع الشعر في ثورة الريف ما عرف «بنشيد ابن عبد الكريم»، وينسب للشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان، ويظهر أنه اتخذ نشيداً رسمياً في الريف زمن الثورة، وكان شائعاً جداً بين الشباب الوطني الذي ظل يترنم به في المجالس والاجتماعات حتى أصبح فعلاً نشيداً مغربياً عاماً، وذكرت بعض المصادر الفرنسية أن النشيد الرسمي للريف كان هو المعروف

بطلعه: «من جبالنا طلع صوت الأحرار ينادي بالاستقلال»، وهو
النشيد اقتبسه الثورة الجزائرية في جبال الأوراس، والذي اتخذ
رسمياً للجزائر المستقلة، ونُشِيت فيما يلي النص الكامل للنشيد الأول
بصرف النظر عن صاحبه الحقيقي، وعن كونه اتخذ أو لم يتخذ
نشيداً رسمياً لثورة الريف:

نشيد ابن عبد الكريم

في ثنايا العَجَاجِ	والتحام السيوفِ
بَيْنَمَا الْجَوُّ دَاجٍ	وَالْمَنَايَا تَطُوفُ
يَتَهَادَى نَسِيمٌ	فيه أزكى سلامِ
نحوَ عبد الكريمِ	الأمير الهُمَامِ
ريْفُنَا كَالْعَرِينِ	نحنُ فيه الْأَسُودُ
ريْفُنَا	نَحْمِيهِ

كُلُّنَا نَظْرُبُ	لانتصارِ الْأَبِيِّ
كُلُّنَا يُعْجَبُ	بالفتى الْمَغْرِبِيِّ
أين جيشُ الْعِدَا	إذ دَعَا لِلْجِهَادِ
أصبحوا أَعْبُدَا	للسُّيُوفِ الْجِدَادِ
ريْفُنَا	نَحْمِيهِ

طالما استعبدوا	وأذلوا الرقاب
أيها الأيّد	جاء يوم الحساب
فليذوقوا الزّعاف	بالطّبي والأسل
ولنعلّ الهتاف	للأمير البطل
ريفنا كالعرين	نحن فيه الأسود
ريفنا	نحميه

عن كتاب جمعت فيه أشعار بالعربية مع ترجمتها الانجليزية
ويعتبر ضمن ما يعرف بـ (Cambridge Oriental) (Series No. 1)،
صفحة 57.

ولهذا الكتاب عنوانان: بالعربية والانجليزية.

1 - العنوان بالعربية:

(أزهار الأشعار)، جمع ونقل: آرثور جون أربري، لندن،
مطبعة تيلورس للكتب الأجنبية.

2 - العنوان بالانجليزية:

Modern Arabic Poetry, A;J. Arberry.

First published by Taylors Foreign Press, 1950.

Reprinted by the Cambridge University Press, 1967, 1975.



ويوجد نشيد آخر ذكرت المصادر الفرنسية أن الجيش الريفي لما أصبح منظماً اتخذ نشيداً وطنياً وأنشده بمناسبة تحرير مدينة شفشاون، ثم صار الشباب الوطني يتغنى به في فاس وغيرها أثناء الاجتماعات الوطنية، وهذا نصه :

الْيَوْمَ هَيُّوا لِلْحُرُوبِ هَيُّوا
وَتَرْجِعْ لِلْبِلَادِ ظَافِرِينَا
أَقَائِلًا سَلِّ التَّارِيخَ يُمْلِي
بِأَنَّنا نحنُ خَيْرُ الثَّائِرِينَا
كَمْ صِيرْنَا مِنْ بُحُورٍ وَدِمَاءٍ
وَتَرَكْنَا الْأَعْدَاءِ حَائِرِينَا
كَمْ تَرَكُوا مِنْ قُصُورٍ وَبَنَاءٍ
وَأَنْقَلَبُوا خَائِسِينَ خَائِرِينَا
وَالْيَوْمَ الرَّايَةُ الْحُمْرَاءُ تَسْمُو
وَتُرْفَرِفُ عَلَى الْفَائِزِينَا
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْخَائِنِينَ

* * *

ومن أشهر الأناشيد الوطنية الكثيرة الرواج إذاك بين الشباب المغربي نشيد جادت به قريحة الوطني الغيور، والأديب الشاعر

أبو بكر بناني من أعيان الرباط وعضو الجمعية السرية الأولى زمن
ثورة الريف وبعدها، ومما ورد فيه :

يَا بَنِي الْمَغْرِبِ، مَا هَذَا الرَّقَادُ؟
مَا لَكُمْ صِرْتُمْ كَأَمْثَالِ الْجَمَادِ؟
فَدَعُوا النَّوْمَ وَقُومُوا لِلْجِهَادِ
وَاسْأَلُوا اللَّهَ نَصْرَ الْمُسْلِمِينَ
يَا بَنِي الْمَغْرِبِ إِنَّ الْوَطَنَا
تَقْتَضِي سَمْعَهُ تَرْكَ الْوَنَا
فاحْمِلُوا الصُّمُصَامَ مَعَ حُمْرِ الْقَنَا
وَاسْأَلُوا اللَّهَ انْتِصَارَ الرِّيفِيِّينَ

* * *

ومن أشهر ما قيل في الثورة القصيدة التي نظمها الوطني
الغيور الحاج محمد بن اليميني الناصري، عضو الجمعية الوطنية
السرية الأولى في ذلك العهد، وقيلت بمناسبة المولد النبوي،
ومطلعها:

شَهْرُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ قَدْ وَافَى
يُفْقِشِي السَّلَامَ وَيَحْمِلُ الْأَلْطَافَا

ومما ورد فيها قوله إشادة بالأمير ابن عبد الكريم :

أَنْظُرْ لِمَا تَلْقَى فَرَنْسَا مِنْهُ إِذْ
 قَصَدَتْ بِشَايِخٍ مَجْدِهِ اسْتِخْفَافَا
 جَاءَتْ بِمُعْظَمِ جَيْشِهَا وَعَسَادِهَا
 فَاسْتَنْزَفَتْهُ رِجَالُهُ اسْتِنْزَافَا
 وَأَذَالَ دَوْلَتَهَا بِفَرْطِ دَهَائِهِ
 وَتَمَزَّقَتْ أَحْزَابُهَا أَطْرَافَا
 حَتَّى أَثَارَ بِمَجْلِسِئِهَا ثَوْرَةً
 شَعَوَاءَ تَرْجُو الْهُدْنَةَ اسْتِعْطَافَا
 وَإِذَا لِيُوطِي قَدْ تَرَدَّى سَاقِطًا
 مُتَحَمِّلًا مِمَّا جَنَاهُ إِكَافَا
 وَحَلِيفُهُ ذِي رِيفِيرَا قَدْ فَرَّ لَا
 يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ بِهِ يَتَلَفَّى
 وَتَنَافَرَتْ آرَاءُ دَوْلَتِهِ فَمَا
 أَضَحَتْ رُؤُوسُ مُجَنَّدِيهِ قَطَافَا
 سَلَّ عَنْهُمْ بَابُ الْمُرُوجِ، وَتَارَةً
 وَسَلَّاسَ، وَالْبَيْبَانَ، وَالْأَجْرَافَا
 وَسَلَّ الْبِرَانِصَ، وَالشُّسُولَ، وَجَايَةَ
 وَالسُّبْتَ، وَالْكِيفَانَ، وَالْأُكْنَافَ

تِلْكَ الْمَوَاقِعُ رَوَّعَتْ أَبْطَالَهُمْ
وَجَلَّتْ بِنَا عَنْ رَوْعِهِمْ أَشْجَافَا
تِلْكَ الْمَوَاقِعُ خَطَمَتْ أَبْطَالَهُمْ
وَأَرْثُهُمْ مِنْ وَيْلِهَا أَضْغَافَا



ومن أشهر الأشعار في إبان الثورة القصيدة الملحمية للمؤرخ
الشاعر الفقيه محمد بن الأعرج السليماني من علماء القرويين،
وأحد أدباء وشعراء فاس في ذلك العهد، وقد نشرت بإمضائه في
الجريدة التونسية «العصر الجديد»، ومطلعها:

دَعِ الْفَتَيَاتِ تَمَرِّحَ فِي الْقُصُورِ
وَيَمِّمْ مُسْبِعاً وَادِي النَّكُورِ

ولكن «ديوان الحماسة» المغربي تحول في النهاية إلى «ديوان
المأساة» لما حلت الفاجعة الكبرى بالريف خاصة، وبالمغرب عامة
نتيجة التحالف الحربي بين دولتي العدوان والاستعمار - فرنسا
 وإسبانيا - اللتين اعتدتا بجيوشهما الجرارة، وأسلحتهما الفتاكة،
وأساطيلهما المخربة - براً، وجواً، وبحراً - فتمكنتا، بعد سنة من
حربيهما الطاحنة، ومن مقاومة المجاهدين البطولية، من التغلب على
قوات الثورة، وأسر قادتها، وكان في هذا أعظم الكوارث، وأشد
النكبات، لا في المغرب فحسب، بل كذلك في عالمي العروبة
والإسلام، وفي شتى جهات المعمور.

وقد أطلقت المصيبة الحربية ألسنة الشعراء بما يحزن النفوس،
ويكدر الأرواح، ويُدمي القلوب، فكان هذا تعبيراً عن المأساة
الوطنية المغربية التي حلت مع هزيمة حركة الجهاد بقيادة الأمير
ابن عبد الكريم ورفقائه الأبطال، ومن الشعراء الذين تأثروا
بالمأساة، فأطلقت لسانهم بالشعر الحزين الذي تنفطر له الأكباد
الوطني الغيور، وأحد رجال الحركة الوطنية، محمد المختار السوسي
حيث قال في مطلع قصيدته:

قُضِيَ الْقَضَاءُ، وَحُتِّقَ الْأَمْرُ
وَعَرَا الَّذِي مَا خِلْتُهُ يَغْرُو

ومما ختمت به قوله:

عَبْدُ الْكَرِيمِ فَنَحْنُ نَعْلَمُ وَالْوَرَى
وَاللَّهُ أَنَّكَ مُسْلِمٌ حُرٌّ
أَذْهَبَ فَقَدْ أَذَّيْتُ لِلْأَوْطَانِ مَا
تَرْجُو وَإِنْ أَخْنَى بِكُلِّ الدَّهْرِ

وخلاصة القول، أن الأدب الوطني المغربي - في عهد الثورة
الريفية - عبّر أحسن وأبلغ تعبير، سواء منه الحماسي زمن
الانتصار، أو المأسوي وقت الانكسار، عما كان لدعوة الحركة
التحريرية الريفية في الشعب من أعماق الآثار، فكان بهذا كله

عاملاً قوياً في بث الشعور، ونشر الوعي في النفوس المغربية التواقّة
إلى الحرية، وبالأخص في الشبيبة الناهضة المتطلعة إلى أخذ الرسالة
التحريرية من أيدي المجاهدين لمواصلة النضال من أجلها حتى
الظفر بالنصر المبين.

الفصل الثاني والثلاثون

آراء وشهادات في الأمير محمد بن عبد الكريم

كتبت صحف العالم في ثورة الريف وبطلها العظيم، وكانت كبريات الصحف الانكليزية من أبرزها وأنصفها، ففي افتتاحية «الدائلي اكبريس» ورد:

«إن عبد الكريم يعد من بين الكثيرين من مشاهير رجال العالم الذين لا تعرف سيرهم إلا في الروايات، فهو شديد الحذر والانتباه، لا ييوح بخطته إلا عند تنفيذها...»، وقال مراسل «الدائلي ميل»:

«عبد الكريم في العقد الخامس من عمره، وسيم الوجه، براق النظرات، له نظرات كالنسر، مليح كأغلبية بني جنسه، مهيب الطلعة وديع المحيا، وقد حادثته طويلاً فوجدته رجلاً ذكياً، هادئاً، حذراً، غامضاً».

وقال مراسل «المورنين بوسط».

«إن من يعرفه، يعلم أنه ذو شخصية عظيمة، فهو أحد أولئك الذين يولدون زعماء في أزمنة مختلفة بين الأمم ليكونوا

مصيرها، ويتركوا أثرهم في تاريخ العالم، وليس هو زعيمًا فحسب، بل هو مصلح أيضًا».

وقال مراسل «التايمس»:

«إن الأمير ابن عبد الكريم قائد مقتدر».

وقال ميستر «كنورتي»، عضو مجلس الشيوخ البريطاني:

«إن ابن عبد الكريم رجل حرب وجلاد، وزعيم يعرف كيف يجعل الجماهير تنقاد إليه».

خاتمة

تلك هي، باختصار، الخطوط العريضة، والأحداث البارزة لثورة الريف الوطنية التحريرية بقيادة أبطالها أمراء الجهاد محمد، وشقيقه محمد بن عبد الكريم، وعمهما عبد السلام الذين ألقوا النواة أو الثالوث - كما قيل - لتلك الحرب المشروعة باسم الشرف، والوحدة، والاستقلال في المغرب.

وقد اعتمدنا في عملنا على كتابات مخطوطة لبعض رجال الريف المجاهدين، وكذلك بعض المصادر الأجنبية المهمة في الموضوع، وما تشتمل عليه سجلاتنا الخاصة من وثائق ومعلومات. وليس قصدنا تقديم تاريخ حرب الريف بالمعنى الكامل، فهو ما يزال يحتاج إلى البحث والتدوين، وإنما هو رسم لمحة، وإعطاء نظرة عن تلك الحركة التحريرية المسلحة في شمال المغرب، وذلك لسببين، هما: أن حرب الريف شغلت فترة سبع سنوات من المرحلة التاريخية المغربية التي هي موضوع هذا الكتاب، فلها فيه محلها البارز، وأنها كانت أعظم ملحمة في تاريخ المقاومة المسلحة

المغربية دفاعاً عن الوطن ووحدته، وسيادته واستقلاله ضد دولتي العدوان والاستعمار، فرنسا وإسبانيا. فالحركة الريفية كانت بهذه الصفة رد فعل ثوري قومي ضد الغزاة الأجانب، كما كانت انطلاقة وطنية كبرى تجاوزت وقتئذٍ في المغرب مع انطلاقات وطنية معاصرة في المشرق بقيادة الغازي مصطفى كمال في تركيا الجديدة، وسلطان الأطرش في جبل الدروز بسوريا زمن ثورتها على الاحتلال الفرنسي باسم (الانتداب)، بل أكثر من ذلك كانت حركة الريف الثورية انفجاراً جهادياً أيقظ الشعور القومي، وألهم الحماس الوطني في الأمة المغربية، وقوّى ما كان في معظم جبالها، وسهولها، وصحاريها من مقاومة مسلحة ضد العدو المحتل. وكل هذا حفز الشباب المغربي أكثر إلى أن يتهيأ للوثوب السياسي، ويتأهب للنضال التحريري، وقد تسلم الراية من يد المجاهدين الذين طالما أبلوا في ميدان القتال بلاءً حسناً، فأدوا الواجب أحسن الأداء شهداء وأحياء، وخلفوا للشباب الوطني رسالة سامية مقدسة هي رفع مشعل النهضة الوطنية في المغرب، أرض الأحرار، والأبطال.

إن ثورة الريف التحريرية قد نضحت الروح في النفوس، وأحيت الضمائر، ومهدت السبل، ورسمت الاتجاهات للجيل الناهض، فالشعب مدين لها بما أحدثته من أثر فعال في نهضته الوطنية، وحركته السياسية، ووثبتة التحريرية، وذلك في فترة المخاض، ومرحلة التكوين اللتين لم تطولا سوى بضع سنين، ثم كان الانطلاق المنبعث من إرادة الشعب الذي صنع الأجداد، وأتى بالمفاخر عبر التاريخ.